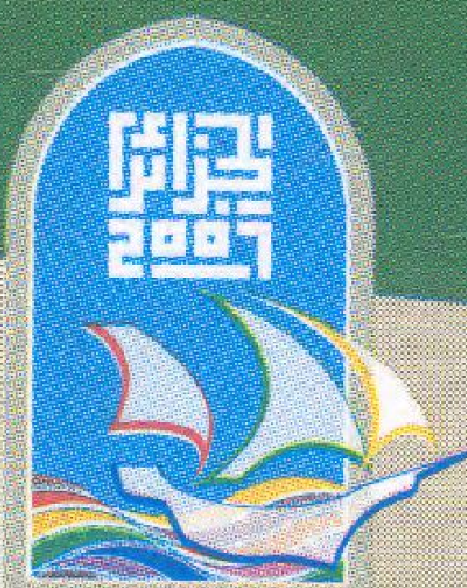
بوعلام بسّايح

الأمير عبد القادر مغلوبا لكن مظفرا





صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع

الأمير عبد القادر
مغلوبا لكن مظفرا

من لويس فيليب إلى نابليون الثالث

- الكتاب: الأمير عبد القادر مغلوباً لكن مظفرا.
- المؤلف: الدكتور بُوعلام بسَّايح / ترجمة.
- عنوان الطبعة الفرنسية: De Louis Philippe à Napoléon III
L'Emir Abdelkader Vaincu mais triomphant / 2002
- الغلاف والإخراج: SIMPLE Production
- الإيداع القانوني : 2494 -2007
- ردمك : 978-9947-24-265-0

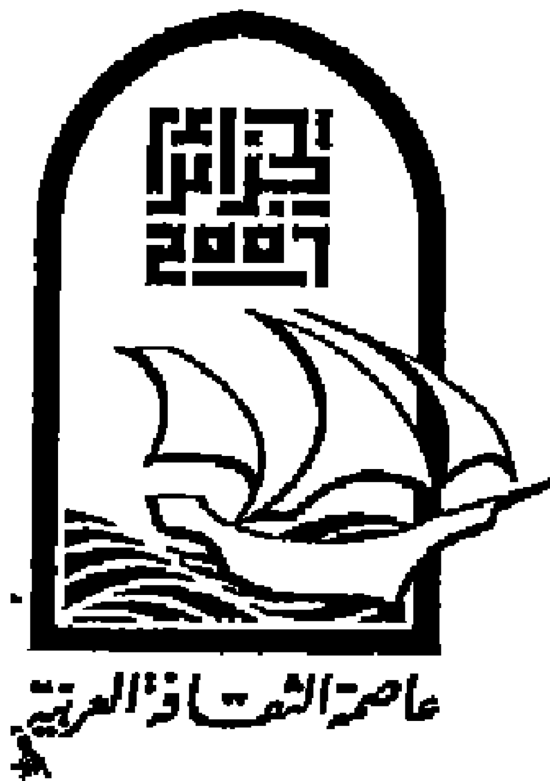
بوعلام بسّايح

الأمير عبد القادر مغلوبا لكن مظفرا

من لويس فيليب إلى نابليون الثالث

ترجمة: د. خليل أحمد خليل

مراجعة و تصحيح
بوعلام بسّايح



الفهـرس

« لا يوجد في العالم الحاضر سوى ثلاثة رجال يمكن وصفهم حقاً بالعظماء، وكلّهم ينتمون إلى الحركة الإسلاميّة: إنهم عبد القادر، محمد علي وشميل * »

- الماريشال سولت 1849

* شَميل أفندي (1797-1871)، بطل استقلال القوقاز؛ قاد الشعوب الإسلامية في كفاح دام خمسة وعشرين عاماً، ضدّ الرّوس. سُجن سنة 1859، توفي في المدينة المنوّرة سنة 1871.

- محمد علي باشا (1769-1849)، مؤسس السُّلالة الخديوية في مصر، تولّى الحكم عام 1805 حتى وفاته، سعى إلى تأسيس امبراطورية عربية بديلة للإمبراطورية العثمانية، وعلى يديه تحققت نهضة كبيرة في مختلف المجالات.

شكر وتقدير

نتوجّه بالشكر إلى سعادة س. فرشينيني، سفير روسيا في الجزائر، لتفضّله بإعطائنا التقارير التي وجّهها الممثّلون الدبلوماسيون للبلاط الإمبراطوري الروسي، إلى الأمير غورشاكوف وزير الشؤون الخارجية سنة 1860.

فهي، فضلاً عما ترويه من فصول بعض الأحداث التي هزّت دمشق سنة 1860، تكشفُ بنحو خاص المشاركة الشخصية الفاعلة للأمير، الهادفة لحماية مختلف القناصل الأجانب في دمشق، والحفاظ على حياة إثني عشر ألف مسيـــحي، كانوا مهدّدين بموتٍ أكيد.

إن هذه الوثائق المُصنَّفة والمُرقّمة جرى استخراجها من أرشيف وزارة الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية في موسكو.

مدخل

وُلد عبد القادر في 13 رجب عام 1223 هـ، الموافق يوم 06 سبتمبر سنة 1808[1] في سهل غْرِيس بالقرب من مدينة مُعَسْكر، (جنوب شرق مدينة وهران) من عائلة مرابطية مشهورة. كانت قبيلتُه آل هاشم مشهورة باستعمال السيف والبندقية. وكان والده محيي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار رجل أدب وفقه وعقيدة، فأنشأ مدرسة قرآنية فقهية، ارتادها الطفلُ عبد القادر مثل كل أطفال الوسط المحيط به. لم يكن محيي الدين يحبُّ أن ينشر العلوم من حوله فحسب، بل كان يُنفق الكثيرَ من ثروته لمساعدة البائسين وإعانة المحرومين؛ فكان يردّ بالإيجاب على أي شخص يطلب معونته، مما جعل نفوذه عظيماً في كل الغرب الجزائري.

وكان من أجداد عبد القادر إدريس الأكبر، المؤسِّس الأول لمدينة فاس. وكان قد كتب بذلك لاحقاً، إلى العقيد أوجين دوما Eugène Daumas المبعوث الخاص إليه خلال أسره في حصن لامالغ Lamalgue، بينما كانت صحيفة فرنسية تُرجع جذوره إلى أصل أمير إسباني: «كان أجدادنا قد مكثوا في المدينة المنوَّرة، وكان إدريس الأكبر أول من هاجر منهم، فصار سلطان المغرب وأنشأ فاس؛ وبما أن ذريته كانت قد تكاثرت، فإن المُنحدرين من سلالته توزعوا. وقدمت عائلتنا منذ عهد جدّي الأكبر فقط للإقامة في غريس (بالقرب من معسكر). إن أجدادنا مشهورون في الكتب وفي التاريخ بعلمهم وتقواهم ومخافتهم لله (مارس 1848)».

هل ينبغي أن نرى في هذا الأصل المُستورد المنسوب إليه، بحثاً عن ألقاب شرف تمنح شرعيةً للمقاومة، أم أنها لعبة أرستقراطية مستساغة عموماً، ومفيدة بلا شك لـ«تـمييز» الصالح من الطالح؟ في كل الأحوال، يمكن الإعتقاد بأن ذلك كان «فناً» على درجة من الإنتشار لا بأس به في أوروبا. ففي سنة 1871، عندما قاد المُقراني مقاومة ثلثي الجزائر ضد فرنسا، وحينما كانت فرنسا تواجه ثوار مدينة باريس، تخيَّل البعض أن الثائر الجزائري كان من أَرُومَة النبـلاء، ومنحدِراً مـن آل مونت مورِنسي Montmorency !!

درس عبد القادر القرآن والفقه والأدب والتاريخ والفلسفة والصوفية. وكان محيي الدين يسهر على تعليمه ويرعاه بعناية المربي وحنان الأب. كما كان يسهر على تربيته الإجتماعية: حتى يكون مسلماً صالحاً، متمسكاً بالفضيلة والقيم الأخلاقية، ولكي يكون أيضاً فارساً أصيلاً. فمنذ يناعة شـبابه، كـان يركب الخيل ويمتطيها الواحد تلو الآخر، فينطلق كالصاعقة. وكانت كل المناسبات، مثل الـزواج و الوَعْـدة والختـان واللقاءات العادية بين مراهقين متحمسين ومتنافسين، تـؤدي إلى حركات فروسية مثيرة. وسرعان ما تميَّز عبد القادر، كما سَيْذكر ذلك لاحقاً رفاقُ نضـاله، وملازمـوه أو الخيالـة العاديون.

كان أمام عبد القادر مسافات واسعة؛ فكان يترك مطيّتـه تقوده على هواها إلى آفاق بعيدة، أو تستدير بفـرح علـى أصوات النّايات وقرع الطبول، أو تثور وهي تصْهَل صـهيل ارتياح وسرور. وسيدرك عبد القادر لاحقاً، وهو يتنزه علـى

جواده في براري الشمال وسهوب الهضاب العليا، أن هـــذه المسافات الشاسعـــة السَّهلـــة، هي مساحات يسهل علـــى العدو بلوغها.

وفجأة، وجد عبد القادر نفسَه مدفوعا رغما عنه إلى مقدمة المسرح السِّياسي، بعد حوادث تستحق وقفةً عندها.

1- تقول مصادر تاريخية أخرى أن الأمير عبد القادر ولد عام 1807.

مبايعة عبد القادر أميراً

آلَتْ شهرة محيي الدين المتعاظمة إلى إثارة الاهتمام المريب لدى السلطات التركية، خاصةً لدى الباي حسن الذي كانت منطقته تعاني من القهر.

لقد حدث انقلاب مسرحي: إذ كانت مدينة معسكر عرضة لهجوم من طرف التِّيجاني، مرابط بلدة عين ماضي (بالقرب من الأغواط)، ذلك الذي كانت وجاهته تتنافس مع وجاهة محيي الدين، والذي سيشتهر ابنه لاحقاً بالمعارضة الحادّة للحصار الذي سيفرضه الأمير عليه. قضى التِّيجاني في تلك المواجهة، غير أن الأتراك اتّهموا سي علي بوطالب شقيق محيي الدين، بأنه ساعد المهاجم.

ولمواجهة هذا الوضع وما فيه من شبهات ومكائد، قرّر محيي الدين كرجل حكيم، أن يتوجّه إلى مكة، وأن يأخذ معه ولدَه عبد القادر لحمايته وإبعاده عن هذا الجو المسموم؛ لكن قافلته المتوجّهة إلى مكة، أُوقفت بأمر من الباي عند أبواب مدينة الشلف، واقتيدت إلى وهران. لكن بعد مفاوضات طويلة، وبفضل نفوذ وضغط عدة زعماء قبائل، أُعطي الإذن أخيراً لمحيي الدين. وكان زعماءِ القبائل قد استاؤوا من سلوك الباي، فحرصوا في تلك اللحظة الحرجة على تقديم دعمهم إلى محيي الدين، والتحقوا به قبل سفره، حتى أن بعضهم رافقه في رحلته.

بدأت الرحلة عام 1827، وصل المسافرون بعد تونس إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة. وكان الألباني محمد علي باشا

ملك مصر، قد طرد الإنكليز وأعاد فتح مكة. كما كان قد دخل الحرب مع اليونان؛ فكان أسطوله المدعوم بأسطول الجزائر، قد هُزم في معركة (نافارين)، أمام تحالف ضمّ فرنسا وإنكلترا وروسيا؛ لكنّ نفوذه ظلّ كبيراً في البحر المتوسط. فكل ما يتعلّق بالبحر المتوسط كان يُحْظى باهتمامه؛ وحين أعلموه أن جماعة من المغـــاربة [1] Maghrebins (من المغرب العربي) على رأسها شخص مشهور، كانت قد وصلت إلى القاهرة، أعرب عن رغبته في لقاء محيي الدين.

كان اللقاء حارّاً، وطرح حاكم مصر كثيراً من الأسئلة حول منطقة المغرب Maghreb (المغرب العربي) وحول مملكة المغرب Maroc وسلطانها، حول نظام حكم الدّاي في كل من تونس وطرابلس (ليبيا)، وإدارة الأراضي، ونظرة المغاربة وحكمهم على العثمانيين والخليفة، وكذلك حول القوى الأوروبية المجاورة لشمال أفريقيا.وأفهم زائرَه مدى تعرّض المغرب (العربي) Maghreb للمطامع؛ وهذا الأمر سيتحقق لاحقاً،في النِّصف الأول من القرن التاسع عشر، وبشكل ملموس أكثر في مؤتمـــــر الجزيرة (1906).

كان الفتى عبد القادر يُصغي، وهو مندهش من أبّهة القصر، إلى شخصية الملك، وعندما استدار قليلاً نحو عبد القادر، تجرأ الفتى على سؤاله عن التنظيم المحكم لميناء الإسكندرية، فـــردّ السلطان عليه: «هذا الميناء أُراقب كل داخل وخارج»؛ هذا من علامات السِّيادة بلا شك، التي سيتذكّرها عبد القادر. ثم قال لمحيي الدين: «لهذا الفتى مستقبل كبير».

بعد إتمام الحج إلى الأماكن المقدسة، توجّه محيي الدين وولده إلى بغداد، حيث توجد قُبَّة أشهر مرابط سيدي عبد القادر الجيلالي، الذي يرجع أصله إلى محيي الدين، حتى يصل إلى ذروة الهرم، إلى النّبي نفسه (صلى الله عليه وسلم).

تميّزت الإقامة في بغداد بزيارة عددٍ من العلماء وعدة مكتبات، حيث كان الفتى عبد القادر يروي ظمأه إلى المعرفة والعلم، وهو يقضي الأمسيات سائلاً والده عن هذا الحدث أو ذاك من حوادث السُّلالة الأموية، العباسية أو الفاطمية، وعن مآثر هذه السُّلالة أو تلك، وعن المسائل الدينية، إذ كانت منذ ذلك الحين تبدو على الفتى ميول إلى الصوفية.

قرّر محيي الدين الرجوع ثانيةً إلى الأماكن المقدسة، بعدما سُحِر بسحر الشرق الأوسط حيث يتوجّه كل شيء نحو عظمة الله، وحيث يدلّ كل مسجد أو جامع على مرحلة من التاريخ، وحيث يشهدُ كلُّ أثر على مجد غابر لا يزال مرئيا وحاضرا. كانت تلك الرحلة الثانية بالنسبة إليه مناسبةً للقيام بحج جديد، وكذلك للإستعلام لدى المغاربة الذين التقاهم، عن الوضع السائد في ولاية وهران. وسرعان ما اطمأنّ؛ فقد جرى نسيان حادثة معسكر، وكان علي بوطالب قد عاد إلى الولاية حيث يعيش بأمان.

عندها قرّر محيي الدين أن يرجع هذه المرة عن طريق البرّ، حيث توقّف لدى الرجوع من مكة عند ضريح والده المدفون، في الموضع المعروف باسم (عين غزالة) قرب مدينة برقة في ليبيا؛ ومن هناك سيعود إلى تونس ثم الجزائر.

كان ذلك سنة 1829، حيث تمكن محيي الدين لدى عودته أن يلاحظ بسهولة أن غيابه في مواجهة تجاوزات الباي، قد ترك فراغاً كبيراً بين القبائل، وأن زيارته للأماكن المقدّسة قد زادت من نفوذه، إذ كان يتوافد الزوار إليه من كل حدب وصوب، فكانت تأتيه الوفود والبعثات مرحّبةً بقدومه الميمون، ومتبرّكةً به. لكنه عزم على أن يبقى في منأى عن الشؤون العامة؛ ومما لا شك فيه أنه ازداد تأثراً وممارسة لسلوك تزهّدي تطوّر لديه إبان الحج، فانكبَّ على مضاعفة أعمال البرّ والإحسان. هذا الموقف عاد عليه بزوال شبهات الأتراك وهواجسهم.

زُوِّج عبد القادر من ابنة عمه لالة خيرة إبنة سي علي بوطالب؛ سنة 1829؛ وبعدها بأشهر عدة، أُعلن استيلاء الفرنسيين على مدينة الجزائر. وعندها جرت انتفاضة عامة لقبائل ولاية وهران ضد قبائل المخزن (2) المُتهمة بارتكاب كل الشرور والعجز عن حماية البلد.

عندما علم الباي حسن بالوصول الوشيك لفرقة فرنسية إلى وهران، وبعدما تداول في عدة احتمالات لخلاصه، قرّر أن يبحث عن ملاذٍ آمن في المنطقة، قد يسمح له بعد انسحاب الفرنسيين من وهران، بالعودة إلى عاصمته واستعادة وظيفته.

إن موقف الإنتظار هذا، الذي اتخذه الباي، السّيد البليد، لم يكن له أيُّ معنى سياسي. لقد فكّر في محيي الدين طبعا، ذي النفوذ المنقطع النظير. فاستقدمه سرّاً وعرض عليه الوضع. ردّ محيي الدين، كرجل متفطن، بأنه ليس قادراً بمفرده على اتخاذ قرار بمثل هذه الأهمية، وأنه لابدّ من العودة إلى مجلس العائلة.

انعقد مجلس العائلة برئاسة محيي الدين، الذي عرض رغبات الباي حسن، وبعد التداول أجمع أعضاء المجلس على الإعتراف بضرورة منحه حق اللجوء، على الرغم من الأخطاء الكثيرة التي كان قد ارتكبها. وكان عبد القادر آخر من أعرب عن رأيه، معتذراً من والده أولاً، ومن ذويه ثانياً، لكونه يرى رأياً مخالفاً لآرائهم. فقد لاحظ أنه إذا تمت الموافقة على منح حق اللجوء، فإن العائلة ستكون غير قادرة على تأمين سلامة الباي من عداوة عامة القبائل التي أساء معاملتها، وكونه تحت حماية العائلة، سيعود عليها بالعار لأنها لم تحترم تعهّدها.

ثم أضاف عبد القادر، أخيراً، ما هو أهم وأخطر: «إن منح حق اللجوء إلى ذلك الذي يجسّد نظام ظلم واستبداد، إلى باي فاسد وقذر، يمكن أن يعتبره الجميع بمثابة استحسان لسلوكه السابق، وبالتالي قد تُعتبر من المتواطئين معه، فنغدو أعداءً لكل عرب المنطقة».

أنهى عبد القادر كلامه، فحُظي بتأييد والده، ثم بتأييد كل مجلس العائلة. وبذلك لم يشك عبد القادر في أنه قد أحرز انتصاره السياسي الأول، قبل أن يُرقّى دون علمه، ليترأّس مقاليد شعبه.

بعد زمن ما، دخلت القوات الفرنسية إلى وهران بقيادة الجنرال دمرمون دوني Damrémont Denis (1783-1837)، التي كان الباي قد سلّمها بلا قتال، لكي يُبحر بعد ذلك إلى الجزائر ثم إلى الإسكندرية.

لم يعد ثمة سلطة تركية، بل سلطة فرنسية محصورة في مدينة وهران. وكانت القبائل الثائرة، لكن بلا قائد ولا استراتيجية متروكةً لذاتها. وسرعان ما دبّت الفوضى؛ وراحت القبائل المتخاصمة تُذكي نيران أحقادها. وأضاف قطاع الطرق

فوضاهم إلى الفوضى العامة. وكان سكان تلمسان وقبيلة بني عامر أول من بذل كل ما أمكن من أجل تعيين قائد مقبول ومحترم من الجميع.

لكن أمام استحالة اكتشاف رجل الإجماع في تلك المرحلة بالذات، قرّروا الإستنجاد بسلطان فاس مولاي عبد الرحمان بن هاشم، الذي كان سلطانه ونفوذه يتجاوزان الحدود، لكي يعيّن رجلاً يحكمهم من العائلة الملكية. فسارع إلى تلبية رغبتهم، معيّناً حفيده مولاي علي بلقب خليفة. لكن هذا الأخير ما كاد يبدأ باستتباب القليل القليل من النظام والأمن برضى الجميع، حتى استُدعي إلى فاس، إثر وقوع احتجاجات، وحتى ربما إثر تدخلات فرنسية صارمة، نقلها السيد دو موريناي De Mornay إلى السلطان مولاي عبد الرحمان.

لم يكن اختيار الكونت دو موريناي وليد صدفة، إذ كان صهرَ الماريشال سولت Soult، الذي كان رئيس الحكومة ووزير الحربية في آنٍ واحد. وقد كان واثقاً من نجاح مهمته، حيث أنه استقدم معه لأجل ملذّته، الرسام أوجين دولاكروا Eugène Delacroix الذي اكتشف ألوان المغرب الزاهرة، التي سوف يستعملها بمهارة.

اعتُبِر استدعاء الخليفة مولاي علي إلى فاس بمثابة كارثة آنئذ، كانت القبائل تراجع موقفها، وراحت أهمُّها: قبائل بني عامر، هاشم، الغرابة، ووجهاء تلمسان تطالب محيي الدين بتولّي الحكم. فرفض طلبهم، بسبب تقدّم سنه على حد قوله. فألحّوا؛ وحدد بينهم موعدٌ لليوم التالي.

أثناء ذلك، انتشر الخبر بأن اجتماعاً مهماً سيُعقد لتعيين القائد الجديد، فتوافدت القبائل المجاورة إلى مترل محيي الدين. كان الأهالي ينتظرون في هذا الجو المحموم، المشوب بنفاد الصبر وبالأمل. وبينما كان محيي الدين يواصل رفضَه، كان زعماء القبائل الذين اغتنموا فرصة الليل لكي يفكروا في ردهم، قد أبلغوا محيي الدين الموقف التالي: « أنت لا تستطيع أن تُعفي نفسك من الدفاع عن أرض إسلامية. فإذا رفضت فسوف نحمّلك المسؤولية علناً عمّا سيترتّب على ذلك من مآسٍ بالنسبة إلى سكان هذا البلد».

وبما أنه ظل متمسكاً بموقفه، مُتذرّعاً بسنِّه، قال لهم: «يلزمكم رجل شاب، نشيط، ذكي، شجاع». فردّوا عليه: «والحال، بما أنك لا تريد، فأعطنا سلطاناً، ليس ابنك البكر المشغول بالكتب، بل ابنك الأصغر، وهو رجل بارود». وبعد مداولاتٍ ووشوشات وضغوط لا متناهية، خرج الشيخ محيي الدين من خيمته وقال: «هاهو سلطانكم، أطيعوه كما تطيعون محيي الدين. فليُسَدِّد اللّه خُطى السلطان». وكان الهتاف الحماسي الهائل من قبل الجمهور المجتمع، وسط صهيل الخيول، والزغاريد الصافية الآتية من الخيام المجاورة.

كانت تلك البيعة الأولى في 03 رجب 1248 هـ، الموافق يوم 27 نوفمبر 1832م، وعمر عبد القادر حينذاك أربعة وعشرين عاما[3].

---

1 – قد تستخدم تسمية (المغرب) آنذاك إشارة لكل منطقة المغرب العربي، ويسمى أهله بـ (المغاربة)، في مقابل كلمة (المشرق العربي).

وسكانه (المشارقة). وتجنبا للبس والتمييز بين (المغرب) بما هو منطقة نضيف (العربي) وبالفرنسية Maghreb. ولسكانه المغاربي أو المغاربيين Maghrébin, Maghrébins. أما المغرب كبلد فنضيف (المملكة) وبالفرنسية Maroc، ولسكانه المغربي أو المغاربة، Marocain, Marocains. علما أن المقصود بالمغاربة لدى الأمير عبد القادر هم الجزائريين، كما جاء في قوله بدمشق (أنا عبد القادر المغربي) (المترجم).

2- قبائل المخزن: كانت تحظى بامتيازات معينة في عهد البايات، مكلفة خاصة بإقرار الأمن وجمع الضرائب من القبائل الخاضعة للحكم التركي.

3- تمت البيعة الثانية العامة لعبد القادر، أميرا للمقاومة والجهاد بمسجد حسان في معسكر، بتاريخ 13 رمضان 1248 هـ، الموافق يوم 04 فيفري 1833م.

معاهدة دو ميشال

توجّه عبد القادر، بعد إعلانه سلطاناً، إلى معسكر ومعه جمهور غفير انضمّ إليه سكان المدينة، فدخل إلى الجامع. وهناك ألقى خطابه السياسي الأول.

ذكّر بالحوادث التي وقعت في المنطقة منذ عامين، خاصة احتلال الفرنسيين لوهران، الذي كان يمثّل خطراً لا سابق له بالنسبة إلى الأهالي ودينهم؛ لكنّ مجهوداً حربياً قد يكون كافياً لطردهم، لأن قوهّم تكمن في كونهم يحتمون خلف أسوار المدينة، وهذا المجهود يستلزم وحدة الصفوف، بتناسي الإنقسامات والأضغان، « وبيقظة الضمائر وحب الأرض، أرض أجدادنا الذين كانوا يُجيدون استخدام البارود للدفاع عنها».

«أما أنا فسوف أرفع الراية التي سلمتموني إيّاها، وأقودها نحو النصر، نحو انتصار العدل على الظلم، وانتصار الخير على الشر، والكرامة على الذل. ولئن كنت قد تقبّلتُ الحكم، فذلك لكي يكون لي شرف وواجب الوجود في الصف الأول، ولكي أقودكم في المعارك لأجل الحرية. لكنني مستعدّ أيضاً للخضوع لسلطة أي قائد آخر يطيب تعيينه، لكي يكون أجدر مني وأقدر على قيادتكم، شرط الإلتزام بأن يأخذ بيديه مصيرنا ويقودنا في سبيل اللّه، إنني أعلنُ الجهاد».

فجّر هذا الخطاب حماس الجماهير وفرحها. وانطلقت صيحات الإستحسان والتأييد من كل الجهات، نظراً لأن إعلان الجهاد سيضع القبائل المتردّدة أمام الموقف الحاسم،

والإصطفاف خلف رايته أو اعتبارها خائنة للقضـــية. كمـــا اعتكف عبد القادر في دار الحكم، التي قاده الجمهور إليها.

وبدأ بتحرير الرسائل إلى زعماء القبائـــل، داعيـــاً إيَّـــاهم للإنضمام إليه. لكنه تحوّط للأمر فوقّع: «الأمير عبد القادر»، وليس الملك ولا حتى السلطان. فالأساس بالنسبة إليه، هو أن يحمل لقب قائد ومُرشد، وكان اسم أمير يُخَوله بذلك، دون أن يصدم أُذنَ زعماء القبائل الغَيُورة، إذ من شأن اسم سلطان أن يخدشَ الحساسية الملكية لسلطان فاس، التي كان عبد القادر أحس بها، وربما قد يحتاج إليه ذات يوم.

كان قد دعا زعماء القبائل إلى اجتماع في الأيام الأولى من جانفي 1833. وقد وجد نفسه حينذاك على رأس ستة عشـــر ألف فارس، لكن أحداً لم يتقدّم. فنشر راياته وخاض المعركة ضد الجيش الفرنسي. لقد تم صدّه لكنه أوقـــع ضـــحايا في صفوف الخصم وترك قتلى وراءه، منهم حفيده الـــذي قُتـــل برصاصة مسيحية. منذ ذلك اليوم بدأ وحده في الجهاد، دون مساعدة زعماء القبائل الأخرى، الذين اكتفوا بأن أرسلوا له رسائل إلى مدينة معسكر، بعضها بألفاظٍ مهذبة جداً، وبعضها يهزأ من شبابه. منذ ذلك اليوم أدرك عبد القادر أنه لن يقاتل الفرنسيين وحدهم.

قرّر الأمرَ بحصار عام لمدينة وهران لمنـــع أيٍّ تمـــوين عـــن الفرنسيين الأمر، الذي قد يؤدي بصاحبه إلى الإعدام. ثم قاد حملة دون هرج ضدّ سي لعريبي زعيم قبائل الشلف، الخصـــم الخطِير الذي كان يمثّل العشيرة الإقطـــاعية، في مواجهـــة العـــهد الديني الذي كان يمثله الأمير.

وحين صُدّ الأمير عزمَ على تعويض هذه الهزيمة الجزئية بالسعي إلى خطف قاضي مدينة أرزيو سي أحمد بن طاهر، الذي كان عبد القادر من تلاميذه، والمتّهم ببيع رؤوس ماشية إلى حامية وهران، والأخطر من ذلك أيضاً، بيع جياد ركوب للخيالة الفرنسية.

لقد حوكم القاضي وأُعدم؛ فانتشر الخبرُ مثل بقعة زيت، وسرعان ما شاعت ظاهرة الإقتداء بهذا المثل، خاصة أن الأمر كان يتعلق بالمعلم القديم للأمير، والمعلم يحظى دوماً بالتبجيل.

أثناء ذلك، جرى استبدال الجنرال بوييه Boyer الذي كان قائدا لوهران بالجنرال لوي ألكسي دو ميشال LOUIS ALEXIE DESMICHELE (1779 -1845). وكان هذا عكس سابقه، يريد الخروج من وهران وأخذ المبادرة. فدارت عدة معارك خلال عام 1833، وكان دو ميشال والأمير يتنازعان مدينة مُستغانم التي وقعت في أيدي الفرنسيين، وكذلك أرزيو. لكن عبد القادر قام بفَتْح كبير، عندما فتح تلمسان التي أُضيفت إلى أول نقطة إسْناد: معسكر.

لكنّ حدثاً ما سيُسَرِّع تطور الأمور. ذاك أن دو ميشال الذي كان يقوم بعملية غزو لقبيلة (الزمالة) الشهيرة (بالقرب من وهران)، استولى على عدد من النساء والأطفال. وعندما قام وفد من القبيلة بالمطالبة بهم، وافق دو ميشال بشرط أن تخيّم كل القبائل على بعد بضعة كيلومترات من وهران. وهكذا تخلّت قبيلة أخرى عن طاعة عبد القادر، وهي قبيلة (الدوائر) القوية، المعتادة على المتاجرة مع ميناء وهران، التي

استأنفت علاقاتها المقطوعة مع سوق وهران، إرضاء لـ دو ميشال.

كان عبد القادر الواعي بالخطر الذي كان يمثّله ارتداد قبيلتين، وخاصة تأثيرهما على القبائل الأخرى، واللّتين كان لا يريد أن يجابهما، أرسل إليهما شيخين مرابطَيْن، مُحتَرَمَيْن ومسموعَيْن، يدعوانهما للعودة إلى سلوك مشرفٍ ومطابقٍ لتقاليد المقاومة.

وفجأة انتصر عبد القادر وهو يرى البعض يعود إلى معسكره الأصلي، والبعض الآخر يقاطع كل تجارة مع وهران. وبالمقابل وجد دو ميشال نفسه في حالة من الغمّ الشديد.

ذات يوم، تقدّم شخص بدافع الربح من حامية أرزيو ومعه تموين. وحينما انطلق بعد إتمام الصفقة، طلب دورية ترافقه حتى نقطة معينة. وقد وقع الفرسان الخمسة الذين يرافقونه في كمين، واقتيدوا إلى معسكر.

كتب الجنرال دِو ميشال، المهتمّ بإطلاق سراح جنوده، إلى الأمير: «ما كنت أتردد عن السعي لديكم، فيما تمنعني وظيفتي الرسمية عنه، حيث تدفعني الإنسانية إليه..، فأرجو الإفراج عن الفرنسيين الذين وقعوا في شر مكيدة. وهم في الدفاع عن بعض العرب، لتخليصهم من انتقام أبناء جنسهم. ولا أظن أنكم تضعون في طريق ذلك بعض العقبات، لأنني كنت من قبل أخذت بعض الأسرى من عرب (الغَرابة والزْمَالة) في ميدان الحرب،ثم اطلقت سراحهم من غير شروط، بعد تقديم العلاج اللازم لهم.

وعليه فإني آمل منكم، إذا رغبتم أن تعدوا من كبار أهل الأرض، ألاّ تتأخروا عن إظهار كرم أخلاقكم، وسوف تطلقون سراح الفرنسيين الثلاثة والإيطالي الذين هم في عهدتكم».

وإذ أثار الجنرال الدافع الإنساني؛ كان جواب الأمير كما يلي: «بعد التحية، وصلني كتابك الذي أظهرت فيه رغبتك في الحصول على إطلاق الأسرى، الذين أوقعتهم الأقدار الربانية بين يدي. وقد فهمت جميع ما تضمنته رسائلك. وما اشتملت عليه من تكرار الطلب. ومن المعلوم عندكم أن جميع الأسرى الذين أوقعوا في أيدي عسكركم في ميادين الحرب، لم أتعرض لكم، ولا لمن كان قبلكم في إطلاقهم. ولا أتعبت أفكاركم بمراسلة قط، لأن حكمهم عندي حكم الأموات. وموتهم اعتبر حياة لهم.

غير أني كنت أتألم عليهم شفقة ورحمة. وقولكم «إن هؤلاء الأسرى الذين تطلبون إطلاق سراحهم، ما كان خروجهم لأمر يتعلق بكم، بل كانوا يحمون عربيا من انتقام أبناء وطنه»، فهذا لا أعتبره وسيلة لإطلاقهم. فإن المحافظ والمحافظ عليه، كلاهما أعداء لنا.وانتهاز الفرصة في الإنتقام منهم غاية مقصودي. وسائر العرب الذين عندكم، أوغاد وأراذل يجهلون واجباتهم الدينية.

هذا وإني رأيتك تفتخر، بأنك أطلقت الأسرى من (الغرابة والزمالة) من غير شروط، مع أنك لو راجعت أفكارك، لوجدت أن رحمتك إنما كانت لأناس استظلّوا بظلكم واحتموا

بحِمَاكم، يملئون أسواقكم ذخائر، ويكونون عيونا لكم علـــى المسلمين، ويخدمونكم بكمال الصدق، ومـــع ذلـــك فـــإن عسكركم قد سلبوهم كل ما يملكونـــه. فلـــو كـــان هـــذا المعروف، الذي تحججتم به مع غير هؤلاء، كآل هاشم وبني عامر مثلا، لكان يحق لكم الإفتخار وكنتم تستحقون الشكر. وعلى كل حال، فمتى خرجتم من وهران، على مسافة يوم أو يومين، يظهر للعيان من يستحق الفخر منا».

بعد هذا التحدّي الذي أعلنه عبد القادر، خرج دو ميشال من وهران، ومضى لمجابهة الأمير في (تيمزوار)، أرض قبائـــل الزْمَالة. فكانت المعركة من أشد المعارك، وكان كـــل فريـــق ينشدُ النصر لنفسه. لكن من الواضح تماماً، بما أن دو ميشـــال قد عاد إلى وهران، فقد استنتجت القبائل أن جيشه قد انهزم.

لكن مسألة الأسرى ظلّت مطروحة. ومما لا ريب فيـــه أن دو ميشال كان مقتنعاً بعد المعركة بأنه كان في وضع قـــوي، فتناول القلم وكتب رسالة جديدة: «حيث لا تجـــدني أيهـــا الأمير غافلا أبدا عن كل فعل حسن. فإذا كان سموكم، تريد أن نتخابر في أمر المعاهدة، فأنا مستعد لذلك. مع الأمل أنـــه يمكن الحصول على معاهدة موافقة، يتوقف بها سفك دمـــاء شعبين، اقتضت الإرادة الإلهية أن يعيشا تحت حكم واحـــد.» (06 ديسمبر 1833).

لم يرد الأمير في الواقع على رسالة الجنـــرال الأولى، حـــتى لا يجعل خصمه يشعر بأنه كان في حاجة إلى السلم، فترك الأمور تأخذ مجراهـــا، وهو يستعمـــل قنوات سرية للحصـــول من

دو ميشال على تسوية أكثر وضوحا وصراحة، فأضاف دو ميشال: «والحال لم يبق أمامكم ما تفعلونه أفضل من ذلك، إن أردتم الحفاظ على المكانة الرفيعة التي رفعتكم إليها الظروف، وهو أن تلبّوا دعوتي، حتى تتمكن القبائل في ظل المعاهدات التي سنبرمها معاً فيما بيننا، من التفرّغ لزراعة حقولها الخصبة والتمتع بكل مباهج السلام».

تأثّر عبد القادر كثيراً بمضمون هذه الرسالة، فراح يزيّن لجماعته أن السلام كان مطلوباً، وأن الفرنسيين كانوا مستعدين لأن يبقوا في نطاق أسوار مدينة معادية، بلا تموين ودون أمل بالحصول عليه، وأن الوقت قد حان ربما بعد استبعاد أولوية السلاح، لعدم التردّد في قطف الثّمار عن طريق الحوار والإقناع.

بعدما أقنع محيطه بصحة قراره، ردّ على الجنرال دو ميشال: «وصلني كتابك أيها الجنرال المحترم، وفهمت ما ذكرته فيه. وأعلم أن أفكارك مواطئة لأفكاري، موافقة لها. وبذلك تحققت استقامتك، فكن متأكدا بأن الشروط التي توافقنا العناية الإلهية لإجرائها بيننا، نتمسك بها بصدق عظيم ولا نتجاوزها.

وها أنا مرسل نحوك مُعْتَمدَيْن، وهما وزير الخارجية الميلود بن عرّاش، والآغا خليفة بن محمود، يتخايران معك في الشروط التي يمكن إجراؤها. وحينئذ تجري المعاهدة، وتذهب العداوة من بيننا، ونستبدلها بالصداقة التي لا تُخِل بمقامنا. وينبغي لك أن تثق بي لأنني والحمد لله لم تسبق لي خيانة عهدي، ولا نقِض لعقدي».

أعلم الجنرال الحكومة الفرنسية بتطور الأمور، وطلب منها الإذن بالتفاوض والتعاهد مع عبد القادر. وافقت باريس وبدأت المفاوضات التي دامت من 04 إلى 26 فيفري 1834، تاريخ توقيع **معاهدة دو ميشال.**

حُرِّرت هذه الوثيقة/المعاهدة في ست مواد على عمودين، أحدهما ينطوي على النصّ الفرنسي، وثانيهما على النصّ العربي:

«إن قائد الجيش الفرنسي المقيم في وهران الجنرال دو ميشال، وأمير المؤمنين الأمير عبد القادر بن محيي الدين، اعتمدا واتفقا على ما يأتي ذكره من الأمور:

- **شرط أول:** من اليوم وصاعدا، تتوقف الحرب والخصومات بين الفرنسيين والعرب. وكل من الجنرال دو ميشال والأمير عبد القادر، يجتهد إقامة المودة والعهد الواجب أن يكون بين شعبين، مقدر عليهم من الله أن يعيشا تحت حكم واحد. ولأجل هذا، يعين أمير المؤمنين الأمير ثلاثة قناصل من عنده في وهران ومستغانم وأرزيو. كما يعين الجنرال قناصل في معسكر، كي لا يقع نزاع بين الفرنسيين والعرب.

- **شرط ثاني:** إن دين وعادات العرب ستكون محل احترام وحماية.

- **شرط ثالث:** يلزم رد الأسرى حالا من الفريقين.

- **شرط رابع:** تكون التجارة حرة، ولا أحد يعارض أحدا.

- **شرط خامس:** إن العسكريين الفرنسيين الهاربين يجب أن

يردهم العرب إلى الفرنسيين. كما يلتزم الفرنسيون بتسليم كل من يفر إليهم من أهل الجرائم، الهاربين من القصاص، إلى قناصل الأمير في وهران أو أرزيو أو مستغانم .

- **شرط سادس:** كل أوروبي يريد السفر داخل البلاد يجب أن يكون معه تذكرة، مطبوعة بطابع قنصل الأمير وكذلك بطابع الجنرال حاكم البلاد. حتى يحترم ويحمى الحماية في كل البلاد».

حرِّر في هران، في نسختين في وهران،

في 15 شوال 1249 هـ. و26 فبراير 1834 م.

الجنرال القائد البارون دو ميشال.

غير أنه ينبغي التوضيح (أن معاهدة دو ميشال كانت عرضةً لنقاشات صاخبة في الجمعية الوطنية الفرنسية، ولاعتراضات شديدة من جانب قيادة الأركان، بعضها اتهم دو ميشال بالخفّة، وبعضها اتهمه بأنه يحمي شرفه ووطنيته) أن الحكومة الفرنسية، كانت قد أشارت إلى الشروط التي ينبغي بموجبها أن يجري التفاوض:

أولاً: اعتراف عبد القادر بسيادة فرنسا، وأن يقدّم الولاء للملك الفرنسيين بدفع جزية سنوية.

ثانياً: اعتراف فرنسا بعبد القادر باياً على عدد من القبائل، وذلك بتفويض من الملك.

نرى جيداً أن نصّ المعاهدة الموقّعة بين دو ميشال وعبد القادر لا ينطوي أبداً على سيادة فرنسا. ولا يمكن للأمر أن يكون بخلاف ذلك، ما دام انطلاق المقاومة واستمرارها أو

ديمومتها، كان طبعا بدافع تأكيد هذه السيادة. وفي المقام الثاني، إذا كان من الواضح صراحةً في النصّ أن فرنسا تحتفظ لنفسها بوهران ومستغانم وأرزيو، فإن البقية تقع تحت سلطة الأمير، وليس فقط منطقة وهران، بل كل القسم غير المحتل من ولاية الجزائر (كان دو ميشال موافقاً على هذا التفسير).

إن احترام دين العرب وعاداتهم وحرية التجارة وتبادل الأسرى كلها مكرّسة. وإن تبادل القناصل عند الضرورة، يؤكد وجود واحترام سيادتين متمايزتين. وبما أن المعاهدة يجب أن تخضع لموافقة الملك، وأن على الحكومة أن تجيز للجنرال دو ميشال الإعتراف خطياً للأمير بأن الملك قد صدّق على المعاهدة، فإن من حق عبد القادر أن يفكّر بأنه كان يتعامل مع ملك فرنسا معاملة الندّ للندّ.

بعد هذا الإبرام، جرى تعيين القائد عبد اللّه داسبون D'Asbonne (مملوك سابق في الجيش المصري، لإرضاء عبد القادر بلا شك، ولأنه كان يتكلم العربية) قنصلاً في معسكر لدى عبد القادر. وعيّن هذا الأخير اليهودي بن دوران في الجزائر المدينة (سنفهم لاحقاً لماذا عيّنه)، وعيّن بن يكو قنصلاً في وهران، وخاصة ولد محمود في أرزيو، أحد مفاوضي المعاهدة، والآخر بسبب أهمية احتكار الميناء للتصدير، وأهمية الموارد التي كان يمكنه توفيرها لشراء الأسلحة والذخائر.

وفي هذا الصدد نستعيد الذكرى التي نقلها الأمير عبد القادر عن تنظيم ميناء الإسكندرية من قبل ملك مصر محمد علي، الذي سيبقى من عدّة جوانب، موضع إعجاب الأمير ومصدر إلهامه.

عبد القادر يعزّز سلطته

بما أن طبيعة العلاقات بين الأمير والسلطات الفرنسية قد جرى توضيحها، على الأقلّ في الوقت الحاضر، بفضل بنود المعاهدة، قام عبد القادر بتكريس كل طاقته لتنظيم المنطقة التي كانت تحت سيطرته. لكن بوادر مقاومةٍ لسلطته كانت قد ظهرت. ذلك أن إحدى القبائل وهي ليست أقلها، ما دام الأمر يتعلّق ببني عامر الذين كانوا وراء صعوده، رفضت دفع الضريبة متذرّعة بتوقف القتال مع فرنسا.

بما أن الأمير يخشى قبل كل شيء ظاهرة العدوى، فقد قرّر أن يعاقبهم على الفور، فأرسل إليهم مصطفى بن إسماعيل، الرئيس السابق للمَخْزَن التركي، المنضمّ إليه. وشاءت المصادفة السعيدة أن يكون بعض أعيان بني عامر حاضرين في صلاة الجمعة في جامع معسكر. فانتهز الفرصة ليلقي كلمة:

«اعلموا أن الغاية الوحيدة لقبولي لتقلد هذا المنصب، أن تكونوا آمنين على أنفسكم وأعراضكم وأموالكم، مطمئنين في بلادكم، متمتعين بوظائفكم الدينية. ولا يمكن أن أبلغ مرادي من ذلك إلا بمساعدتكم مالا ورجالا. وبهذا تعلمون أن المنافع الحاصلة منكم عائدة عليكم. ولا أظن أن يخطر في بال أحدكم، أن الأموال التي تُؤْخَذ منكم، ابتَغيها لنفقاتي الشخصية. لعلمكم وتحقُقِكم، أنني غني مليء بما خلّفَه لي والدي. وبالجملة، فنحن لا نطلب منكم إلا ما تُجْبِركم الشريعة على دفعه، وتجبرنا على أخذه.

إنّي أقسم أمام الله في هذا المكان المقدّس أنني لن أستخدمها إلا في سبيل مصلحة هذا البلد ونصرة الله».

وأمام الحماس الذي أثاره هذا الكلام، اعترف زعماء بني عامر بأخطائهم، واعتذروا عن ضلالات عابرة ووعدوا بدفع الضريبة. فأرسل الأمير رسولاً ينقل إلى مصطفى التوقف عن تنفيذ أوامره. لكن الأوان كان قد تأخر كثيراً. فمصطفى الذي كان يُكِنُّ حقداً تركياً تجاه بني عامر ويريد أن يثأر منهم، كان قد شرع في تنفيذ المهمة. وانتاب عبد القادر حزن شديد من جراء ذلك، إذ كان يفاخر باعتزاز بأنه كان قد جعل من هذه القبيلة المُريعة رأس حربته.

رفض مصطفى بن اسماعيل الطاعة. ولما علم عبد القادر بالأمر، وهو يظنّ أنه مجرد سوء تفاهم، امتطى جواده وقصد المكان متبوعاً بكوكبة من الفرسان. واندلعت المعركة. وهكذا، على الرغم من قلة العدد، فقد خاض المعركة إلى جانب قبيلة بني عامر، مُبَرهِناً لهم بعدد من الأعمال الباسلة، أنه كان واحداً منهم.

جُرح جواده، وسارت عدة قبائل أخرى تحت راية مصطفى بن اسماعيل الذي التجأ إلى تلمسان. وكان حفيده المزاري، الذي تولّى بدوره قيادة قبيلة الدوائر، قد تدخّل لدى الغُمَاري، الزعيم الشهير لقبيلة الأنجاد، لكي يعلن خضوعه لعبد القادر بالذهاب إلى معسكر. وهذا ما حدث.

ولكن فجأة تحت تأثير مصطفى بن اسماعيل، تراجع وسعى للإنضمام إلى تلمسان. فطارده خيّالة عبد القادر وأسروه ونقلوه إلى معسكر، حيث اعتُبر خائناً بسبب الوثائق المكتشفة لديه، والتي تشهد على تواطوه مع مصطفى، وذلك من قبل محكمة حكمت عليه بالموت ونفّذت فيه حكمها.

تقوى الأمير بهذا النصر، فسار إلى مصطفى بن اسماعيل الذي جابهه يوم 12 جويليه 1834 في موقعة مَحْـرَز. جرح مصطفى وأعلن طاعته لعبد القادر. واعترافا بسلطته، قدّم له الجوادَ الذي كان يمتطيه في المعركة.

بعد هذه الحوادث، التي تعرّضت فيها عزيمة الأمير لمحنة قاسية، وباستثناء المدن الثلاث المحتلة وقلعة (المَشْوَر) في تلمسان، صار عبد القادر سيّد كل ولاية وهران الكبرى، الممتدة من الحدود المغربية حتى (الشلف).

لما سئم عبد القادر من اضطراره إلى الإعتماد على القبائل، التي كان قد يتعرض عزمها في أي وقت للتراخي، بل وتتعرض إلى الخصومة، قام بإنشاء فرقة مشاة نظامية قد تمكنه ليس فقط من محاربة منافسيه، بل أيضاً بمتابعة توسيع منطقة نفوذه.

فبموجب المادة الرابعة، حصل من الجنرال دو ميشال، عن طريق القنصل داسبون على ما يلزم لهذه الفرقة من عتاد. فوضعت في تصرفها مدافع وذخائر. لكن هذا التجهيز كان يتطلب وقتاً لكي يُوضع موضع الإستعمال، ولم يستطع استخدامه إلا في وقت لاحق. فسارع عبد القادر إلى إرساء التنظيم السياسي – الإداري لمنطقة نفوذه، وتعزيز عتاد جيشه النظامي، وهو جهاز ينفّذ أوامره ويرفع إليه تقارير عن حالة رعيته، ويسهر على سير العدالة وجباية الضرائب.

وهو إن كان سيكرّس نفسه شخصياً لبناء جيشه، فإنه بالنسبة إلى الحكومة قد فوّض سلطاته – وإن كان سيبقى مصدرها الوحيد – إلى زعماء عرب كبار (خلفاء)، كان

يخضع لأوامرهم وسطاء (آغوات)، تنعكس من خلالهم أوامر الخلفاء على الرؤساء المباشرين للقبائل، الذين يسمّون (قادة). وسيغدو الزعماء السياسيون قادةً عسكريين في حال نشوب الحروب، وعندها سيتوجب عليهم جمع مجموعاتهم المقاتلة وقيادتها إلى المعركة.

وهكذا كانت ولاية (مقاطعة/ بايلك/ إيالة) وهران مقسّمة إلى قيادتين كبيرتين: قيادة الشرق التي ولاّها الأمير إلى مصطفى بن التهامي، صهره وصديقه، وقيادة الغرب التي كُلِّف بها البوحَميدي، وهو رجل ثقة لدى عبد القادر.

صارت ولاية وهران منطقة هدوء وأمان، بحيث غابت عنها كل فوضى: فكان اللصوص وقطاع الطرق يفرّون أمام العقاب الشديد، لدرجة أن الرواة ومُسلّي الجمهور في الأسواق كانوا يردّدون بلغة زاهرة وخيالية، حتى الإشباع: «لو سارت البنت البكر في صحاريها وقفارها، حاملة نفائس الجواهر على رأسها، لا تجد من يسألها، فضلاً عمن يتعرض لها بسوء».

وسرعان ما انتشر الخبر في كل أرجاء الجزائر. وبما أنها كانت في وضع من الفوضى مماثل للحالة التي وجدها عبد القادر في وهران، فقد عقدت آمال كبيرة على الأمير. وضمن وفود أخرى، جاء وفد من منطقة التيطري (المدية) وهو ليس أقلها أهمية، نظراً لموقعها الإستراتيجي بين مدينة الجزائر ووهران، وكذا لازدهارها.

جاء هذا الوفد مناشداً الأمير بأن يجعل من منطقتهم ما جعله من منطقة وهران. أُعجب عبد القادر بهذا معتبرا ذلك

دليل ثقة، فاكتفى بردّ مفعم بالأمل؛ لكنه أخذ لنفسه الوقت الكافي لتقدير الفرص الحقيقية للنجاح، قبل أن يتعهّـد لهـم بشـيء.

فقد كان يهمه قبل كل شيء موقـف فرنسا، حيث تم تعيين حاكم عام للجزائر، يُدعـى الجنـرال درويـه درلـون Drouet D'Erlon Jean Batiste (1765-1844) وكانت مهمته تنسيق كل شيء، على المستوى العسكري، وكذا على المستوى السياسي بين قادة الجزائر ووهران.

اغتنم الأمير مناسبة هذا التعيين، لكي يوجّه له رسالة تهنئة نقلها ميلود بن عرّاش، المفاوض الماهر في معاهدة دو ميشال، ليستقصـي رأي الجنرال حول مواقفـه بخصوص التيطري (منطقة المدية).

جاء في الرسالة: « بعد التحية، إن معتمدي ابـن عـرّاش وجهته إلى حضرتكم، ليبلغكم التهنئة والتبريك مـن قبلـي بالولاية على الجزائر، ولقيامي بالمحافظة على أمور المعاهـدة، أوعزت إليه أن يفاوضكـم في أمور تَعيَّن علَـيَّ إجراؤهـا، لتوطيد الراحة في جميع المقاطعـات الداخليـة: في السـهول والجبال والسواحل، التي على سـاحل الجزائـر وجوارهـا، ووهران والمدية. وخشيت أن يكون ذلك سببا مُكدِرا لما بيننا من المصافـاة ».

كان أول ردّ للجنرال غامضاً ولا يشكّل إذْناً للأمير بالمضيّ إلى منطقة التيطري (المدية)، ولا مَنْعا له. أثناء ذلك نشأ فجأة نزاع حول معاهدة دوميشال بشأن وثيقـة ثانيـة، كـان دوميشال قد ختمها بخاتمه، فظنّ الأمير أن من المفيد إرسال

نسخة منها بواسطة قنصله اليهودي بن دوران، إلى الجنرال درويه درلون الذي ذُهِل وهو يجهل الواقعة، فشكّ حتى في المعاهدة السرِّية. على كل حال، كان الحاكم العام قد طلب رحيل دو ميشــال، فكان له ما أراد، واستبدله بالجنرال تريزال Trézel.

من جهة أخرى، بما أن عبد القادر كان قد طلــب مــن الجنرال أجزاء من إدارة الجزائر حتى يستخدمها، كما كــان يقول صراحة لصكِّ النقود، بوصفه أميراً مستقلاً، فإن درويه درلون لم يبدِ اهتماماً بالأمير. ولكن بما أن الأمير كرَّر طلبــه بخصوص منطقة التيطري في أواخر ديسمبر، فإن الجنرال أعلمه بعدم موافقته على أي مشروع في المدية أو قسنطينة، وأضاف: « قد فهمت ما تضمنه تحرير سموكم. والذي أنظره أن هــذا العزم خال من الصواب. وليكن في علمكم: أن الجنــرال دو ميشال لم تكن له سلطة ولا حكم إلا على أيالة (مقاطعــة) وهران. ولذلك لم يتعرض لما يتعلق بباقي الولايات.

ومهما توسعت دائرة التأويل فيما جرى، في معاهدة الثامن والعشرين من شباط، فلا يكون لكم طلب إلا علــى أيالــة وهران. وبناء على ذلك، فلا نسمح لكم أن تــدخلوا إيالــة التيطري (المدية). ولا أن تتجاوزوا وادي الشلف شرقا، ونهر أرهيو حتى كوجيدة.

وبالجملة: لكم أن تحكموا في البلاد التي هـــي لكـــم الآن، بحسب شريعة الإسلام. وبذلك نكون أصحابا. ولا أقــدر أن أرخص لعساكركم أن تدخل ولاية التيطري، لأن كـــل مـــا

يجري هناك يختص بي. وإني مستمر مع ساكني الأقاليم علـــى السلم، ومعتمدا على تعـــيين مراكـــز فرنســـية في البليـــدة وبوفاريك؛ متى رأيت ذلك مناسبا لصالح فرنسا».

تمهّل عبد القادر. لكن فجأة، قام الشريف (أحد الأشراف) يُدعى الحاج موسى بن حسن بالدخول إلى المدية بناء علـــى طلب أهاليها، الذين خاب ظنهم بعدما انتظروا الأمير طويلاً. ولما رأى الأمير أن الحاكم نفسه لم يردّ على الحادث، ســـار فوراً إلى التيطـــري، وســـارت وراءه جحافلـــه الوهرانيـــة، وخصوصاً كتيبتاه النظاميتان المزوّدتان بمدافع. مُني الشريف في الصدمة الأولى بهزيمة كاملة، ولاذ بالفرار مخلّفاً نساء وأطفالاً، ولم يتوانَ عبد القادر بكرم منه، عن إعادتهم إليه بعد ذلـــك بعدة أيـــام.

أقام عبد القادر في المدية، وهو يحظى بتأييد سكانها الـــذين تمت مكافأتهم أخيرا بعد طول انتظار، وعيّن فيهـــا (خليفـــة) واحداً من أعظم ضباطه ورجالاته، محمد البركاني.

وما كاد الأميـــر يبدأ بتذوّق طعم هذا النصر الجـــديد بعد مـــحنٍ قاسية، حتى أخبر بوصول النقيب ســـان هيّبوليـــت Saint -Hypolyte، مصحوباً بالقنصل بن دوران Ben Duran، ومرسلاً من طرف الجنرال درويه درلون–. جرى اســـتقبال النقيب على الفور، فقدّم له تحيات الحاكم، واقترح عليه باسم درلون، معاهدة جديدة تحلّ محل معاهدة دو ميشال.

وبما أنه كان على عبد القادر الرجوع إلى معسكر، حيـــث ينبغي لمشروع كهذا أن يكون موضع تشاور مع جماعته، فقد دعا النقيب هيبّوليت لمرافقته إلى عاصمته. وكان قصد الأمير

أن يمرّ بالقبائل التي كانت متخاصمة بالأمس، وأن يقدّم لـــه مشهد مسيرة مظفرة، حيث كان الجمهور من جانبي الطريق يُحيّي السلطان، وأن يقدّم في الوقت نفسه، للقبائل صـــورة زعيم شاب بالغ القوة، لدرجة أن فرنسا نفسها كانت تنشد صداقته.

بعد يومين من وصول الأمير إلى معســكر، ســلّم ورقـــة للنقيب، موجّهة إلى الجنرال درويه درلون، رداً على الرســالة التي كان قد أرسلها له، وفيها يشير إلى شروط عقد معاهـــدة جديـــــدة.

المجابهة المحتومة

فيما كان الجوّ مناسبا للتفاوض، وكان ينبغي أن يرفع الغموض عن معاهدة دو ميشال بوثيقة جديدة، طرأ عنصر مهم في محافظة وهران. إذ كان الجنرال تريزال قد باشر مفاوضات مع قبيلتي الدوائر والزمالة الكبيرتين، بغية التوصل إلى اتفاقية تنصّ على وضعهما تحت الحماية الفرنسية، وبالتالي فصلهما عن سلطة الأمير.

لكن هذه الإتفاقية المعروفة باسم (إتفاقية شجرة الستين) كانت تنطوي على بنود تتناقض جوهرياً مع معاهدة دو ميشال: اعتراف القبائل بالسلطة الفرنسية، خضوع القبائل للقادة الذين يعيّنهم الجنرال فقط، التجارة الحرة؛ لكن كل تجارة أسلحة وذخيرة حربية، ستجري من الآن فصاعداً من خلال السلطات الفرنسية.

قام تريزال على رأس قواته بالإستقرار في جوار مَسَرْغِين (قريبا من وهران)، حيث كان يستطيع أن يجعل القبيلتين تحت غطاء قواته مباشرة. وبينما كان تريزال يكتب للحاكم العام: « لن تكون لدي الشجاعة لقبول أمر بالإنسحاب، وإذا كانت الأوامر القاطعة للحكومة يمكنها إجبار واحد من أقدم وأعظم قادتنا على قبول ذلك، فإنني أناشدكم أن تنقلوا إلي ذلك الأمر عن طريق من سيخلفني.»

كان الأمير قد كتب من جانبه إلى جنرال وهران:

« إنك أيها الحاكم، تعلم الشروط التي ربط بها دو ميشال نفسه، بإذن دولته. وعند وصولك إلى الجزائر وعدتني بالمحافظة

عليها. وإنك تعلم جيدا أن الحكومة الفرنسية مُلْزَمة بأن تردَّ إليَّ كل مُذْنب التجأ إليها، ولو كان رجلا واحدا، فكيف بالعشيرة والقبيلة؟

وعلى هذا، فإن قبائل الدوائر والزمالة من جملة رعيتي، التي أحكم فيها بموجب شريعتي. والآن أبلغك البلاغ الأخير: إنك إن رفعت الحماية عنهم، فنحن على ما كنا عليه من المعاهدة، التي وقع عليها الإتفاق قديما. وإلا فإني لا أستطيع مخالفة شريعتي في التخلي عنهم. حتى إنهم لو اعتمدوا رأيكم، لضعف آرائهم وقلة دينهم، ودخلوا مدينة وهران، فلا أرفع عنهم يدي. ولا بد أن ألحقهم، وأطالبهم بالرجوع عن خطئهم الفاحش.

فإن كنت ولابد معتمدا على إنفاذ ما صورته أفكارك، من إدخالهم تحت حوزتك، فاطلب وكيلكم من عندي، واختر لنفسك ما يحلو، وميادين المعامع تقضي بيننا، ومسؤولية إهراق الدماء وإتلاف الأموال راجعة إليك وعليك، والله يخلق ما يشاء، ويفعل ما يريد ».

منذ ذلك الحين، صارت المجابهة محتومة. فحصلت في الموقع المسمى (المَقْطَع) بالقرب من وهران في 28 جوان 1835 ودامت أربعة أيام. وكانت المعارك عنيفة من الجانبين. مُني الفرنسيون بمئتي وثمانين قتيلاً وخمسمئة جريح وسبعة عشر أسيراً، دون حساب خمسة مدافع متروكة، وعدّة صناديق ذخيرة وعربات.

ولئن كان الأمير قد تكبّد خسائر كبيرة، فإن انتصاره أمام ما بقي من جيش غارق في الوحل، يتجَرْجَر وهو منهَك حتى

أرزيو، كان له صدى كبير خاصة في فرنسا. جرى استبدال الجنرال تريزال بالجنرال دارلنج d'Arlanges، كما استُبْدِل دارلون بالماريشال برترون دو كلوزال Bertrand de Clauzel (1772- 1842)، ذاك الذي كان يقود قوات الإنزال في سيدي فرج سنة 1830.

* * *

لم يترل الماريشال كلوزال، الحاكم العام الجديد، وحده في ميناء الجزائر. فقد كان مصحوباً بوريث عرش فرنسا، الدوق دومال Duc d'Aumale. أراد الحاكم الفرنسي بعد هزيمة تريزال النكراء في معركة المقطع، أن يردّ عليها بعمل مفاجىء يكون في الوقت نفسه استعراضاً سياسياً بالإستيلاء على مدينة معسكر، عاصمة عبد القادر.

لكنّ عبد القادر، الذي كان يتابع مجرى المناقشات في الجمعية الوطنية الفرنسية، بفضل التحليلات التي كان يتلقاها من تقارير الصحافة الباريسية، كان على علم بالقرارات، بما فيها تلك المتعلقة بإرسال تعزيزات إلى الجزائر، وأدرك أنها كانت في جزء كبير منها بسبب ضغط الرأي العام. فقرّر تنظيم المقاومة في معسكر ذاتها، بدلاً من مجابهة خصم قوي في بادية جرداء.

أمر بإغلاق منافذ المدينة، وعزّز الأسوار والملاجىء حول البساتين والسطوح، ووضع فوق المتاريس ما كان لديه من قطع مدفعية. أما هو فكان يصول ويجول على رأس فرسانه حول الرّتل الفرنسي لاحتوائه أو ترهيبه؛ وكان بذلك يسعى

إلى تأخير مسيرة الطابور المعادي. لكنه بانتظار وصول جيش كلوزال، أمر بمناوشة رجال الدوائر والزمالة الـذين كـانوا يلوذون بأسوار وهران، وكلّف خليفة مليانة بأن يرسل فرسانه الشجعان من قبيلة (الحجّـوط) إلى متيجة لكي يقطعوا كـل إمداد عن مدينة الجزائر، كما كان الحال بالنسبة إلى وهران.

بدأ الجيش الفرنسي زحفه في 1835/11/27، فتقدّم بحـذر متوقعاً المفاجآت في كل لحظة. ومضت أربعة أيام دون طلقة نار واحدة، ومن حين إلى آخر كان يظهر على التلال بعـض الفرسان المنتشرين وهم يراقبون حركة الجحافل. لكن بقدر ما كانوا يتقدمون والصمت يتكاثف، كان قلق خانق يصـعد في الصدور: ماذا ينتظر العرب لكي يظهرون؟ حتى أن الماريشال كلوزال، وهو ضابط مجرّب وخبير جداً، كان قـد تخيّـل أن الأمير قد لا يتردّد لو استطاع، في خطف الـدوق دومـال لاتخاذه رهينة ملكية رائعة تفيده في عملية تبادل للأسرى.

وبينما كان الماريشال قلقاً من هذا الصمت الممتد، أكثر مما كان خائفاً من وقوع المعركة المحتملة، انكشف له السرّ بفضل اعترافات يهودي هارب.

فعندما علمت القبائل الموالية للسلطان بالأمس، بأن الجيش الفرنسي بات على مسافة عدة ساعات من معسكر، انقضّت مع أفراد القبائل المجاورة التي لم تواكبها، على المدينة مثل طيور كاسرة، وراحت تنهبُ متذرّعة بذريعة زائفة، عنوانها عـدم ترك أي شيء للمسيحيين، مما كان فيها من ثروات و تموينات كان الأمير قد جمعها. كما أن فصائل عبد القادر التي كانت

تستعد للمعركة انقضّت بدورها على الغنيمة، فوجد الأمير نفسه وحيداً مع كتيبتي مشاته وحوالي مئتين من الفرسان.

سارع عبد القادر إلى معسكر، يتبعه هذا النفر القليل من المقاتلين، لكي يذكّر الناس بواجبهم، لكنه لم يرَ سوى وجوه كئيبة وحزينة: المخازن منهوبة والبيوت محرّقة والرجال الذين سكنهم شيطان الغنيمة، ينظرون بعيون جاحظة تحول دون إمكان التعرّف إليهم. كان يريد أن يكلّمهم، لكنهم ما عادوا يسمعون صوته. لقد أصابتهم السكتة المباغتة. حتى أن بعضهم خرجوا عن صمتهم وصاحوا بوجهه وهم يتهمونه بأنه هو سبب الكارثة. فغادر معسكر، وهو يتمزق قرفاً، متسائلاً: «كيف يمكن لمدينة أن تضيع دون قتال، كيف يمكن لعاصمة أن تستسلم للعدو وسط النهب والدمار والعار؟».

ووسط هذه الفوضى التي يستحيل وصفها، حيث لم يعد في الإمكان إنقاذ أي شيء، فكّر بعائلته التي كانت قد وضعت في مكان آمن قبل تصادم الجيوش. لكنها كانت قد نُقلت ثانية. فتمكّن من الإلتحاق بها. فهرعت إليه والدته التي كان يجلّها، وزوجته التي كان يحبها، ليستمعا إلى ما يقوله لهما من كلمات مواساة. ظلّ منتصباً على متن جواده، وعينه تلمع في وجه شاحب، فنظر إلى الأفق وقال: «سيشفقون عليكن لأنكنّ نساء؛ أما أنا فلن يشفقوا عليّ البتة، لأنني رجل».

ومما لا شك فيه أنه كان قد تذكّر فجأة وهو يتأمل هذه التلال، حيث جرى في الماضي تزداد اسمه والتصفيق له، العبارة الشهيرة التي نقلها شاتوبريان Chateaubriand عن الملكة –

الأم السابقة وهي تقول لابنها أبي عبد الله [1] الذي كان قد خسر غرناطة «إبكِ كالنساء على عرش لم تدافع عنه كالرجال».

وأثناء ذلك كان الجيش الفرنسي يتوغّل في المدينة، ليلاحظ غياب المقاتلين والعبور الإستعراضي للنهابين. في اليوم التالي، أعلن الماريشال عودة الجيش إلى مستغانم. لماذا كان هذا القرار السريع جداً من قائد عسكري وسياسي في آن، مع أنه شديد العواقب؟

إن الدافع المذكور وغير المقنع في النهاية، هو أن الماريشال كان مهتماً جداً بإعادة الدوق دومال إلى فرنسا، بعدما أُصيب بمرض شديد؛ فأمر الحاكمُ بحرق المدينة ومستودعات الذخائر الضخمة التي لم يكن لديه الوقت الكافي لأخذها. وها هي معسكر فريسة النيران التي أضرمتها أولاً أيديُ مناصري عبد القادر، المهوسين بعدم ترك الغنيمة للعدو، وثانياً أيديُ ذلك الذي قصد حرمانَ السلطان منها، وجعله عاجزاً.

منذ أن ابتعد الطابورُ عن معسكر، مخلّفاً وراءه جبالاً من الدخان تصعد إلى السماء، عاد عبد القادر إلى أبواب المدينة وحيداً على جواده، شاهداً أخرس على لحظاتِ مجد وتحوّلات، وأعلن لبعض أنصاره الذين اقتربوا منه، عزمَه على الإنسحاب مع عائلته إلى المغرب، قائلا: «إن مرادي أن تريحوني من الحمل، الذي وضعتموه على عاتقي. وقدرتني الصوالح الدينية وحدها أن أقوم به، على هذه الساعة. فلينتخب القوم خلفا عني، وإني ذاهب مع عائلتي إلى

مراكش». فلم يعد هناك مخرج آخر بالنسبة إليه، ما دامت عاصمته لم تسقط بسبب انعدام السلاح،بل بسبب خيانة الرجال وجشعهم.

عندها شاع الخبرُ مثل النار في الهشيم. وأحسّت القبائل أنها مخذولة بحجة العار والتوبة؛ فارتمت عند قدميه وهي تناشده أن يبقى على رأسها. وكان المشهد مؤثراً جداً وبالغ العفوية لدرجة أن الأمير تناسى أخطاء القبائل، فراح البعض يمنع جوادَه من التقدّم، وراح البعض الآخر يقبِّل بُرْنسَه، ويتعلق آخرون بأذياله وهم يهمهمون. لا يقدر على استيعاب مثل هذه المواقف الصعبة والتحولات الجذرية، والتأقلم معها سوى الرجال العظماء.

وعلى الفور جمع مجلس الأعيان، واستدعى رجلا يدعى الهواري، الذي كان حسب رأي الجميع، يتعاون علناً مع العدو، فأعدمه على الفور. وحلّ العزمُ محل الشك وحتى محل اليأس. لا، لن يكون سقوط معسكر مثل سقوط غرناطة. ولا حتى مثل واترلو. كان الأمير يعرف التاريخ. وكان يعلم أن التاريخ يسجل تعاقب الهزائم والإنتصارات، وأن القضاء وحده الذي يقدر الهزائم والإنتصارات.

لم ينته عبد القادر من كل متاعبه. فإذا كانت القبائلُ التائبة قد التفّت حوله من جديد وأقسمت له يمين الولاء، فإن أحد زعمائها المشهورين جداً كان قد خذله. فالمزاري حفيد مصطفى بن اسماعيل، الذي كان قد أبقى جزءاً مهماً من قبيلة الدوائر تحت سلطة الأمير، أعلن ولاءه للماريشال كلوزال،

وجعل هذا الأخير يُقدم حتى بلا إذن وزير الحربية، على إطلاق عمّه المحاصر مع رجاله في قلعة المشور بتلمسان. وفي الوقت نفسه جرى إبلاغ الأمير بزحف قبيلة الأتحاد على تلمسان، وكان على رأس الزحف عبد الله، إبن الغُمَاري (الذي كان قد تواطأ مع مصطفى بن اسماعيل)، وكان عبد القادر قد حاكمه وأعدمه، فأراد ابنه أن يثأر له.

هاهو إذاً، ما كاد يخرج من دوامة معسكر، حتى وجد نفسه في مواجهة جبهتين: فبعدما وازن بنضج بين الأمور، ما لها وما عليها، وحسب المسافات التي كانت تفصلهم عن تلمسان، وبطء زحفهم أو سرعته، قرّر أن يهاجم قبيلة الغُمَاري أولاً التي هزمها بسرعة.

وكانت المشكلة الأكثر تعقيدا هي قلعة المشور في تلمسان، التي كان يسيطر عليها مصطفى بن اسماعيل؛ فإذا فُتحت أمام الفرنسيين قد تغدو المقاومةُ مستحيلةً أمام هذه الأسوار والمتاريس المُريعة، وقد تنجم عن ذلك مجزرة في صفوف الأهالي. عندها أجلى عبد القادر المدينة ووضع السكان تحت حمايته. كان رجال المشور يشنّون غاراتٍ على السكان الذين أُنذروا مؤخراً، فراحوا يجمعون على عجل ما كان يمكنهم إنقاذه.

دخل الجيش إلى تلمسان يوم 13 جانفي 1836، وأمام الفراغ الملحوظ في المدينة وانعدام المقاومة، كلّف كلوزال لواءين عسكريين بمهاجمة الأمير في المكان المسمّى عوشبة حيث كان قد استقرّ. لكن لم تقع معارك، وذلك لسبب

بسيط هو أن بعض رجال فرقة مشاة عبد القادر، كانوا قد نسوا التبخير بالقرب من ضريح الولي الواقع على مقربة من معسكرهم، فهذا النقص في الإحترام، اعتبر بمثابة عمل تحقيري، وانتشر في صفوف المحاربين وأثار لديهم حركة هلع وذعر وفرار، لأنهم تصوروا أن العقابَ سينقضُّ على رؤوسهم؛ الأمر الذي جعل المعركة مستحيلةً في مثل هذه الظروف غير المناسبة.

ومثلما كان في معسكر، وجد الجيش الفرنسي نفسه في تلمسان كأنه تقريباً في دياره. لكن خلافاً لمعسكر، أراد كلوزال أن يحتل المشور، وهي ساحة محصّنة لا أمل في احتلالها بسهولة، ليقيم فيها حاميةً قبل مغادرة تلمسان. لكن كيف يمكن تسديد نفقات احتلال لم يكن متوقّعاً ولا مسموحاً به؟

قرّر أن يفرضَ على السكان المحليين مساهمة خاصة، ومن ضمنهم (الكولوغلي) (2) الذين كانوا قد عقدوا صفقة مشتركة مع السلطات الفرنسية، وخصوصاً الحفاظ على قلعة المشور خارج متناول عبد القادر، وذلك بناء على رغبة مصطفى بن اسماعيل. ومن جهة ثانية، سعى هذا الأخير إلى إعفاء رجاله؛ لكنه باء بالفشل.

وهكذا جرى جمع المساهمة بالقوة عند اللزوم. وتم تحصيلها في آخر المطاف، بحيث أن اللجنة المكلفة بتلك الجبايات برئاسة بن مكالش، وعضوية خبير يهودي هو أيضاً من السكان المحليين، وبدلا من أن تنتزع الذهب من الرجال الذين لا يملكونه، انقضّت على مجوهرات نسائهم. وقد أثارت هذه

العملية غضباً بلا حدود لدى السكان. ويا للمفارقة، إذ وجد الأصدقاء والأعداء أنفسهم يخضعون للمعاملة نفسها بلا تمييز.

استغلّ عبد القادر هذا الحدث بمهارة، مشدِّداً بنحو خاص على أن هذه هي العقوبة التي يُنزلها الفرنسيون بأصدقائهم (الكولوغلي)، فكيف سيكون حال خصومهم؟ صحيح أن الإجراء أثار كثيراً من الضجيج، خاصة في فرنسا، إذ كان كلوزال مضطراً لاحقاً لشرح الأمر أمام مجلس النواب، الذي أدان الأعمال المرتكبة في تلمسان باسم فرنسا، وأقرّ سلفة(3) مخصّصة لتعويض ضحايا الجبايات. واندفعت من كل حدب وصوب كتائبُ القبائل، المتأثرة بالحجج التي شرحها مبعوثو الأمير، والتي وجدت نفسها أمام الإحتقار العلني لأهالي تلمسان، الذين أُهينت كرامتهم واعتُدي على ممتلكاتهم.

حين صار لدى الأمير إثنا عشر ألف رجل، واجه كلوزال الذي كان ينوي شقّ ممرّ حتى البحر، فدفع بفرق الإستطلاع حتى وادي التافنا. دارت معركتان بلا نتائج مُعلنة من الجانبين. لكن في هذه المناسبة أُصيب عبد القادر للمرة الأولى بجرحٍ في كتفه. وأمر الماريشال جيشه بالإنسحاب إلى تلمسان.

هناك نظّم كتيبة ستتولى حراسة قلعة المشور بإشراف النقيب كافينياك Cavignac، ثم عاد إلى مدينة الجزائر عن طريق وهران؛ ولكنه لم ينسَ أن يصرّح لجيشه أن «عبد القادر قد هُزم وأن الحرب قد انتهت»، تاركاً قيادة ولاية وهران للجنرال بيريغو Perregaux، وقيادة الموقع العسكري للجنرال دارلانج.

عندما يصرّح جنرال، وهو أكثر من ذلك الحاكم العـام، لجيشه بأن «الحرب قد انتهت»، فإن ذاكـرة أي جنـدي لا تستطيـع نسيـان ذلك. ومع ذلك لم تكن تلـك الحـرب قـد انتهت.

قبل أن يغادر إلى مدينة الجزائر، أمرَ الماريشـال، المنشـغل بمصير قلعة المشور، الجنرال دارلانج بإقامة اتصال مباشر بـين تلمسان والبحر عن طريق وادي التافنا، ذلك المشروع الـذي لم يستطع تنفيذه بنفسه.

لكنّ عبد القادر كان يراقب العمليات، وكان يريد منـع تموين المشور بأي ثمن. فجمع قوات كبيرة ومضى إلى ملاقاة الرتل. وعلى الرغم من هزيمةٍ أولى مُني بها في المكان المسـمى بـ الغوزر، واصل احتواء الرتل من كل الجهـات، لحظـة وصوله بالذات إلى ضواحي وادي التّافنا. حـاول الجنـرال الخروج من الطوق، لكنه وجد نفسه محاصراً بالمعنى الحـرفي للكلمة. وكانت المعركة شرسة جدا. بلغت حـدّ الـتلاحم، وفقد فيها الجنرال ثلاثمئة رجل.

ولما تشجّعت قبائل عبد القادر من جـراء هـذا النصـر، ضاعفت طاقتها ولم تترك للخصم أي ملاذ (إذ كانت حالـة البحر لا تسمح بوصول أي تمـوين). وراح رجـال الرتـل يعيشون بفضل حفنات من الأرز التي نفدت بسرعة، قبل أن ينقضّوا على أكل لحوم الجياد الميتة من الجوع. دام الحصـار تسعة وأربعين يوماً.

وأخيرا وصلت المساعداتُ من فرنسا. ونزلت ثلاث كتائب على رأسها رجل سيجعل الناس يتحدثون عنه في الجزائر كما في فرنسا، إذ أنه سيكون من أشد خصوم الأمير، إنه الجنرال بيجو (توماس روبير بيجو دولابيقونري -دوق إيسلي- Thomas Robert Bugeaud de la piconnerie - Duc d'Isly (1849-1774).

كان عليه القيام بمهمتين: فكّ حصار معسكر التافنا، وبالتالي تموين حامية المشور. وحين نجح في تنفيذ المهمة الأولى، سار إلى تلمسان؛ ولما تظاهر بالتراجع، دفع عبد القادر إلى عبور النهر وخوض المعركة في وضع لا يمكنه سوى التسريع في هزيمته؛ فكانت الحصيلة في صفوف عبد القادر مئتين وخمسين قتيلاً، وألف جريح وأكثر من مئة أسير، وست رايات وخمسمئة بندقية.

تقوى بيجو بهذا النصر، فدخل إلى تلمسان واستبدل الكولوغلي في المشور بكتيبة من سبعمئة وخمسين فرنسياً. لقد غُلب عبد القادر. لكنه لم يلبث أن استعاد قواه وأظهر تهديده الدائم لجيش محصور في المدن (الجزائر، وهران، مستغانم، أرزيو، ونسبياً تلمسان).

1-Boabdil هو الإسم المحرّف لأبي عبد الله، الذي حكم باسم محمّد التاسع، ملك غرناطة.

2- الكولوغلي: أبناء العائلات المختلطة الجزائرية التركية .

3- بالضبط، 444.94 فرنكاً.

عبد القادر وبيجو، معاهدة التّافْنَا

كانت الحملتان الفرنسيتان على معسكر وتلمسان قد آلتـا إلى إقناع الأمير بضرورة وضع تموينات وخطوطه الدفاعيـة في قرى بعيدة من الساحل. هكذا منذ 1836 وحتى قبل معاهـدة التافنا، أخذ يحصّن متاريس (تاغدمت) وأسوارها، التي كان يرمي إلى جعلها عاصمة له، والتي كانت أنقاضها تشهد على بهاء عريق(1).

عندما ورد إلى الأمير خبرُ فشل حملة قسنطينة (12 نـوفمبر 1836) استفاد من ذلك التحول لكي يزيـد مـن المتاعـب الفرنسية. فأمر خليفته على (مليانة) بإحراق عـدة مـزارع بالقرب من بوفاريك، وأمر قبائل (غرابة) بأن تشدد الحصار على وهران، وبسلب قطعان الماشية التابعة للإدارة وتعـرض المدينة لفاقاتٍ شديدة. وكان الهدف المنشود جعـل الحاميـة الفرنسية في وضعٍ يرغمها على السعي لطلب الإتصال لفـكّ حصار التموينات.

تم تكليف رجل أعمال يهودي يسمى بن دوران، الـذي كان قنصل الأمير في مدينة الجزائر، بالتقرّب سرّاً مـن قائـد موقع وهـران الجنـرال بروصـار آميـدي هيبوليـت Brossard Amédée Hipolyte، لكن مع التأكيد الشديد على أن مسعاه مجرد مبادرة شخصية.

فقال بن دوران للجنرال مايلي: «تحتاج الحامية الفرنسية إلى القمح واللحم؛ والأمير يحتاج إلى الحديد والفولاذ والكبريت. فليُعط كل فريق للآخر ما يلزمه، وسوف يجد الجميع مصلحةً

في ذلك؛ لأن الفريقين إذا كانا يستطيعان في الحقيقة أن يحصلا على ما يريدان، هذا على القمح واللحم، وذاك على الحديد والفولاذ والكبريت، فإنهما يدفعان ضعف قيمتها؛ فلنتفاهم وسوف تكون المنفعة متبادلة ».

وأضاف بن دوران: «فوق ذلك، لا تخشوا من شيء، فهذا الإقتراح لا يُلزمكم بأي مسعى لدى الأمير: فعبد القادر وأنتم لن تظهرا في الصفقة، ولن يظهر فيها سواي. فأنا أبيعكم الثيران؛ وأنتم تبيعونني الفولاذ والكبريت؛ إنما سيعرف الأمير أن الثيران هي لكم، كما ستعلمون أن الحديد والكبريت هما له».

وافق بروصار، ومن الواضح أن موافقته هي لمصلحة عبد القادر الذي كان لا يستطيع إدخال هذه الكميات إلا من المغرب، وهذه عملية طويلة ومكلفة، وهي فوق ذلك غير مضمونة. وطبّق بن دوران النسق نفسه على قلعة المشور بتلمسان وجرت الصفقة.

لكن في أثناء تحقيقها، كلّف الأمير بن دوران بأن يُعلم الجنرال بضرورة إيجاد وسيلة لجعل المسلمين، خصوصاً زعمائهم، وهم الحساسين جداً إزاء هذا النوع من الصفقات التي لا تنطوي على مقابل مشرف.

بعد تقديم عدة احتمالات كان يراها الأمير غير مقبولة، طرح بن دوران الإحتمال الذي كان يهمّ عبد القادر بوجه خاص: إطلاق مئة وثلاثين أسيراً جزائرياً معتقلين منذ معركة (نهر) السَّكَاك (06 جويلية 1836). وحصل بن دوران على

هذا المطلب الذي يُرضي الأمير ،المنشغل كثيرا بعائلات الأسرى التي تطالب بإطلاق سراحهم.

وفي الوقت نفسه، كان قد جرى استبدال كلوزال بالجنرال دَمِرْمون، وجرى تعيين بيجو في موقع وهران مع تخويله سلطات خاصة. هكذا، وفي أفق حملة جديدة على قسنطينة، كانت الحكومة الفرنسية قد وجدت نفسها أمام صعوبة مهاجمة هذه المدينة في الوقت نفسه، الذي تجابه فيه عبد القادر في الغرب. عندها كُلِّف بيجو إما بالحدّ من نفوذ عبد القادر بقوة السلاح، وإما بالتفاهم معه على أسس مناسبة.

كان الأمير قبل ذلك بقليل، قد طلب القنصل الفرنسي العام في طنجة م. ميشان M.Michain، مناشداً إياه الحصول من باريس على أجوبة خاصة بمفاوضات الصلح التي بدأت مع الجنرال كلوزال. وكان بيجو مهتماً بالمسعى فاستعجل الأحداث. والتقى بن دوران (بناءً على توصية من الجنرال بروسّار) وكلفه بالسير في طريق المفاوضات مع الأمير.

وفي رسالة إلى حكومته بتاريخ 21 أفريل قال الجنرال بيجو: «تلقّيت من عبد القادر رسالة مهذبة جداً وتتسم بروح الكرامة. سيقوم بالتقرّب مني ويُقيم في ضفة نهر سيغ. سيذهب إليه غداً اليهودي بن دوران الذي يحظى بكامل ثقته، وسينقل له شروطي المكتوبة. وسوف يراسلني يومياً لمناقشة البنود التي قد تعاني من مصاعب.

لابد أن يتمّ الصلح وأن يُبرم خلال عشرين يوماً. أرجو الحكومة أن تأخذ هذه الضرورة بعين الإعتبار، إذ ينبغي في

غضون عشرين أو خمسة وعشرين يوماً البدء بالعمليات، إذا لم يقع الصلح. أعتقد أنني سأحصل على:

1- الإعتراف بسيادة فرنسا.

2- حصر قوة عبد القادر في محافظة وهران.

3- حيازة منطقة محدودة في الغرب ريو سالادو (بلدية عين المالح بولاية عين تموشنت)، وشرقاً بـ (نهر) الشلف و(وادي) المقطع، لأنني قد أكون مضطراً للقبول بهذا الحد الأخير.

كنت قد نسيت قاعدةً أساسية أخرى، وهي ذات مستقبل: عدم تسليم أحد، باستثناء القتلة ومضرمي النيران؛ وأضيف بالنسبة إلى الشعبين، إمكانية العيش المتبادل المشترك ».

جاءه الردّ بالطريقة نفسها في 30 أفريل: « أن في إمكانه أن يفاوض بهذه الشروط؛ مع التأكيد طبعاً على أن الملك يتحفظ في المصادقة عليها».

وعندما وصل الجواب كان بيجو قد فقد الأمل في هذا الإتفاق، لأن الأمير رفض مقترحات الجنرال. وكلّف بن دوران بأن يقول للجنرال: «إن العرب لن يوافقوا أبداً على العيش تحت نير المسيحيين؛ وإن فرنسا إذا كانت تريد أن تعاملهم بالقوة، فسوف تدور بينها وبينهم حروب لا تنتهي؛ وإن عبد القادر لم يستولِ بإرادته، على منطقة التيطري (المدية)، وإن أهاليها أنفسهم هم الذين دعوه، وإن شرفه المتوافق مع عقيدته الدينية، هو الذي منعه من التخلي عن الأهالي، الذين كانوا قد وضعوا أنفسهم تحت حمايته. وأخيراً، بدلاً من نشر قوتها وسط الأهالي الذين كانوا مناوئين لها، كان من مصلحة فرنسا أن تحصر قوتها في مدن الساحل وحدها».

إذن، رفض الأمير التفاوض على هذه الأسس، وأطلع الجنرال على مطالبه: حصر الوجود الفرنسي في مدينة الجزائر وجوارها وتوسيع نفوذ الأمير ليشمل تسعة أعشار منطقة الجزائر. ولما رأى بيجو أن مواقف الطرفين شديدة التباعد، قرّر شن حملة على عبد القادر، وصمّم على مهاجمته من جهة تلمسان.

لكنه لاحظ أن البغال الثمانمئة المخصّصة للنقل كانت غير قادرة على القيام بالمهمة، لأنها كانت جميعها تقريباً مصابة بجروح خطيرة. فلم يكن في مستطاعه سوى تأجيل المشروع، إذ كانت مرحلة الحملة على قسنطينة قد أخذت تقترب، وهذه كانت تستلزم إرسال قوات من وهران للمشاركة فيها، فوجد نفسه في وضع صعب.

كان عبد القادر على علم بمشروع الجنرال بمهاجمته، لكنه كان يجهل مشروع الحملة على قسنطينة، فقد عقد اجتماعاً لقادته العسكريين والدينيين، ودافع عن فكرة التنازل عن البليدة، حتى يحصل على باقي المنطقة ويعزز سلطته بعقد الصلح.

وبما أن مواقف الطرفين كانت متباعدة جداً، فإن المفاوضات كانت عسيرة. وفي آخر المطاف عُقدت المعاهدة لمصلحة عبد القادر. لكن المادة الثانية، في فقرها الثانية، كانت مصدر سوء تفاهم ثم نزاعات، وصارت السبب الحتمي لمواصلة الحرب:

«وفي وطن (إقليم) الجزائر، الجزائر (المدينة) والساحل وسهل متيجة، جهة الشرق: إلى حد وادي الخضره وما فوقه.

لحد: رأس أول جبل إلى وادي الشفة، بما في ذلك البليدة وسائر نواحيها. وغرباً: نهر الشفة إلى كوع* واد مزفران. ومن هناك، بخط مستقيم إلى حد البحر، ويتضمن في هذا الحد القليعة وكامل نواحيها، بحيث تكون كل ما في هذه الحدود في يد الفرنسيين».

بعد التوقيع على الإتفاقية في 1937/05/30 (راجع الملحق)، كتب الجنرال بيجو إلى وزير الحربية الرسالة التالية، بلا شك لتبرير التنازلات التي قدّمها للأمير: « إنكم معتقدون أنه يؤلمني جدا، أن أعمل أفكاري، بعدم اتباعي تعليماتكم بالنظر إلى الحدود، المعينة للأمير. على أن ذلك كان مُحَالا. وتيقّنوا أن الصلح الذي عملته هو أحسن،والأرجح أن يكون طويل المدة. وأفضل مما أعمله، بحصرالأمير بين الشلف ومراكش».

ذلك لأن الصلاحيات المفوَّضة من باريس تحدِّد للجنرال التفاوض على الأسس التالية:

1- اعتراف عبد القادر بسيادة فرنسا،

2- حصر مملكته إلى نهر الشلف،

3- دفع جزية،

4- تقديم رهائن كضمان لتنفيذ المعاهدة.

لم ترَ الحكومة الفرنسية، التي لم تكن تقدِّر ضرورة الإعتراف لعبد القادر بالأهمية التي كانت تُوليه إياها هذه المعاهدة بالذات، أن من الواجب تطبيق الأحكام المألوفة في مجال المصادقة على الإتفاقيات؛ فاكتفت بالسماح للجنرال بإعلام الأمير خطياً، أن الملك قد صادقَ على المعاهدة.

إن هذه المعاهدة التي كانت تقوم لدى الفريقين على التِبَاس كبير لم تكن في منأى عن تعقيداتٍ مقبلة. إذ بعد توقيع معاهدة دو ميشال برزت صعوبات في التفسير. بما أن الأمير كان يمارس حقّ احتكار الحبوب عن طريق ميناء أرزيو، فقد كان يحظر على أبناء دينه أن يبيعوا الحبوب للفرنسيين، فكان يشتريها منهم ويشحنها في مراكب تعمل لحسابه.

وعندما قدّم الفرنسيون شكاواهم إلى الجنرال دو ميشال، أجابهم بنفي وجود أي احتكار كان قد منحه للأمير، وإذ كان مستعجلا لتقديم تفسير أو حلّ، اختار حلا لم يكن إلا مُسكّناً خفيفاً، أي إرضاء الأمير واستئناف التجارة في آن واحد، وهو أن الإذن لا ينطبق « إلا على الحبوب الناتجة عن أملاك عبد القادر الشخصية».

أما بالنسبة لموضوع التسلح والبارود، أُثيرت المسألة نفسها. فجرت عدة صفقات تجارية بين الأمير وتجار الأسلحة في مدينة مرسيليا؛ لكن المصاعب ما لبثت أن ظهرت بلا تأخير، في تفسير مختلف بنود المعاهدة.

حتى إن الجنرال درويه درلون، الحاكم العام آنذاك، احتجّ على الإتفاقية السرية، فكتب إلى وزير الحربية: «سيدي الماريشال، إني أسألكم أولاً عما إذا كان الجنرال دو ميشال تمكّن من عقد اتفاقية سرية مع عبد القادر بمحض صلاحيته، من دون إعلامي... فأنا بحاجة إلى أن أعرف بطريقة إيجابية، ما إذا كنا مُلزمين بالتنازل لعبد القادر عن احتكار تجارة الحبوب والحيوانات والأصواف والملح؛ وإذا كان يجب علينا

السماح له بجباية الرسوم الجمركية في الموانئ ذاتها التي نحتلّها، وخاصة التزوّد من خلال تجار فرنسيين أو أجانب، بالذخائر والأسلحة الحربية».

تمنّى بيجو أن يلتقي بالأمير منذ توقيع معاهدة التافنا. وفي اليوم ذاته تمّت المقابلة. حيث أن عبد القادر رفض دوماً أي اتصال مباشر حتى ذلك الحين، فقد وافق على اللقاء بشكل استثنائي، حتى يظهر في عيون العرب أنه يحظى بحفاوة تكبّر سلطانه، وليس تلبية لموعد. تفاصيل هذه المقابلة مذكورة في جريدة « le Moniteur Universel على أساس تقرير بيجو (راجع الملحق)».

* * *

كتبت هذه الجريدة بشكل خاص: «لوحظ موكب الأمير الذي كان يتقدّم بكل مهابة. وكان يمكننا أن نعدّ مئة وخمسين أو مئتي قائد بهيئة مرموقة، كانت ملابسهم الجليلة تزيد من مهابتهم أيضاً. كانوا يمتطون جميعهم جياداً رائعة، كانوا يجعلونها تُكدف الأرض بحوافرها، التي كانت ترفعها بكثير من الأناقة والمهارة. وكان عبد القادر نفسه متقدّماً عليهم ببضعة أمتار، ممتطياً صهوة جوادٍ جميل أسود، كان يُسيّره بطريقة عجيبة. تارةً كان يجعله يرفع قوائمه الأربع معاً، وتارةً كان يجعله يمشي على قائمتيه الخلفيّتين. وكان عدد من العرب آخذين بركابه وبأطراف برنسه».

سنكتفي من المقابلة الطويلة، بنقطتين:

- بيجو: إنني بهذا الشرط، جعلت نفسي كفيلا لك عند ملك فرنسا.

- **الأمير:** ليس لك خطر في ذلك. فإن لنا دينا وأخلاقا عربية تلزمنا المحافظة على قولنا، وأنا لا أغير قولي.

ثم سأله عبد القادر: كم يلزم من الوقت للحصول على موافقة ملك الفرنسيين؟.

- **بيجو:** يلزم ثلاثة أسابيع.

- **الأمير:** هذا طويل جداً. حيث أن الأمر كما ذكرت، فلا نجدد العلاقات التجارية، ولا نحدث شيئا من مقتضيات المواصلة إلا بعد وصول الجواب من فرنسا..

كان بيجو ينتظر بقلق موافقة ملك الفرنسيين، لأنه كان يعلم أن أيّاً من تعليمات الحكومة لم تكن واردة في المعاهدة. كانت الحكومة قد طلبت اعتراف الأمير بالسيادة الفرنسية. ولم يحصل بيجو إلا على « اعتراف الأمير بأن الملك عظيم». وكانت الحكومة تريد حصر سلطة الأمير في الشلف.

وكان بيجو قد اعترف للأمير، فضلاً عن التيطري (المدية)، بتسعة أعشار منطقة مدينة الجزائر. كما كانت الحكومة تريد جزية سنوية. فاكتفى بيجو بهبة كمية محددة من القمح والشعير؛ وكانت تطلب رهائن. فقبل بيجو بانتداب متبادل للقناصل.

كذلك، عندما وصلت مصادقة الملك على المعاهدة من الملك، تلقّاها بيجو بارتياح عارم، واستقبلها الأمير بغبطة مكتومة. ذاك أن الرهان كان كبيراً جداً، وأن مختلف النزاعات الناشئة عن تفسير بنود المعاهدة كانت الدليل القاطع على ذلك، لأن شروط صلح غامضة لا يمكنها إلا أن تُفضي إلى

خصومات جديدة. لكن، لنترك التحليل للمختصين، لأن هذا ليس موضوع الكتاب (راجع نصّ المعاهدة في الملحق).

ونكتفي هنا بنقل تعليق الحاكم العام الجنـــرال دامرمــــون، الذي كتب إلى رئيس الوزراء الفرنسي بتاريخ 1837/06/19، قائـــــلا:

« ما معنى هذه السيادة الفرنسية، مادات فرنســـا تعامـــل الأمير على قدم المساواة معها، وتجعل منه السيد الفعلي للبلد، باستثناء قطعتين من الأرض احتفظت بهما لنفسها..، ليســـت المعاهدةُ مفيدةً لنا، لأنها تجعل الأمير أقوى مما يمكن أن يجعلـــه انتصار باهر، وتضعنا في موقـــف هـــشّ بـــلا ضــــمانات، ومحصورين في حدود سيئة. وهي ليست مشرِّفة لأن حقنا في السيادة لا يقوم على شيء، ولأننا نتخلّى عن حلفائنا. كمـــا لم تكن ضرورية لأن أمر تمركزنا بقوة في متيجة وحول وهران لا يتوقف إلا علينا، وأن نجعل أنفسنا فيهـــا غـــير معرضـــين للهجوم، وذلك احتسابا للمستقبل».

بالإضافة إلى التنازلات التي حصل الأمير عليهـــا بفضـــل مهارة مفاوضيه، الذين استلهموا فكرَه وآراءه، كان التـــأثير النفسي هائلاً. وهكذا فإن قبيلة الدوائر الذين كـــانوا كمـــا رأينا، قد ساندوا الرتل الفرنسي في حملته من وهـــران علـــى تلمسان، ومن تلمسان على التافنا، استُقبلوا عندما عادوا إلى ديارهم بعد المعاهدة، بشتائم النساء اللواتي اتهمتهم في جرأة، بأنهم سمحوا بالتخلي عن الأرض التي كان أجدادهم قد عاشوا فوقها بكرامة.

* * *

انتهت الحملة الثانية على قسنطينة (1837) بالإستيلاء على المدينة واحتلالها. انسحب الباي أحمد إلى مدينة بسكرة، حيث طردته قوات عبد القادر، فتراجع وحده يائساً إلى منطقة وادي ميزاب.

قُتل الجنرال دمرمون بقذيفة أثناء الحصار، فجرى استبداله بالماريشال سيلفان شارل فالي Sylvain Charles valée الذي استمر حاكما عاما للجزائر أربع سنوات، (1837-1841). وأمام إرادة الأمير، القوي بمعاهدة التافنا، في احتلال منطقة قسنطينة، رفض فالي ذلك، مفسِّراً تفسيراً مختلفاً المادة الثانية من المعاهدة المذكورة. ويشهدُ على غموض النص العدد الكبير من تبادل الرسائل حول هذا الموضوع بين فالي وعبد القادر.

كان كل شيء في الواقع يدور حول التفسير، بخصوص حدود الأرض المقصودة في عبارة «واد خضره وما بعدها!». إن الترجمة الفرنسية للكلمة العربية فوق (Au dessus) بكلمة (Au delà) أدّت إلى نشوب نزاعات حادة في العلاقات بين السلطات الفرنسية والأمير.

* * *

كان الأمير غداة معاهدة التافنا قد تلقّى هدايا من جانب لويس فيليب. ورداً على هذه الإلتفاتة، أرسل إلى باريس رجله الثقة (نظير/ وزير الخارجية) [2] ميلود بن عرّاش، وحمّله هدايا للملك، وفي نيته الحصول من أرفع السلطات الفرنسية على تفسير للنص يكون أكثر ملاءمة له. لكن فالي حين استشعر بالمسعى، أعلم حكومته بالأمر؛ فجرى استقبال بن عرّاش بوصفه مجرّد حامل هدايا وليس كمبعوث.

ولدى عودة الميلود بن عرّاش إلى مدينة الجزائر، اقترح الحاكم العام عليه تعديلاً للمعاهدة، فرفضه بادىء الأمر، بدعوى أنه لا يملك صلاحيات. فألحَّ الماريشال إلحاحاً شديداً، مستعملاً حججاً قوية جعلت بن عرّاش يضع ختمه على التعديل، منتظراً - كما سيقول - مصادقة الأمير، على أمل النجاة من تحرّش الماريشال والإلتحاق بعبد القادر.

هل كان الأمير عبد القادر مشغولاً بمحاصرة بلدة عين ماضي؟ (3)

لماذا عين ماضي؟ كان قد قدم أحد الوجهاء من مدينة الأغواط، يدعى الحاج عيسى لرؤية الأمير، باسم أهالي المنطقة، حاملا عدة هدايا للمبايعة ومنها جياد رائعة، فنقل له أن قبائل جنوب الأغواط كانت سعيدة بأن تضع نفسها تحت سلطته. رضيَ عبد القادر عن هذا الإنضمام التلقائي، فعيَّن الحاج عيسى خليفة له على الأغواط. لكن هذا الوجيه المصحوب بعدة شخصيات مهمة من المدينة، كان قد تناسى أن يقول للأمير أن له منافساً شديداً هو رئيس الطريقة التيجانية في عين ماضي.

بعد استقرار الخليفة، رفض التيجاني سلطةَ خصمه. لقد جرى تضليل الأمير من جانب ممثله الذي كان يخبره أن تمرّد التيجاني، سببه رغبته في أن يبقى وحده سيد الصحراء ضد سلطة عبد القادر نفسه، كما أعلمه أيضاً أن الطريقة التيجانية كانت مناوئةً للطريقة القادرية، الغالية جداً على قلب الأمير. عندها صمَّم الأمير على الذهاب لمعاقبة المتمرّد.

وهكذا بدأ الحصار، وكاد يعرِّض نفوذ عبد القادر للخطر، لأن محاصرة واحة نخيل هي مغامرة خطيرة: فمع كل خطوة، إذا حدثت، يتحقق تقدّم ضئيل، لكن مع خسائر فادحة بكل تأكيد. وأحد الشواهد على ذلك حصار الزعاطشة من قبل الفرنسيين (1849) الذي كان من أطول الحصارات وأكثرها دموية.

في الواقع يبدو أن الحذر المألوف لدى عبد القادر قد جرى خداعه. فلو أن عبد القادر كان قد التقى التيجاني، لربما كان قد جرى توضيح الأمور، ولربما لم يحدث حصار ولا تبادل إطلاق نار. فضلاً عن كون التيجانيين يشاطرون الأمير كرهَهُ للأتراك، لا سيما وأن سيّد عين ماضي كان قد نجح في مواجهة الحصار، الذي فرضه عليه محمد الكبير باي وهران آنذاك، سنة 1783.

إضافة إلى ذلك، كان يقف إلى جانب سيد عين ماضي حليفٌ قوي، قبيلةُ الأربعاء القوية والمحاربة. ربما في ظروف أخرى كانت هذه الحقيقة لا تخفى عن الأمير، وهو نفسه ابن خيمة كبرى، وكان شديد الإحترام والإعتبار للقبائل الكبرى ذات الشرف والسيوف. عندما تعلّق الأمر بفرض جباية الضرائب، ألم يراع علناً أولاد سيدي الشيخ؟ فقد قال للجنرال دوما: «لا توجد في الصحراء سوى أربع نقاط لم أبلغها، وهي: المزاب، وُرَقْلَة، توغورت وسُوف».

وكان أولاد سيدي الشيخ قد اعترفوا بي؛ لأنني في الحقيقة كنت قد منحتهم بعض الإمتيازات، وكانوا يدفعون ضريبة مخفّضة؛ لكنهم كانوا يشكلون قبيلة مرابطين، وكان من واجبي أن أحميهم». (راجع فصل: تنظيم الأمير).

هناك ظروف قد يؤدي فيها رد فعل المــرء إلى أوضـاع يصعب فهمها مع مرور الزمن، ففي حرارة الأحـداث الـتي عاشها الأمير، منشغلا بتوطيد سلطته بسرعة، سـواء بقـوة السلاح أو استعراض القوة، يبدو أنه قد تصرّف في قضية عين ماضي بدافع احترام المبادئ.

فلو كان قد تفاوض مع التيجاني، لربما كان التيجاني قد طالب بتنحية منافسه؛ وإذا قبل الأمير بذلك فإن سلطته قد تهتزّ لدى القبائل الأخرى، وقد تفتح ثغرات متسلسلة من شأنها أن تضع على المحك كل نفوذه السياسي، الذي كان قد شيّده بفارغ الصبر. وأكثر من ذلك، حين يتعلق الأمر برئيس طريقة مرابطية (زاوية)، نفوذه الروحي كبير في المنطقة. فإذا تراجع أمام مطالبه، لربما برز هناك مرابطون آخرون، وهم كثيرون في البلد، قد يراودهم المطلب ذاته، سواء بدافع من أنفسهم أم بتحريض من العدو.لقد كان الرهان بالغ الأهمية،حتى لا يتوقف عند هذا الإختيار.

بعد انتهاء الحصار، رفع بن عرّاش تقريراً إلى الأمير عن لقائه بالحاكم العام الماريشال فالي Vallée، وعن الختم الذي وضعه على التعديل المذكور، في انتظار التصديق عليه. فانتاب الأمير غضب غير مسبوق وقال: «لن أصدِّق أبداً على إتفاقية يترتب عليها فتحُ الإتصالات أمام فرنسا بين مدينـة الجزائر وقسنطيـنة».

ثمة مشكلة أخرى سوف تسمِّم العلاقات بين الفرنسيين والأمير. إذ اقترح الأمير - تطبيقاً للمعاهدة دائماً - تعيين السَّيد غارافيني Gravini قنصلاً له في مدينة الجزائر، فيما هو قنصل للولايات المتحدة الأميركية.

رفضت الحكومة الفرنسية ذلك الإقتراح. إذ كان هدف عبد القادر بكل وضوح، أن يجتذب إلى جانبه القوة التي كان غارافيني ممثلاً لها؛ إنها مناورة ماهرة سرعان ما جرى رفضها بالطبع. وعندما ألحّ، استمرّ الرفض. عندئذٍ كتب الأمير إلى فالي، وهو متزعج من هذا الموقف المحسوم: « طالما أن الأعراف تُنتهك، ويُرفض ما أراه مفيداً لمصالحي، ويُراد من وراء ذلك الحطّ من شأني، فإني مستعد للقطيعة إن كنتم ترغبون في ذلك. فلا أحد يجهل أنني اخترت غارافيني. وأنني لا أستطيع أن أختار سواه».

كانت القطيعة تلوح في الأفق. وكان الأمير يعلم (سيروي ذلك لاحقاً للجنرال دوما في طولون) أن معاهدة التافنا قد لا تكون أكثر من هدنة.

وخلال العامين الذين كانا يفصلانه عن استئناف العداوات والمعارك، انكبّ بقوة على تنظيم منطقته، وعلى تزويد القبائل بقادة حربيين نافذين، قادرين على تعبئتها في أي لحظة. وإذ كان يعلم أن القوات الفرنسية قد تحاول الإنتشار خارج مدينة الجزائر، فقد صمّم على اتخاذ كل التدابير، التي من شأنها حصر الجيش الفرنسي في العاصمة والضواحي المباشرة.

ولهذه الغاية، كان قد اختار قوتين ضاربتين، قبيلة الحجوط وعشائر منطقة القبائل المحاربة. فمنذ صيف 1838 ذهب إلى منطقة القبائل الكبرى. وصل إلى البويرة حيث استقبله الأهالي بحرارة، وعلى رأسهم خليفته سي أحمد بن سالم. ثم وصل إلى بوغِني حيث كان الإستقبال هائلا. كما استقبلته مدينة

تيزي وزو بحماس شديد. وبعدها مدينة دَلّسْ، وبها مرفأ كان عبد القادر يعلّق عليه أهمية كبرى، خاصة (كما سنرى ذلك لاحقاً).

ذهب إلى منطقة القبائل الصغرى: من تامدا إلى مدينة آقبو، ومن آقبو إلى أبواب مدينة بجاية، كان الجوّ تغمره البهجة. « إن حضور رجل كهذا في جبالهم، أحدثَ تأثيراً في القبائل التي توافدت جماهيرها لزيارته»[4].

وبعد مرور عام، أي سنة 1839، ستبرهن سلسلة الحوادث على أن المخطّط الذي كان عبد القادر قد وضعه، قد تم تنفيذه جيدا. وهكذا فإن «السكان الأوروبيين للعاصمة، الذين لم يكونوا قد فرغوا من الإحتفال بالعبور المجيد لأبواب الحديد[5]، تلقّوا صدمةً، حين علموا أن جنود الأمير كانوا على أبوابهم».

كان المؤرخ أوغسطين برنار Bernard Augustin الذي ننقل عنه هذه التفاصيل، قد ختم رواية هذا الحدث بالأسطر التالية: «حل الذعر محل الثقة؛ وساد هلع عام، حتى أن مدينة الجزائر ظنت أنها مهدَّدة»[6].

نرى جيداً أن الأمير كان يعتقد أنه لتحقيق الوحدة الوطنية يجب إحداث هبة وطنية. فقد تمت تلبية ندائه في منطقة القبائل، وهدَّد فرسان عمراوه الأمازيغ ومشاة فليسا، أبواب الجزائر العاصمة، كما هدَّدها لاحقاً سنة 1871 فرسان الشيخ المُقراني.

لو كان أحمد باي (حاكم قسنطينة)، ذاك القائـد الحـربي المهيب، الذي صمد ببطولة أمام غزوة 1836، وكان أقل حظا في غزوة 1837. قد انضم إلى الأمير بمساندة شعب شـجاع ومتحفز، لربما كان التاريخ قد شهد مجرى آخـر، وعواقـب سياسية أخرى.

---

1 – م. دي فرانس: ملازم في البحرية، أسير عبد القادر، ترك الـنص التالي: « في المرحلة التي بدأت فيها الأشغال، كان للأسوار سبع ذرعان من الكثافة في الأسفل، وعلى بضع أقدام فوق الأرض، كانت ترتفـع بتقلّص، إذ لم يكن قد بقي سوى خمسة. وكان هناك تسـعة أبـراج للدفاع عنهـا من قرب». دي فرانس، أسير عبد القادر.

– تاغدمت: بناها الأمير على على أنقاض المدينة الرومانيـة، لتكـون عاصمة له عند الحاجة، وهمزة وصل للتبـادل التجـاري بـين التـل والصحراء. حصن كبير، تقع على بعد 90كم جنوب شرق وهران.

2 – تولى إبن عراش نظارة/ وزارة الخارجية في حكومة الأمير، التي كانت تتشكل أيضا من، نظير (وزير) الداخلية: محمد بن السيد العربي، الحربية أو الدفاع: محمد بن الجيلاني، المالية العامة: الحاج بن أبي عبد الله الحاج الجيلاني بن فريحة، المالية الخاصة: أبو سعيد بن محمد فاخة، الأوقاف: أبو عبد الرحمن الحاج الطاهر أبو زيد، العشور والزكاة: أبو محمد الجيلاني العلوي بن الهادية.

كما أنشأ مجلس شورى (إثني عشر عضوا) من المشايخ والعلماء: أحمد بن التهامي، عبد القادر بن ركوش، عبد الله سقاط المشرفي، الطاهر المحفوظي، أحمد بن الطاهر المشرفي، محمد بن المختار الورغي، المكي

الخروبي، المختار بن المكي، الحاج عبد القادر بن ركوش الأكبر، إبراهيم بن القاضي، وقاضي القضاة أحمد بن الهاشمي المراحي، الذي يترأس المجلس في مدينة معسكر نيابة عن عبد القادر.

علما أن الأمير كان قد نظم الإمارة بشكل محكم، من حيث التنظيم الإداري والإقتصادي والسياسي والعسكري، السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية،وما يتفرع عنها من إدارات ومصالح مختلفة. فكان بذاك مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة.

3- واحة بالقرب من الأغواط، على بعد 450 كلم من مدينة الجزائر.

4- ش. فارين في كتابه (عبر منطقة القبائل)، الذي ذكره محمد الصغير فرج في كتابه المتميز حول (تاريخ تيزي وزو، من الجذور إلى 1954)، ص 68.

5- أبواب الحديد: ممرات في جبال البيبان، تؤدي الى مدينة قسـنطينة، وهي جزء من جبال الأطلس التلي. وقد مرت عبرها القوات الفرنسية لاحتلال قسنطينة.

6- المرجع نفسه. محمد الصغير فرج، ص 72.

* كوع: منعطف الطريق.

تنظيم الأمير

للحديث عن التنظيم الذي كان عبد القادر قد أقامه، بعد معاهدة التافنا، ليس هناك أفضل من العودة إلى الوثيقة التي وضعها العقيد دوما في قلعة لامالغ إثر محادثته مع الأمير، حيث كان معتقلاً. وذلك بصفته المزدوجة كقنصل سابق لفرنسا في معسكر وكمدير سابق للشؤون العربية في ظل حكومة الماريشال بيجو.

كانت العلاقات بين الرجلين موسومةً بالثقة والإحترام؛ وبلا شكّ كانت معرفة العقيد دوما للغة العربية، قد سهّلت التواصل المباشر بينهما، وبالتاليّ جنّبت الأخطاء الممكنة في أية ترجمة.

إليكم رواية الأمير: « عندما تجدَّدت الحرب سنة 1839، كان كل البلد العربي يخضع لسلطتي، وقد جرى تنظيمه في ثماني مقاطعات أو خلافات.

مقاطعة تلمسان (عاصمتها تلمسان) بقيادة محمد البوحميدي الولهاصي. مقاطعة معسكر (عاصمتها معسكر) بقيادة سي محمد بن فريحة المهاجي وبعد وفاته وليت صهري مصطفى بن أحمد التهامي. مقاطعة مليانة (عاصمتها مليانة)، بادىء الأمر بقيادة سي محي الدين بن علال القليعي، وبعد وفاته بقيادة سي محمد بن علال ولد سيدي مبارك. مقاطعة التيطري (عاصمتها المدية) بقيادة أخي مصطفى بن محي الدين ثم عزلته ووليت خلفا له محمد البركاني. مقاطعة برج حمزة

(عاصمتها برج حمزة) (البويرة) بقيادة سي أحمد بن سالم الدبيسي. مقاطعة مجانة (عاصمتها سطيف)؛ بقيادة سي طوبال بن عبد السلام. مقاطعة الصحراء (القسم الشرقي ومنطقة الزّاب) (عاصمتها بسكره) بقيادة سي الحاج محمد الصغير. مقاطعة الصحراء (القسم الغربي) (عاصمتها الأغواط) بقيادة سي قدور بن عبد الباقي.

كانت كل مقاطعة مقسمة إلى عدد معين من دوائر، كنت قد وضعت على رأسها آغا، وكانت كل دائرة تضمّ عدداً معيناً من القبائل يقودها قادة، وكل قبيلة تحتوي على بطون وعشائر على رأسها مشايخ.

كانت أوامري تصل إلى الخلفاء (الولاة)، وتترل هرمياً إلى الآغوات، ومنهم إلى القادة حتى المشايخ، وكانت التقارير تُرفع من المشايخ بالهرمية نفسها حتى تصل إليّ.

وبما أن هدفي كان طرد المسيحيين من أرض كانت ملكا لآبائنا، كنت أُقلع في كل مكان عن استخدام الجُواد (النبلاء العسكريين)، وأدعو إلى الحكم المرابطين والأشراف (النبلاء الدينيين). ويدل الصراع الطويل الذي خضته على أنني كنت قد أحسنت الحكم.

كما أنني استبعدت بطريقة مطلقة دون استثناء، كل الممثلين السابقين للحكومة التركية. لقد كانوا كريهين، وكنت أرغب في أن يكون في الإمكان إجراء مقارنة مباشرة بين هؤلاء، الذين ما كانوا يريدون سوى الأباطيل وخيرات الدنيا، وبيني أنا الذي لم يكن لديّ سوى تفكير واحد، هو انتصار المسلمين.

كنت قد فهمتُ أنني لن أستطيع أبداً منع الرؤساء الـذين كنت أعيّنهم من ارتكاب مخالفات وتجاوزات، أو معاقبتهم في حال ارتكابهم لها، وذلك على قدر ما أكون قـد منحتـهم رصيداً يمكنهم من العيش. وعليه كنتُ أمنح: للخلفـاء 110 دورو (550 فرنكاً) شهـرياً، وفـوق ذلك صـاع شـعير (160 ليتراً) كل يوم، وذلك لتمكينهم من القيـام بواجـب ضيوفهم الكثيرين، الذين كان موقعهم يقودهم إلـيهم بـلا انقطاع؛ وللآغوات عُشر كل المداخيل، إما نقداً وإما عيناً.

وكان القادة يُعاملون كالآغوات؛ ولكن كان لديهم عـدد أقل من المرؤوسين، وبالضرورة كانت مداخيلهم أقل. وهكذا كان كلٌّ واحد يتلقّى على قَدْر قيادته. وكنتُ أجعل - على قدر ما كان في مستطاعي- الخلفاء والآغوات يحلفون اليمين لأجل حماية خدّام اللّه من تعدّيات رؤسائهم، وذلـك علـى كتاب سيدي البخاري المقدّس فيقسمون بأنهم لن يرتكبـوا ظلماً بحقّ مرؤوسيهم. وكنت أنا شخصياً قد جعلت نفسـي رقيباً على كل أعمالهم. كما كنت أصيح في كل الأسـواق، سواء لترهيب العملاء الذين كـانوا يرتكبـون سـرقات أو إساءات، أو لإظهار عزمي أمام العرب على قمعهم، فـأطلق النداء التالي:

«أن من له شكوى على خليفة أو آغا أو قائد أو شـيخ، فليرفعها إلى الديوان الأميري من غير واسطة. فإن الأمير ينصفه من ظالمه. وإن ظلم أحد، ولم يرفع ظلامته إلى الأمـير، فـلا يلومن إلا نفسه».

على الرغم من جهودي كلها، وقع كثيرٌ من الأذى الذي لم يكن في مستطاعي منعه، أولاً لأنني حين شكّلت حكـــومتي وسط حاجاتٍ لا تُحصى، لم أتمكّن من رفع مرتبات موظفيَّ إلى مستوى نفقاتهم الضرورية. وثانياً، لأنني لم أكن قادراً في لحظة معينة، على إجراء إصلاحـــات جذرية كتلـــك الـــتي كنـــتُ أنشدها.

ولغايتين، أولاهما فرض الهيبة على قبائل الصحراء المخرِّبة، وثانيتهما وضع مواردي في منأى عن ضرباتكم، كنت قـــد ابتنيتُ أو رمّمت، بنفقات كبيرة وبصعوبات جمّة على حدود التل، وراء المدن الواقعة خلف خط الإســتواء، عـــدداً مـــن الحصون التي سارعتم إلى تدميرها.

هكذا، كنتُ مقتنعاً وقد تجدَّدت الحرب، بأنني سأضـــطرّ للتخلّي لكم عن كل مدن خط الوسط؛ ولكن سيكون مـــن الصعب عليكم ولأمد طويل بلوغ الصحراء، لأن وسائل النقل التي تُعيق قواتكم قد تمنعكم من التقدم إلى العمق. وبـــرهن لي الماريشال بيجو على أنني كنتُ مخدوعاً، غير أنني كنت أجـــد أمامي تجارب سابقيه.

لكن، حتى مع نظام الماريشال بيجو، لو كان العرب قـــد أيّدوا اقتراحي بتدمير مدن المدية، مليانة، معسكر وتلمســـان، رأساً على عقب، أي تدمير درجات السلم التي سمحت لكـــم بالصعود إلى أعلى، لكنتم عانيتم من المصاعب التي لا يمكـــن تجاوزها تقريباً، والتي قد تحـــول دون وَصـــولكم إلى خـــطّ دفـــاعي الحقيقي. فكان هـــؤلاء يقولـــون إن الفرنســـيين

سيعيدون بسرعة بناء ما نكون قد دمّرناه؛ وكان أولئك يقولون إن ذلك سيكون عملاً سيئاً، إذ أننا لأجل حالة طارئة نقضي على ما كان قد كلف الكثير من العناء لبنائه. وكان الطرفان على خطأ؛ وربما كان ينبغي عليّ اتّباع إلهامي.

وكان ضمن مشاريعي، يجب أن تصبح تاغدمت مدينةً كبيرة، مركزاً يربط تجارة التلّ بتجارة الصحراء. وكانت هذه النقطة قد أعجبت العرب؛ فقدموا بسرور للإقامة فيها، لأنهم وجدوا فوائد جمّة. كما كانت شوكةً قد زرعتها في عين قبائل الصحراء المستقلة؛ فهي لم تعد قادرة على الفرار، ولا على إقلاق راحتي: لقد أمسكتُ بها من بطنها. وكانت تاغدمت [1] قد بُنيت على رؤوسها؛ فأدركت الأمر وسارعت إلى الخضوع.

وعليه، كنت أستطيع دوماً الانطلاق من هذه المدينة مع (القُوم) (الخيّالة غير النظامية) بغتةً ومهاجمة القبائل، وإذا لم أتمكّن من نزع خيامها، كنت على الأقل أستولي على قطعانها الكثيرة. وكانت بعض الأمثلة الصارخة التي طالت أبعد القبائل، قد جعلتها تفقد أي أمل بالإفلات من قبضتي؛ كما كانت قد آلت كلها إلى الاعتراف بسلطتي ودفع الزكاة [2]. حتى إنني كنتُ أرسل مَن يحصي قطعان القبائل، وكانت تُذعن.

ليس في الصحراء سوى أربع نقاط لم أبلغها، وهي: المزاب، ورُقَلَة، تغرت، وسُّوف. حتى أولاد سيدي شيخ[3] كانوا قد اعترفوا بي. صحيح أنني كنت قد منحتهم بعض الإمتيازات

وأنهم كانوا يدفعون ضريبةً مخفّضة؛ لكنهم كانوا يشكّلون قبيلة من المرابطين، وكان من واجبي أن أحميهم. وأما القُصور[4]، فكانت تدفع لي مبلغاً زهيداً؛ ولم أكن أطلب شيئاً منها، فكنت أبدو كأنني أمنُّ عليها بسبب فقرها. كنت سأنظر في طريقة التعامل معها في وقت لاحق.

فضلاً عن وحدات القبائل التي كانت تُستنفر لندائي، أو لصوت خلفائي، والتي كانت تشكل على هذا النحو قوة مساندة عظيمة، لكنها ظرفية، لأنني ما كنت أستطيع إبقاءها لأمد طويل بعيدة من قبائلها.

كان لديّ جيش نظامي من ثمانية آلاف رجل مشاة، وألفي فارس، ومائتي وأربعين رامياً مدفعياً. كنت أملك نحو عشرين قطعة قتالية، لا يدخل في عدادها عدد كبير جداً من مدافع الحديد أو البرونز، معظمها خارج الخدمة، وكانت من متروكات الأتراك.

وعليه، كان يمكنني أن أقدّم لكلّ من خلفائي: ألف رجل مشاة، ومائتي وخمسين فارساً، مدفعين أو ثلاثة مدافع وثلاثين رامياً [5]. كان يتم تجنيد جيش مُشاتي طوعياً؛ وكان عددهم كافياً، نظراً لما كان لديّ من مال وسلاح. ولو أتيحت لي الفرصة، كنت سأستعمل وسيلة مماثلة لتلك التي يستعملها الفرنسيون لتطويع الجنود. فديني لا يمنعني من ذلك، لأن السلطان يمكنه اللجوء إلى التجنيد، لإنقاذ بلده الذي غزاه المسيحيون، ولجعل رايته تنتصر.

كان مدرّبو مُشاتي من عسكر النظام [6] الآتين من مدينة تونس وطرابلس(ليبيا)، أو من الفارين من جيشكم، أكانوا مواطنين محليين أم أجانب.

وكنت قد وضعت لجيش المشاة نظاماً يحدّد تسلسل السلطة واللباس والرواتب والترقية والتغذية. وكان كافياً لحاجة المرحلة.

أمّا سلاح الفرسان النظاميين فلم يكن بحاجة إلى مدرّبين. إذ بالنسبة إلى هذا النوع الحربي، كان حبهم الذاتي يحول دون احتياجهم إلى مدرّبين. كانوا يدركون أنّهم لا ينفعون شيئاً في حالة الإلتحام؛ لكنهم كانوا يعتبرون أنفسهم بلا منازع في القتال الفردي وحرب الكمائن والمباغتة، وفي طريقة الإستطلاع. وكانوا لا يرون غضاضةً في الفرار، فهو عندهم مجرّد مناورة. وكنت قد علّمتهم مبدأ إيذاء العدو كثيراً دون إيذاء النفس.

كان كلّ رجالي النظاميين مزوّدين ببنادق فرنسية أو إنكليزية. وكنت أحصل عليها من الفارين من صفوفكم، ومن المعارك والسرقات أو من المشتريات في المغرب. فكان كل عربي مسلح ببندقية فرنسية مرغماً على التنازل لي عنها، مقابل 12 دورو (60 فرنكاً)؛ ومن ثم كان يستطيع أن يتزوّد بسلاحه من مكان آخر مثل الأسواق، أو كذلك عندما تصل قبائل الصحراء إلى التلّ، كانت تُغرِق البلد بأسلحة مستوردة من تونس، تغرت والمزاب أو فاس، عن طريق فغيغ (بلدة بجنوب شرق المغرب) أو أولاد سيدي الشيخ.

كنت أصنّع البارود في تلمسان ومعسكر ومليانة والمدية وتاغدمت، كما كنت أشتريه من المغرب، حيث كنت أتزوّد بحجارة البندقية التي كان البلد يفتقر إليها كثيراً. كان يصلني من عندكم الكبريت، ومن كل الجهات كنت أحصل على ملح البارود.

وخلال السلم، كانت مدنكم الساحلية تبيعني الرصاص؛ وكان المغرب يمدّني به؛ وأخيراً كنت أستخرجه من الجبال. لكن هذا كله كان يكلّفني كثيراً جداً؛ كما أنني ما كنت أعطي ذخائرالبايلك (المقاطعة) للعرب إلاّ نادراً؛ فقد تعوّدوا على تبذير البارود بلا طائل، خلال استعراضاتهم الإحتفالية في سباق الخيل؛ و لم أكن أستثني من هذا المبدأ سوى أولئك الذين كانوا يحاصرون مدنكم، أو أثناء القتال، عندما كنت أرى رجالي مفتقرين إلى الذخائر. عندها، يجري توزيعها ميدانياً.

في تلمسان، كنت قد أقمت مصنعاً للمدافع؛ وكان يديره إسباني هارب، جاءني من المغرب. و لم يُنتج إلا بعد الكثير من جهود كثيرة ومتاعب؛ لكنه انتج في آخر المطاف، وكان بإمكاني أن أحسنه في ما بعد. من جهة ثانية، كان لديّ مصنع حربي صغير في مليانة؛ كان يستخرج الحديد من منجم قمت باستغلاله في الضواحي.

كان يدير هذا المصنع الصغير وينظّمه عمال أوروبيون، كان ميلود بن عراش قد استقدمهم من فرنسا التي زارها بعد قليل من معاهدة التافنا، حين نقل هداياي إلى الملك. كان يجري في المصنع الصغير تصنيع السلاح الكامل.

أخيراً، كنت قد أقمتُ في مقرّ الحكومة كلٌ من خلفائي، خياطين ونجارين وسراجين، لكي يصنعوا الملابس اللازمة لقواتي، وتصليح الأسلحة والسروج. كنت قد وضعت عمالاً مماثلين في كثير من القبائل، حتى أجعلها في متناول كل حاجاتي.

ولمواجهة نفقات حكومتي، حيث كان ينبغي ابتكار كل شيء، لم أكن قادراً على تلبية إلا ما كان طارئاً جداً، وكان لابد لي من الضرائب.

أمرت خلفائي بالسهر شخصياً على كل ما كان يتعلّق بهذا الموضوع، ولهذا السبب كان عليهم في الأيام العادية أن يخرجوا مرتين في السنة؛ مرة في الربيع لجمع الزكاة؛ ومرة في الصيف بعد المواسم، لجمع (العُشُور-10/1).كان عليهم في أثناء تلك الجولات، أن يراقبوا إدارة الآغات، وأن يطلعوني على الشكاوى المرفوعة ضدهم، والسهر على إدارة أملاك (البايلك). وكان خلفائي يأخذون معهم كتيبة نظامية من خيّالتهم (الفرسان النظاميين)، ومدفعيتين وفرساناً غير نظاميين من المنطقة.

إن الشعب العربي مطبوع على هذا النحو، فقد كان سيرفض دفع الضريبة لو رآهم غير أقوياء. فكم من مرة عانيت فيها من صعوبات لجمع الضرائب، بعد كل فوز كنتم تحرزونه علي. "السلطان منشغل بالنصارى، وهو غير قادر على معاقبة ممانعتنا: لا تدفعوا، سنرى لاحقاً". صحيح أنني جعلتهم يدفعون لاحقاً، القديم والجديد، لكن ذلك لم يكن يصلحهم؛ فهم لا يرون أبداً إلا اللحظة الراهنة.

على الرغم مع ذلك، حين طالبت بالضرائب والغرامات، وهذا ما كان ضرورياً لتسيير البايلك، أردت قدر المستطاع أن أوفق بين مصالحهم ومصالح الدولة. وكنت قد أمرت خلفائي بأن يقبلوا في دفع الضرائب أو الغرامات، الحبوب والبغال والجمال وخاصة الخيول.

مع الخيول، كنت أزيد من حجم خيالتي. ومع الجمال والبغال، كنت أحصل على وسائل النقل. ومع الحبوب، كنتُ أغذّي قواتي أو أكوّن مخازني. وكانت الغزوات تُضيف إلى مواردي؛ فكنت أستخدمها عندما كانت القبائل التي لا تعترف بقوتي، تلجأ إلى السلاح لفضّ النزاعات التي كان يمكن نشوبها بينها. وكنت أريد أن أكون الحَكَم في هذه النزاعات، ولهذا كنت قد اعتمدتُ مبدأً يقول: لا يجوز إطلاق رصاصة واحدة دون إذني.

أما الخيول والبغال أو الجمال التي ما كنت أحتاج إليها فوراً، والتي يمكنها أن تنفعني في المستقبل، فكان يجري وضعها في رعاية بعض القبائل، تحت رقابة الوكلاء الذين كنت أعيّنهم. كان كل شيء منظماً بحيث يمكن تجنّب التبذير، ومكافأة الحرس على رعايتهم لأملاك الحكومة.

لقد أحسنت صنيعاً عندما توقّعت مفاجآت المستقبل، لأن عدد الخيل التي كان عليّ استبدالها في خيالتي النظامية، كان عدداً كبيراً. فكان كل فارس يستهلك سبعة أو ثمانية جياد، إما مقتولة أو خارج الخدمة. وليس نادراً أن نجد رجلاً قد استهلك ما بين إثني عشر وخمسة عشر جواداً. إن إبن يحيى،

هذا الرفيق الباسل الذي لم يعش ليشهد مأساتي، إذ قتـــل في آخر معركة خضتها مع المغاربة Marocains (ديسمبر 1847)، كان لديه ثمانية عشر جواداً قتيلاً. وكانت الأمور قد وصلت إلى حدّ أن كل فارس نظامي، يمضي ســـنة واحـــدة دون أن يُجرح أو أن يُقتل له جواد، يصبح قليل الشأن في نظر خيَّالتي.

قمت أيضاً، على قدر مستطاعي، باستبدال الجياد التي كان عرب (القوم) يفقدونها وهم يقاتلون. وعلـــى هـــذا النحـــو أعطيتهم أكثر من ستة آلاف جواد. لكنني في الأيام الأخيرة، حين صرت لا أستطيع أن أعطيهم جياداً، كنـــت أمـــنحهم مقابل جوادٍ واحد جَمَلَين أو ثلاثين خروفاً أو بغـــلاً جيـــداً. فكانوا يبيعون تلك البهائم، وكان الناتج يساعد الفارس على التزوّد بجواد جديد. لكن سرعان ما بات الوضع صعباً أكثر، إذ لم يعد في إمكاني أن أمدّهم بهذا التعويض.

وحتى أحيطك علماً دقيقاً باستهلاكي للجياد، فاعلم أنـــي قدمت في عام واحد خمسمائة جواد لـــ (غرابة) [7] وهـــران، ومثل هذا العدد تقريباً لقبيلة (الحجوط) في منطقـــة الجزائـــر العاصمة. لكن كم العدد الذي لم أستطع تبديلـــه، إمـــا لأن صاحب الجواد كان غنياً، وإما لأن الوسائل كانت تنقصني!

كما كانت القطعان الواردة من الزكاة تُوضـــع في رعايـــة القبائل، تحت إشراف القادة الذين كانوا مُلـــزمين برقابتـــها وبتعيين رعاة لها لتقودها إلى المراعي وتعتني بهـــا. وكانـــت تستخدم هذه القطعان في حكومة كل خليفـــة، لترويـــع المسافرين ومساندة الفقراء، ومساعدة (الطلبة) وتغذية جيشي، الذي كنت أمدّه باللحم مرتين في الأسبوع.

وكنت بهذه الوسائل قد بدأت بإرساء نظام شديد في إدارة مداخيل البايلك (المقاطعة)؛ لكن عندما تجدّدت الحرب، خُدعتُ فراحوا من كل حدب وصوب ينهبون الدولة، مستفيدين من انشغالاتي. أما الخليفتان اللذان تمكّنا من الحفاظ على الأمن في كل الأحوال، فهما البوحميدي وبن علال. فقد كانا مرهوبَيْن بسبب حزمهما.

لم تكن التدابير الإحترازية التي أشرتُ إليها، كافيةً لتأمين التغذية لجيشي في كل النقاط التي كانت ضرورات الحرب تستدعيها. وبما أني كنتُ لا أرغب في إرهاق السكان بتموينه وتجهيزه، لاسيما أن هذا الإنفاق الإضافي لم يكن في مقدورهم، فقد أعطيت الأوامر بإقامة سيلات (حفر) مطمورة في أرض كل قبيلة. هذه السيلات الموضوعة تحت تصرف قائد القبيلة، والمجهَّزة بطريقة تخفيها عن تنقيبات العدو، كان ينبغي لها أن تحتوي على الحبوب الواردة من العُشر، أو من أراضٍ عائدة إلى الدولة، كنت أستزرعها بطريقة (التويزة - السُّخرة)

على هذا النحو، أعطيتُ للعرب المتمرّدين دائماً، الدليل على أنني ما كنت أجبي شيئاً لحاجاتي الشخصية، من الضرائب التي كنت أُرغمهم على دفعها لأجل المصلحة العامة، فكانوا يدفعونها عن طيبة خاطر.

إن هذه المخازن هي التي أخّرت سقوطي، الذي حسمه إقدام أرتالكم على تدميرها، لأنني التجأتُ حين نفد التموين إلى موارد القبائل الخاصة. لقد حقدت القبائل عليكم كما حقدت عليّ، فلم تعد تُبدي الحماس نفسه في سبيل الجهاد. البطن، البطن هو الذي يُضيِّع الرجال!

أما أنا فهل كنتُ في حاجة إلى اللجوء لبيت المال (الخزينة) لأجل نفقاتي الشخصية ؟ أبداً، حتى اللحظة التي ظلّت فيها أملاكي في عهدة الفرنسيين (1841)، لم أتقاض ولو موزونة [8] واحدة مما كان يعطيني إياه العرب لأجل النفقات العامة، ومنذ ذلك الحين لم آخذ من بيت المال سوى ما كان ضرورياً لي بالضبط. فثيابي كانت نسائي تصنعها لي، وكذلك نساء خدمي. وكانت مداخيلي تفيد في رعاية جماعتي؛ حتى إن غذائي كان يأتي من أراضي عائلتي. وإضافة إلى ذلك، كانت أراضيّ تكفيني لمساعدة الفقراء والمسافرين، وخاصة رفقائي الذين كانوا قد جُرحوا في الجهاد.

حين تصرّفت على النحو هذا، أردت أن يصبح في إمكاني أن أطلب تضحيات كبرى من جانب العرب، لأنّي كنت أبيّن لهم أن الزكاة والعشر والغرامات، كانت تدفع كلها إلى الخزينة العامة، لإعالة قوّاتي وتسيير الحكم وشراء أسلحة. وفي سنة 1839 عندما تجدّدت الحربُ معكم، طلبت من القبائل معونة [9] كبيرة. وسرعان ما لاحظت أنها كانت ترِد ببطء؛ عندئذ بعت في الساحة العامة لـ معسكر كل مجوهرات عائلتي، معلناً أن ثمنها سيوضع في بيت المال. وعلى الفور قدّم العرب المعونة، وهم يتسابقون: مَن سيدفع حصته أولاً.

كنت قد أعددتُ وساماً من أجل إثارة الحمية في صفوف جيشي النظامي، ولكن بدلاً من تعليقه على الصدر، كان يُوضع على الرأس، بحيث يكون معلّقاً بواسطة علاّقة تدخل في حبل يربط (الحَايْك). هذا الوسام (شِية)، الذي كان شكله يتغيّر بتغيّر الرتبة، كان مؤلفاً من شارة ذهبية أو فضية، كتبت في وسط هذه الشارة (ناصر الدين) [10].

كان الوسام يمنح حامله بعض الإمتيازات: فالشخص الذي كان يناله حتى رتبة كبير الصف، يمكن أن يحظى من رؤسائه بمعاملة خاصة مع كل التبجيل، ويمكن له الدخول على كل رؤسائه، حتى عليّ أنا.

وكان الموظفون الذين لا ينتمون إلى الجيش، يحصلون أيضاً على هذا الوسام تقديراً لهم على تأدية خدمات إدارية كبيرة، وعلى حسن إدارة الأموال العامة. وحين رغبتُ في إدارة بلد مضطرب، كنت في حاجة إلى مكافأة العاملين في الإدارة. إذن كان الجميع يستطيعون الطموح إلى الوسام حتى الزنجي، شرط أن يكون حرّاً ومسلماً.

أخيراً وهبت حامل شّية (الوسام) مكافأة كبيرة. كل إصبع في الشّية، يؤدي إلى زيادة راتب حامله دوروا واحداً (5 فرنكات) سنوياً، لاشك أن ذلك كان قليلاً؛ لكنني اضطررت للإقلاع عن ذلك فيما بعد، عندما هبطت مواردي إلى أدنى مستوياتها. مع ذلك، وعلى قدر المستطاع، كنت أسدِّد المكافأة الرفيعة للجنود العاديين. أما الرؤساء فقد تخلّوا من تلقاء ذاتهم عما كان يعود لهم؛ إذ كانوا يعرفون حالتي!

كان واجبي كقائد وكمسلم، أن أرفع من شأن الدين والعلم. ولكي يتجدَّد الدين الذي كنا نستطيع به وحده أن نجاهد ضدكم، وينهض في كل مكان، في المدن كما في القبائل، كنت قد أنشأت المدارس، حيث يجري تعليم الأطفال صلواتهم وأولى وأهم تعاليم القرآن، وأخيراً القراءة والكتابة. وأولئك الذين كانوا يرغبون في المضي إلى أبعد من ذلك، أو

يستطيعون إكمال تعليمهم، كان يمكنهم الـذهاب إمـا إلى الزوايا[11] أو إلى الجوامع. حيث كان يُقيم الطلبة الذين كنت أخصّهم بمعونة صغيرة حسب استحقاقهم وعلمهم، نقـداً أو عَيْناً. كنت شديد الإحساس بأهمية حفاظنا على العلم، بحيث أقدمت مراراً على العفو عن طلبةٍ كانوا يستحقون الموت.

ففي بلدنا، يحتاج المرء إلى وقت طويل جداً لكي يصـبح عالماً، مما جعلني لا أتجرأ على إعدام ثمرة عمل طويل في يـوم واحد. في مستطاع ساكن (القصر) أن يقطع النخلـة الـتي تزعجه؛ لكن كم يجب عليه أن ينتظر من السنين قبل حصوله على منتوج الشجرة الصغيرة التي زرعها مكانها!

ولتسهيل دراسات الطلبة، كنت قد حرصت على صـيانة أعمال الماضي من كل دمار. ولقد قمت بذلك لغير سـبب، نظراً لأن الكتب عندنا نادرة وتستلزم عدة أشهر من العمـل لاستنساخ نسخة واحدة منها. وعليه، كنت قـد أمـرتُ في المدن كما في القبائل، بالسهر على المحافظة على المخطوطات؛ وكان يُعاقب كل عربي بشدة، لقيامـه بتوسـيخ أو تمزيـق كتاب عمداً.

حتى إن جنودي كانوا قد تعوّدوا على ذلك، بعدما علموا بشدة حرصي على الكتب، فراحوا يجلبون لي المخطوطات التي كانوا يستولون عليها خلال الغزوات، ولكي أُثير حماسـهم كنت أمنحهم إكرامية. ثم رحت أضـع الكتـب هـذه في مستودعات المساجد أو الزوايا، أو بين أيدي الطلبة العلمـاء الذين كنت أستطيع الوثوق بهم.

كنت أنوي أن أقيم في تاغدمت مكتبة كبيرة؛ لكن الله لم يمنحني الوقت لتحقيق ذلك. فالكتب التي كنت قد خصّصتها لتكوين بداية المكتبة، كانت لدي في (الزمالة)[12] (عاصمة الأمير المتنقلة) عندما استولى ابن الملك عليها. وكان ذلك وجع أُضيف إلى مواجعي الأخرى، وأنا أسير وراء رتلكم الذي سلك الطريق المؤدية إلى المدية، مقتفياً آثار الأوراق المُنتزعة من الكتب، التي كلفني جمعها عناءً شديداً.

وكالتعليم، نظّمت العدل في كل مكان. كان القضاة يتقاضون 10 دورو شهرياً (50 فرنكاً) وكانوا فوق ذلك ينعمون بنتاج بعض الأعمال. أردت أن يكون ممثلو العدل في كل مكان، وحتى أن يسيروا وراء جيشي وهو يزحف. فقد كان الأتراك يعدمون على الشبهة بفظاظة، ودائماً بلا محاكمة. أما أنا فقد أردتُ ألاّ يقع أي إعدام إلا بموجب حكم صادر بمقتضى شريعة الله، الذي أعتبر نفسي خليفة له.

وكذلك، كلما كانت تخرج الأرتال، كانت مصحوبة بقاضٍ وشاهدي عدل (مساعدين للقاضي)، وكان رئيس الشاوش[13] في كل الأرتال، هو من يتولّى تنفيذ الأحكام. وعندنا أن هذا العمل لا يُحاسب عليه، لأن الذي يقتل هو الشرع وليس المنفّذ. ومما لا شك فيه أنني أعدمتُ الكثير من الأفراد، لكنني لم أعدم أحداً منهم دون محاكمة. إذ كان الجميع قد ارتكبوا جرائم أو خانوا دينهم؛ فبحسب كتابنا المقدس، من يساعد العدو بماله يعاقب في ماله؛ ومن يساعده بذراعه يُقطع رأسه.

بفضل مراقبة خلفائي، فضلاً عن الآغوات والقادة، وبفضل المسؤولية التي كنتُ أحمّلها للقبائل على الجرائم أو السرقات المرتكبة في مجالهم، صارت الطرقات آمنةً. ولم تكن شرطة الأسواق تترك شيئاً بلا حساب. وبكلمة واحدة، فإنه يصعب التحكم والإمساك بشعب يعيش تحت الخيمة، ويقيم موزعا في مناطق واسعة. وهكذا توصّلت إلى حدّ الإقلاع عن إرباك الخيل ليلاً، وجعل المرأة قادرة على الخروج وحدها، دون الخوف من الشتيمة. وعندما كان يُشار إلى ذلك أو يُسأل عن السبب، كان العرب يردّون: إن عوائق خيول السلطان هاهنا، فلم نعد في حاجة إلى استعمال عوائق خيولنا.

كما كانت الأخلاق العامة قد استثارت إصلاحاتي. فتحسنت الآداب والعادات، وقُمعت الدعارة بشدة، ولو شاء اللّه، لكنت خلصت إلى وضع العرب على صراط القرآن الذي ابتعدوا عنه كثيراً.

بالنسبة للرجال، كنت قد حظرتُ استعمال الذهب والفضة مع الملابس، لأنني كنت أكره الزينة التي تُثير الأعصاب [14]. وكنت أتساهل فقط بالنسبة للسلاح وإسراج الرواحل: ألم يكن ينبغي تحبيب ما كان يجب أن يساهم في إنقاذنا! أما النساء فلم تكن مشمولة بهذا الحظر. فهذا الجنس الضعيف بحاجة إلى تعويض، بينما للرجل كل التسليات التي يمكنه أن يرغب فيها: الحرب، الصيد، أعمال العقل، الحكم، الدين، العلم.

فكنت أول مَن أعطى المَثَل حين تسترت برداء مماثل لثوب فرد، كان الأكثر تواضعا في جماعتي. إني إن كنت أتصرّف

على هذا النحو، فذلك ليس مؤكداً، خوفاً من التميّز، أمام رصاصاتكم أو قنابلكم؛ وإنما لأني كنت أريد أن أطلب من العرب ما كانوا يرونني أفعله شخصياً، وأن أُبيّن لهم أن من الأحسن، أمام الله أن يستعمل المرء كل موارده لشراء السلاح والذخائر والجياد لممارسة الحرب، بدلاً من التزين بزينات عابثة.

وكان الخمر واللعب ممنوعين منعاً باتاً، وكذلك كان الحال بالنسبة إلى التبغ؛ لا لأن التبغ محرّم بالضبط في ديننا، بل لأن جنودي كانوا فقراء، وكنت أرغب على هذا النحو، في حمايتهم من عادة قد تغدو أحياناً بالغة الشدة، إذ رأينا أناساً يتركون عائلتهم ترتع في البؤس، ويبيعون حتى ملابسهم لإشباع شهوتهم. كان التدخين مع ذلك موجوداً، لكنه كان قليلاً وفي الخفاء؛ وكان ذلك في حد ذاته كثيرا. أما المرابطون والطلبة وكل أولئك الذين كانوا يقبضون من الحكومة، فكانوا قد أقلعوا عنه كلياً. هذا من شأنه أن يبيّن لكم إلى أي حد كنت مُطاعاً!.

هذا ما كنت قد توصلت إلى تنظيمه، ونظراً إلى الوقت الذي كان قد أُتيح لي، كانت هذه الإصلاحات كبيرة، كانت تبين لي إلى أي حد كان يمكنني بلوغه في المستقبل».

هكذا تظهر لنا عبر هذه الرواية مزايا الأمير المُنَظِّم. فهذا الرجل الذي كان يبلغ ثلاثين عاماً سنة 1838، كان قد وُضع على رأس بلد تسوده الفوضى والنهب، حيث كانت التجارة مُدَمَّرة والآداب منحلّة والعدالة منعدمة، والقبائل تتحارب مع بعضها باستمرار.

إذن، في سن الثلاثين، كان قد نهض بالبلد، ونظّم أسس الدولة وتسييرها. وأخيراً، أنشأ جيشاً تطلب من فرنسا ثماني

سنوات (ابتداء من 1839، أي تجدد القتال بعد معاهدة التافنا) من الحرب المتواصلة ومئة ألف رجل للقضاء عليـــه. رجـــل حرب، رجل دولة، رجل قلم، فيلسوف، شـــاعر، ومـــنظّم موهوب، كان عبد القادر عبقرياً، وقـــد تـــرك بصـــماته في عصـــره.

1- يعني أن الصحراء لا تنتج ما يكفيها من الحبوب، فكان يتعيّن عليها أن تتموّن من التل، وكان عبد القادر يجوّع الصحراء، إذا شاء.
2- ضريبة.
3- أولاد سيدي شيخ: قبيلة صحراوية كثيرة العدد، مقيمة في جنـــوب ولاية وهران.
4- قصور: جمع قصر؛ قرية صحراوية محصّنة.
5- بفضل قواته النظامية (عساكر النظام)، التي كان القائد عبد الله قد أوحى له بفكرتها الأولى، والتي كان الجنرال دو ميشـــال قـــد ســـهّل تنظيمها، سيطر عبد القادر على الأرض العربية (الجزائـــر). و لم تكـــن القبائل قادرة على الصمود في وجه هذه القوات، المدعومة غالباً بـــــ (القوم) (القوات غير النظامية). وهكذا، عندما يعجز الإقناع، كـــان الأمير يستحوذ بالقوة، بفضل جيشه النظامي على جيش غير نظامي.
6- الغرابة: وصف المقيمين في الجانب الغربي، أي غرب مدينة وهران، في مقابل (الشراقة)، المقيمين في الجانب الشرقي
7- عساكر النظام: كلمة تركية تُستعمل للدلالة علي القوات النظامية.
8- الموزونة: أصغر عملة لدى العرب: تعادل سنتيماً تقريباً.
9- معونة: مساعدة، هي ضريبة استثنائية وآنية، تُجبى لغايةٍ دينية.
10- إليكم الشارات المميّزة لذلك الوسام: آغوات قادة خيّالة أو مشاة، شارة ذهبيّة، 8 أصابع ذهب؛ آغوات عاديون، شارة ذهبية، 7 أصـــابع ذهب؛ خوجا من ألف رجل، شارة ذهبية، 6 أصابع ذهـب. ســـيّافون (ضباط كبار)؛ شارة فضية، 5 أصابع، منها اثنتان فضـــيتان وثـــلاث أصابع ذهبية؛ خوجا من 100 رجل، شارة فضية، 5 أصابع، منها اثنتان ذهبيتان وثلاث أصابع من الفضّة؛ كبار الصفوف (قادة رتبة)؛ شـــارة

فضية،4 أصابع، منها إصبعان ذهبيتان وإصبعان فضيتان؛ كاخيا (ملازم)،3 أصابع، إصبع ذهبية وإصبعان فضيتان.

11- الزاوية: هي المنسك في العصر الوسيط؛ مكان للصلاة والدراسة والزكاة.

12- الزمالة: عاصمة الأمير المتنقلة، بعد سقوط واحتلال عاصمته (معسكر) وبعدها تاغدمت. تجمع بشري متحرك، خضع لنظام محكم، جمع أسرة الأمير وعائلات خلفائه وحلفائه والعاجزين عن القتال وبعض العلماء والمرابطين، فضلا عن العاملين في مختلف الإدارات والمؤسسات ومصانع السلاح والمخازن. أوكلت حراستها إلى ثلاثمائة جندي من قواته النظامية وأربع قبائل لحمايتها. كانت مصدر قلق دائم للفرنسيين الذين اعتبروها هدفا عسكريا أساسا.

13- الشاوش: كلمة تركية، عدول أو منفذ قضائي في تركيا وفي شمال أفريقيا.

14- ناصر الدين: هو اللقب الذي منح للأمير عند البيعة.

– ذات يوم حضر أمامه أخوه سي مصطفى، وهو يلبس برنساً مُزداناً بشرّابات ذهبية، فاقترب الأمير منه دون أن يتفوّه بكلمة، وقطعها بشفرة خنجر.

سياسة بيجو التوسّعيّة

كان عبد القادر يعلم أن الجيش الفرنسي سيهاجم. فصمّم على الإسراع في تنظيم المقاومة. أرسل رسلاً على عَجَل لاستدعاء قواته النظامية إليه، تلك القوات التي أنشأها بفارغ الصبر خلال الهدنة ما بين 1837 و1839، كما استنفر المقاتلين الذين تمدُّه القبائل بهم في فضاء معين.

ثم جمع خلفاءه في المدية وأعطاهم توجيهاته. فأمرهم أمراً مطلقاً بعدم مجابهة العدو بقوات مجمعة، إذ تتعرّض في هذه الحالة لخسائر فادحة، وأوصاهم بأن يقوموا فقط بمناوشات سريعة ودقيقة، وأن يقطعوا خطوط تراجع العدو ومواصلاته، وإنهاكه بالسير والسير المعاكس، بما من شأنه توفير فُرص لمهاجمته.

وبما أن الماريشال فالي Vallée قد استخلص العِبر من السياسة التي انتهجها كلوزال في معسكر وتلمسان، سياسة الإحتلال المؤقت والإنسحاب، فقد عزم على الدخول إلى المدن تدريجياً. وكان مثال ذلك احتلال سطيف وقالمة بعد احتلال مدينة قسنطينة. فهاجم جيشه شرشال على مقربة من مدينة الجزائر؛ ومن هناك أخذ يهدِّد مليانة. على هذا النحو أرغم الأمير على تشتيت قواته، وأفسح مجالاً ضرورياً أمام الرتل الذي كان يسير إلى المدية.

أخلى عبد القادر المدينة، ولم يترك سوى الأسوار التي كان يأمل من خلالها أن يفرض عما قريب حصاراً على القوات المهاجمة، وأن يجوّعها.

بعد عودة الماريشال إلى البليدة، انقضّ على مليانة التي أُخليت أيضاً، إذ أن الأمير أمر بإحراق المدينة. عندئذ بدأت سلسلة مصاعب تموينية تواجه الجيش الفرنسي، لأن قوات عبد القادر حين كانت تشنُّ هجمات سريعة، إنما كانت تُحاصر الحاميات. فكانت قبائل الحجوط من جهة، وفرسان بن سالم من جهة ثانية، تعبر متيجة وتقطع مؤخرات العدو، فتعيد الثقة إلى القبائل التي كانت تعاني من مغبة وجود الجيش الفرنسي.

شهدت مرحلة 1840 ومطلع 1841 معارك متواترة، عنيفة وقاتلة لكلا الطرفين. وكان الجنرالات الشبان الذين ينوبون الماريشال في حملته، قد اعتادوا على هذا الشكل الحربي الذي فرضه الأمير، القائم على مناوشات مفاجئة وحصارات تموينية.

ولئن كانت سياسة الإحتلال العسكري قد بدت خلال هذه المرحلة، أنها لاتزال مترددة ومحصورة في ضواحي مدينة الجزائر، فذلك لأن حكومة باريس، على الرغم من حيازتها أكثرية كافية في المجلس، لم تكن طليقة اليدين تماماً.

ففي الواقع كانت فرنسا معزولة على المستوى الدولي. ذلك أن مؤتمر لندن المنعقد في 15 جويلية 1840، بمشاركة إنكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا، كان قد وقع معاهدة لندن (الأمر الذي أدّى إلى استقالة ثيرس Theirs)، التي كانت تحظر على محمد علي ملك مصر (تولّى الحكم في 1805 حتى وفاته في 1849)، كل تواصل بحري مع سورية، وكانت تضع مضائق البوسفور والدردنيل في منأى عن كل هجوم، حامية بذلك

الباب العالي. فكان الخاسران: مصر وفرنسا، فيما كان كل سفراء فرنسا حازمين متشددين ضدّ مصر، وكانوا ينادون بسياسة مؤيدة للعثمانيين.

إذن، كانت فرنسا حليفة لمصر. ففي سنة 1831 غزا الملك محمد علي بلاد الشام، بفضل العبقرية العسكرية لابنه إبراهيم باشا، وخاصة بفضل جيش حديث، كوّنه العقيد دوسي (سليمان باشا) على الطريقة الفرنسية. لقد بقيت ذكرى من هذه الصداقة بين البلدين: مسلّة الأُقْصُر التي قدّمها محمد علي بسخاءٍ إلى لويس فيليب في سنة 1831 بالذات؛ وهي لاتزال منتصبةً اليوم في ساحة الكونكورد الرائعة.

ولكسر العزلة الدبلوماسية، عزم لويس فيليب على إعطاء الأمم الأوروبية صورة برّاقة عن عظمة فرنسا، وعن الإلتفاف الوطني حول الملك. فقرّر نقل رُفات بونابرت من جزيرة القديسة هيلانة إلى باريس. وبسرعة ضمّ إليه البونابرتيين التوّاقين إلى عصر نابوليون الأول المجيد.

بعد وفاة نابليون الأول سنة 1821، كان فيكتور هوغو قد توقّع الحَدَث بشكل ما. وعلى كل حال، كان قد تمنّى حدوثه:

« نمْ، فربما سيأتي يوم نبحث فيه عنك لأننا سلمناك للّه، دون أن يكون لك سيّد».

هكذا استجاب لأمنية بونابرت الأخيرة، الذي كان قد كتب: «أتمنى أن ترقد رفاتي عند ضفاف السين بالقرب من الشعب الفرنسي الذي أحببته كثيراً».

أثارت تلك المآتمُ الجليلة حماس الفرنسيين، المتـأثرين من توجيه تحية أخيرة إلى ذلك الذي زلزل أوروبا، وكلّل بالمجد فرنسا وجيشها. وحين صار فيكتور هوغو خطيباً رسمياً، صاح بأعلى صوته:

آه أيها اليوم الجليدي، أيتها الشمس النقية!

دُمْ شعلةً في تاريخ النصر الجنائزي،

يحفظها هذا الشعب في ذاكرته إلى الأبد

يوماً جميلاً كالمجد، بارداً كالقبر!» [1].

بعد الخروج القوي والمُنظَّم من تلك الأزمة القومية الكبيرة، أي منذ مطلع 1841، استنفرت فرنسا دبلوماسيتها بقوة للخروج من العزلة الدولية. فتجدّدت العلاقات مع القوى العظمى، التي انتهت إلى المصالحة الأوروبية وعودة فرنسا إلى المسرح الدولي؛ وتكلّل ذلك كله بتوقيع إتفاقية المضائق (البوسفور والدردنيل) في لندن، يوم 1841/07/13. وفي هذه المرة كان محمد علي باشا الخاسر الوحيد.

وعندما نزل بيجو في ميناء الجزائر يوم 1841/02/22، لتولّي مهامه كحاكم عام، إنما قام بذلك، بصفته ممثلاً لأمة متصالحة مع أوروبا، وتتعامل معها معاملة الندّ للندّ.

رُفع عدد الجيش الفرنسي إلى خمسة وثمانين ألف رجل. وكان الرجل الذي وقّع معاهدة التافنا قد عاد إلى الجزائر، وهو مكلّف بمهمة القضاء على عبد القادر. ذاك أن فرنسا الحرة في تحركها هذا، قد سارت على نهج سياسة الإستعمار.

وهي لم تنتهجها في الجزائر فحسب، فقد وُضعت ملكة تاهيتي بوماريه الرابعة تحت الحماية الفرنسية سنة 1842.

لما علم عبد القادر بنزول قوات جديدة في مدينة الجزائــر، دعا إلى نوع من التعبئة الشعبية. فناشد الأمير رجال الـذين الأكثر نفــوذاً، لكي ينتشرون في مناطق نفوذهم ويدعــون إلى السلاح.

كان الخطاب يدعو كل رجل قادر على القتال، كل رجل يملك بندقية أو جواداً أن يضع نفسه تحت لواء عبد القــادر. وكان المقتدرون مدعوّين إلى المجاهدة بمالهم أو بشراء البارود. كان المرسلون يقولون: «لقد كان البلد في خطر. فإذا لم نقف جميعنا وقفة رجلٍ واحد في مواجهة العدو المهــدِّد، فســوف تُحرق المحاصيل وتضيع المواشي وتتحوّل الجوامع إلى كنائس».

كان الجنرال قد عقد العزم على الإستناد، بادئ الأمر، إلى المدية ومليانة اللتين كانتا في حراسة الحاميات، لا للدفاع عن الأسوار فحسب، بل أيضاً للتمكن من الدعم بقوات كافيـــة، وإقلاق القبائل الواقعة تحت مرمى البنادق، وضمّها إلى العلـــم الفرنسي من خلال استعراض القوة.

وكان لديه كوكبة من الجنرالات المفعمين بالصرامة والعزم: بليسيه Pelissier ماك ماهون Mac Mahon، راندون Randon، كونروبــر Conrobert، بــدو Bedeau، كافينياك Cavaignac، مونتابان Montauban، جيري Géry، شانغارنييه Changarnier ودو لاموريسيير De Lamoricière.

وكان بعضهم قد تميَّز ليس بالأفعال البرّاقة كما يحدث للجنرالات خلال أدوارهم العسكرية فحسب، بل أيضاً يا للأسف، بأعمال همجية ومرعبة [2].

لم يكن بيجو قد غطّى جرائم جنرالاته لدى كافة المسؤولين بمختلف درجاتهم فحسب، بل كان قد أمر أيضاً بارتكابها: «إذا فرَّ هؤلاء الأوغاد إلى مغاورهم وكهوفهم، قلّدوا ما قام به كافينياك في سبية؛ أحرقوهم بشدة كالثعالب».

مما قاد بليسييه إلى أن يكتب لسانت آرنو Saint Arnault، وكأنه يفاخره بمآثر المجازر البشرية، أو كأنه يتبادل معه التجارب الجنائزية المرعبة: «كان لديّ من الحطب ما يكفي لإشعال كل المخارج، قمت بمحاولة أخيرة، فأرسلت إلى المغاور شخصاً يدعى ولد رياح، مكث هناك ساعة وربع الساعة، وعاد معلناً لي أن فوضى عارمة وعناداً شديداً يسودان في الكهوف، لكن أحداً لا يرضى الخروج قبل انسحاب معسكري. بعد هذا الإعلان جرى الإشعال حولهم من كل الجهات، واستمرت النار حتى طلوع النهار».

كان الفقراء المساكين قد قضوا مُتفحمين بالعشرات، بالمئات إلى جانب ماشيتهم. وكان واصفو المشهد الهمجي الذي يفوق الخيال، قد وجدوا مع ذلك الكلمات لوصفه، كما لو كان الأمر متعلقاً بلوحة صيد رائعة: « أكثر من خمسمائة قضوا حتفهم في تلافيف الكهف ومختلف تضاريسه، فكان المشهد مرعباً ».

لكن وُجدت أصوات في فرنسا، كما يمكن أن تُوجد في أماكن أخرى، نددت وسط الفظاعات الهمجية بالجريمة من أعلى منبر الجمعية الوطنية. و لم يؤد استنكار أولئك الخطباء الشجعان إلى العقاب أو مجرد محاسبة مجرمي الحرب. لكنهم مع ذلك تمكّنوا من أن يبيّنوا للرأي العام مدى الفظاعات التي ارتكبها غزاة دمويون. فكان الأمير دو لا موسكوفا De la Moskova، ابن الماريشال الشهير ني Ney، قد صاح في مجلس الأعيان (اللوردات): «هناك عقيد فرنسي يمكن اعتباره متهماً بعمل فظيع لا يمكن تفسيره، لا يمكن وصفه، بحق أسرى من العرب المساكين. ولقد طلبت من الحكومة توضيحاً حول هذه الواقعة...، فمن شرف الجيش ومن كرامة الحكومة أيضا، أن يجري تكذيب وقائع كهذه، أو التنديد بها علناً من جانب السيد وزير الحربية».

انطلق بيجو إلى منطقة وهران، جمع جحافله في مستغانم وزحف على تاغدمت عاصمة عبد القادر الجديدة، بعد أن دمرت معسكر وطرد سكانها، والتي كان عبد القادر قد أقام فيها مصنعاً حربياً لتصنيع البارود. أما الجنرال باراغيي ديليي Baraguey d'Hillier فقد تلقى من جانبه أمر بيجو بتدمير المصنع الحربي الآخر للأمير، مصنع (بوغار) الواقع جنوب مدينة الجزائر. ثم سار الحاكم العام الى معسكر االتي هجرها أيضا سكانها.

وأمام هذه الأرتال التي تمتد على مدِّ النظر، وهي مسلحة بقوة ومسبوقة بغطاء المدافع، لم يكن في مستطاع قوات الأمير النظامية و(القوم) (القوات غير النظامية) القيام بشيء آخر

سوى المناوشات والهجمات المحدودة الفعالية. لكن ما إن كانت الجحافل الفرنسية تُغادر مكاناً، بعدما كانت قد وثقت آنياً بولاء قبائله، حتى كانت (القوم) تهبُّ لإعادة الوضع إلى ما كان عليه، وتعبئة الأهالي مجدداً للإلتحاق بالجهاد.

ظل عبد القادر واثقاً من قدرته على متابعة القتال، قتال القبائل طوعا أو عنوة لمواصلة الضغط على الخصم. أما أولئك الذين كانوا يتخوّفون من أعمال الجيش الفرنسي الإنتقامية، فكانوا يعلنون خضوعهم اللفظي غالباً بلا قناعة، مما كان يعرِّضهم للثأر الشعبي، خاصة من النساء اللاتي كنّ يصفنهم بالجبناء الضعفاء والحقيرين.

ولتبيان أنه لم يفقد شيئاً من رباطة جأشه ومن عزمه وقدرته على الإيذاء، كتب عبد القادر إلى بيجو رسالة يُندِّد فيها بالمشروع الكولونيالي، ويوجه التهديدات: « أما بعد، فإن كانت دولة فرنسا، ليس عندها من الأرض ما يكفي رعاياها، وأرسلتكم لتغتصبوا أراضينا، وتبذلوا في ذلك نفوسكم وأموالكم، فنحن نتخلى لها عما يبدو في أيديها الآن من السواحل، ونبقى معها في حال جيران، ينتفع بعضهم من بعض. وإن أبت إلا أن تستولي على جميع وطننا، فنحن نبذل وسعنا في مدافعتها، وحماية أرضنا منها، إلى أن يقضي الله بيننا وبينها بما شاء.

فإن البلاد بلاده والعبيد عبيده، ولا يخفى عليكم أيها الحاكم أن مهاجمتكم بلادنا، كما أنها سبب لإتلاف الكثير من جنودكم وذخائركم، فكذلك نحن...، ودولتكم تدعي أنها

أول دولة في العالم تحب الإنصاف وتستعمله، وتحافظ على ميزان العدل وتحكم به، ففعلها هذا يكذب دعواها ويبطل مدعاها. وأنتم وغيركم من رجالها، نراكم دائما تساعدونها على الإعتداء والإغتصاب، وتبذلون أنفسكم في ذلك ابتغاء مرضاتها. ولو كان عندكم أدنى نظر سديد، ما وافقتموها على إتلاف جنودها في الحرب ومواسم الأمراض المختلفة، التي لا تذر ولا تبقي.

فيا هل ترى، بأي شيء تعوضون ما تخسره بلادكم من الرجال والأموال؟ فإن كان يرضيها منكم، أن تحملوا لها ما تقدرون من حجارة مدينة معسكر أو من تراب الأرض التي اغتصبتموها، فافعلوا. وإني أراك أيها الحاكم تبذل جهدك في تعطيل مواسمنا، لتقل الحبوب عندنا، ظنا منكم أن ذلك أقوى سبب لخضوع أهل البلاد إليكم.

والحال أن هذا ليس بشيء عندهم، فإن هممهم ليست متعلقة بلذائذ الأطعمة والأشربة مثلكم، بل يكفيهم ما يسدون به رمقهم ويقيم أودهم كيفما كان. على أنه يوجد عندهم من صنوف الحبوب المحفوظة في الآبار المعدة لها، ما يكفيهم سبع سنين آتية، وما تأخذونه أنتم من ذلك، فهو جزء من جملة أجزاء. ولا أراكم في هذا الأمر إلا كمن ملأ قدحه من البحر، معتقدا أنه ينقصه.

وبالجملة، فنحن لا نترك قتالكم ما دمتم في طغيانكم تعمهون، وفي سبيل اعتدائكم تمشون. والحروب قد تربينا عليها وتغذينا بلبانها، فنحن أهلها من المهد إلى اللحد ».

كان الرجلان يعرفان بعضهما حق المعرفة، وكانت كل كلمة بقلم عبد القادر، تأخذ معنى عند بيجو. لكن الحاكم العام حين تظاهر بتجاهل الأمير، لم يرد عليه؛ أو بالأحرى ردَّ بعزم متزايد على محاربته. فأطلق رتلاً إلى معسكر، ثم زحف على سعيدة، آخر موقع محصّن قام بتدميره. وعلى التوّ، ظنّ أن الأمير بات على مقربة منه أو إلى جانبه؛ لكن هذا فرَّ منه، معدِّلاً مسيرته فجأة.

لم يعرف الجنرال ماذا صار أمره، إلا عندما تعلّم الغزو الذي باشره ضد قبائل الدوائر، الموصوفة بالذكاء مع العدو، والواقعة على بعد ثلاثين فرسخاً تقريبا من أسوار وهران. حتى هذا الحين، كانت الأعمال العسكرية تنطلق من الساحل، من مستغانم أو وهران، فنقل بيجو القيادة العامة من وهران إلى معسكر، وهي نقطة ثابتة داخل البلد حيث يستطيع الإنتشار بفعالية أشدّ.

أما الجنرال بِدو Bedeau المعيّن قائداً على تلمسان التي حاصرها، فقد توصَّل إلى إكراه قبائل جبال ندرومة على الإنفصال عن عبد القادر؛ لكن حين علم الأمير بالحدث، سارع وشنَّ معركة حامية، غُلب فيها. فانكفأ إلى قبيلة هاشم وقادها معه في اتجاه المنطقة الصحراوية لتجديد قواته.

حين طوَّق منطقة وهران، وبعدما ثبَّت قواتٍ مهمة في وهران، مستغانم، تلمسان، معسكر، سعيدة، استدار بيجو نحو الشرق وصمَّم على إطلاق ثلاثة أرتال في اتجاهات مختلفة. تقدم الرتل الأول بقيادة الحاكم شخصياً عبر وادي الشلف،

واجتازه من أقصاه إلى أقصاه، حتى يلتقي أخيراً مع الرتل الثاني، المنطلق من البليدة بقيادة الجنرال شانغارنييه؛ والرتل الثالث بقيادة الجنرال دو لامورسيير، كانت مهمته دفع عبد القادر صوب الجنوب، لقطعه عن القبائل التي سيقوم الجنرالان الآخران بمحاربتها.

كانت المعارك التالية غالبا لصالح القوات الفرنسية، وكان ثمة بعض الإذعانات الآنية. وكانت مهمة دو لامورسيير إطلاق سهم في اتجاه الجنوب، لمطاردة القبائل التي كانت قد تبنّت قضية الأمير؛ لكنه توقف فجأة وعاد على عقبيه، عندما علم أن عبد القادر السريع كالبرق، كان على مقربة من معسكر، عازماً على معاقبة القبائل التي كانت قد رضخت لفرنسا.

انطلق دو لامورسيير في أثره؛ لكن الأمير فرَّ مجدداً، ومرّ من وراء الرتل الذي كان يبحث عنه، ومضى لإحراق مدينة البرج. ثم اجتاز بجسارة لا يستطيعها سواه وادي الشلف بين رتل بيجو والبحر، ومضى لمعاقبة القبائل في جنوب مليانة، القبائل التي كانت منذ بضعة أيام قد تخلت عن قضيته، لكي تنسحب من ثمّ نحو الجنوب قبل ظهوره مجدداً.

لا ريب أن الجيش الفرنسي سجَّل بعض النجاحات؛ لكنه كان عاجزاً عن توفير أمن القبائل التي رضخت له، فكان يتدبر انتصاراته العابرة بشعور العجز. فهو بعدما تلقّى هنا وهناك يمين الولاء من القبائل، رآها في الغد تصطفّ تحت لواء عبد القادر، كلما كان يعاود ظهوره، ليجد نفسه بدوره، مكرهاً

على معاقبة هذه القبائل نفسها التي كانت قبل عدة أشهر قد رضخت له.

حول هذه المسألة بالذات، عبّر الماريشال المخيف بليسيه على هذا النحو: «نريد أن نحمي حلفاءنا والمواقع؛ غير أن المسافات تجعل كل حماية بالغة الصعوبة مع أعداء هم أفضل تزوّداً منّا وأخف وأسرع، يقطعون عشرين فرسخاً في ليلة واحدة، فينقضّون على طريدتهم ويصطادونها. وعندما نعلم بأمرهم، يكونون قد عادوا إلى مواقعهم؛ ويكون الأذى قد وقع، الأذى العميق الذي يصعب شفاؤه. فالترميم باهظ جداً بالنسبة إلينا، ووهمي بالنسبة إلى الضحايا التي تنادينا: إحمونا إذاً! لقد أخذوا منا نساءنا، أطفالنا، قطعاننا؛ لقد استسلمنا لكم، فأعيدوا لنا أملاكنا».

وهناك عبد القادر، الذي يجعلهم يقولون: «نساؤكم وأطفالكم وقطعانكم عندي؛ أتركوا الفرنسيين، عودوا إليّ، فأعفو وأُعيد كل شيء. هذه هي حرب إفريقيا! كلّ يتعصّب بدوره، وهكذا تتحول إلى حرب إبادة».

لقد كانت محاولات الإبادة بالغة الشدة، لدرجة أن القبائل التي رضخت في ذلك العام 1843 قد انتفضت على فرنسا. فما كاد الحاكم العام يعود إلى مدينة الجزائر، متغنيا بنجاحات حملته مقابل الكثير من المعارك التي شنّها، والخسائر في الرجال والإرهاق، حتى ظهر الأمير مجدداً في وادي الشلف، مع خليفتيه بن علال وبركاني، الأول رجل حرب بارز، والثاني زعيم نافذ ومسموع الكلمة في منطقة القبائل في غرب مدينة الجزائر.

وبتحريض منهما، تنامت الإنتفاضة مثل سحابة غبار. فاضطر الجنرال شانغارنييه إلى الإنسحاب أمامها لحماية المتيجة المهدَّدة. وقد دلت هذه الإنتفاضة أنه ليس كافيا احتلال مليانة والمدية وشرشال لإعلان النصر، كما أوحت للحاكم بضرورة احتلال موقع مركزي للتمكن من احتواء القبائل المناوئة، من جهة، وإغلاق حدود الجنوب، من جهة ثانية. فانصبَّ الإختيار على إنشاء معسكر متين ومحصَّن في أورليانفيل (ville Orléans) (مدينة الأصنام سابقا، الشلف حاضرا)، المسمّاة باسم الدوق أورليان، ابن الملك القتيل في حادث باريس. وبعده سيتم إنشاء معسكر آخر في تيارت.

وبينما كان بيجو يعمل في وادي الشلف على توطيد سلطة فرنسا، كان ابن الملك الدوق دومال Duc d'Aumale، الذي تولّى قيادة المدية، يزحف برتله إلى الجنوب، بحثاً عن زمالة عبد القادر، التي أُعلم بوجودها.

كان ابن الملك قد حدَّد لنفسه كهدف، تحقيق عمل مميز من شأنه أن ينعكس إيجابياً على نفوذ العائلة المالكة. وسوف تسنح له الفرصة ما دام لون برانس السباهيين Spahis [3] القرمزي سيكون بمثابة ضربة حظ عابرة، فيخدع حذر الحرس النظاميين للأمير. إن هذا العمل العسكري الذي سدَّد ضربة قاسية لقوة عبد القادر، قد أثّر تأثيراً شديداً في مجرى الأحداث.

لكن، لندع الأمير نفسه يروي للجنرال دوما كيف أُخذت الزمالة، وما هي العواقب التي كانت تمثّلها بالنسبة إليه [4]:

«عندما هُوجمت زمالتي [5] من طرف الدوق دومال، لم أكن أقدِّر بأقل من ستين ألف نفس عدد سكانها؛ و لم يؤخذ منها سوى عُشرها. كانت معي القبائل المنتظمة برمتها، قبائل هاشم، بني مدين، أولاد شريف، أولاد الأكرود، بني لنت، بني مايدة، أولاد خليف، الحلوية. وفوق ذلك، أطراف من كل القبائل تقريباً التي كانت قد رضخت لكم. هذه الأطراف كانت مكوَّنة من مرابطين وطلبة وزعماء. أي الذين ما كانوا يريدون العيش تحت سلطتكم. لقد كانت أطرافاً ضرورية جداً بالنسبة إليّ، لأنها كانت نافذة في بلدانها، حيث كانت قد احتفظت بعلاقات معها، وكانت تعلمني بتحرّكاتكم.

هذا العالم كان ممتداً من تاغوين حتى جبل عامور. فعندما يضيّع عربي فيه عائلته، كان يلزمه أحياناً يومين لإيجادها، وإذا ظهر قطيع غزلان في طريقه، كان يُقتل دونما حاجة إلى إطلاق رصاصة بندقية، وذلك فقط بعصي رجال (القوم). فهناك حيث كنا نُعسكر، كنا نُجفّف السواقي والآبار والمستنقعات. كما أنني أنشأت باعتناء جهازاً لاستكشاف المياه ولمنع القطعان من توسيخه أو تبديده. على الرغم من هذه الإحتياطات، قضى كثير من الناس ظمأً.

كانت زمالتي تضمّ السلاحيين والسرّاجين والخياطين وكل العمال الضروريين لتنظيمنا؛ وكانت تُقام فيها سوق عريضة يتوافد العرب إليها من محيط التل. وأما الحبوب، فإما أنها كانت تُحمل إلينا، وإما أننا كنا نمضي بأنفسنا للتزوّد بها لدى قبائل الشمال.

كان ترتيب معسكر القبائل منظماً تماماً. وعندما كنت أنصب خيمتي، كان كل شخص يعلم الموضع الذي كان عليه شغله. كان حولي، حول أسرتي وخزينتي الصغيرة دائما حوالي ثلاثمائة إلى أربعمائة فارس نظامي، خيالتي، ثم آل هاشم من غريس، الذين كانوا موالين لي أكثر من الآخرين كلهم.

إنك ترى من خلال ذلك، أنه لم يكن سهلاً الوصول إليّ؛ لم اتخذ هذه الإحتياطات لشعور بالخوف، بل لأني كنت أشعر أنني كنت الذراع التي ترفع لواءها.

وبدلاً من البقاء في محيط الزمالة، كنت قد عوّدت جماعتي عادةً حسنة، وهي أني كنت أمضي بنفسي إليكم. فكنت أجدني شخصياً من جهة تاغدمت، مراقباً كتيبة وهران التي كانت في الجوار، والتي كنت أظنّ أن عليّ أن أرهب جانبها أكثر من سواها. وكان معي ألف وخمسمائة أو ألف وستمائة فارس؛ وكان بلخروبي عند آل فليتاح، وبن علال في الونشريس، ومصطفى بن التهامي لدى بني أوراغ. لكنني لم أظن أنه كان عليّ الحذر من جهة المدية، ولم يكن أي من خلفائي يراقب ابن الملك.

على الرغم من ذلك كله، ما كنا لنفاجأ لو لم يكن اللّه قد أعمى بصيرة جماعتي. لكننا حين رأينا قدوم سباهيّكم(6) مع برانيسهم الحمراء، ساد الظن لدى الزمالة أنهم كانوا من خيالتي الراجعين معي. فأطلقت النساء الزغاريد لاستقبالكم؛ ولم يتوقفن عن ذلك إلا عندما انطلقت الطلقات النارية الأولى. عندئذ وقع ارتباك لا يوصف، أطاح بكل الجهود التي بذلها أولئك الذين أرادوا الدفاع عن أنفسهم.

ولو أنني كنت هناك، لقاتلنا دفاعاً عن نسائنا، عن أطفالنا، ولكنتم رأيتم بلا ريب يوماً كـبيراً. لكنما اللّـه لم يشـأ ذلك؛ فلم أعلم بهذه المـأساة إلا بعد ثلاثـة أيـام؛ وكـان الأوان قد فات كثيراً !».

فقدَ عبد القادر رجالاً وأسلحة وذخائر. وكان ذلك كلـه قابلاً للتعويض. لكنه شعر بحزن عميق لفقدان مكتبته الغنيـة. فلقد كانت تحتوي على وثائق بالفرنسية، مثل مناقشات مجلس النواب حول الوضع في الجزائر، وملاحظات النواب حـول السياسة المنتهجة أو الواجب انتـهاجها، وتصـريحات وزراء الخارجية أو الحربية، وبعض مقتطفات مـن تقـارير ظرفيـة للحكام العامين أو للقيادة العسكرية في الجزائر.

هكذا كان عبد القادر يعرف الكثير عن السياسة الفرنسية. وإذ كان يملك مثل تلك الوثائق، يعني أنه كان قد نظّم شبكة إعلامية في فرنسا ذاتها، دون أن تؤخذ في الحسبان المقتطفات الصحفية المحفوظة باعتناء، كتلك التي تـروي بكـثير مـن التفاصيل، عودة رفات بونابرت.

منذ الإستيلاء على الزمالة يوم 16 مـاي 1843، أخـذت مختلف الأرتال تحت قيادات متعاقبة، للجنرالات بيجـو، دو لاموريسير، بدو، بورجولي Bourjolly، والعقيدين يوسـف وجيري، تمشّط البلاد بحثاً عن الأمير. وكان الأمير الذي يفتقر إلى القمح والذخائر، والذي منعه مطاردوه مـن العـودة إلى التلّ، قد صمّم على الإقتراب من الحدود المغربية مع زمالتـه،

حتى يضعها في منأى آمن، ولكي يعود محاولاً مع قومه تسديد ضربة كبرى، وتحويل الأرتال عن أهدافها.

لتحقيق هذا المشروع، استدعى خليفته بن علال ليضاعف قواته. فهذا الذي كان دُفع منذ وقت ما خارج منطقة (جبال) الونشريس، هرع على الفور نحو الأمير مع كتيبته النظامية، لكن مسيرته كان قد رصدها العقيد تامپور Tempoure الذي كان يراقب تحركاتهم. قضى أربعمائة رجل في معركة من أشد المعارك ضراوةً، وتم أسر الباقين.

كان ذلك يوم 11 نوفمبر 1843، وكان بن علال قد تمكن من النجاة من المذبحة. لكن ثلاثة فرسان طاردوه. فقاوم هجماتهم بيأس، وأُصيب وقُتل في آخر المطاف. وقع الخبر على عبد القادر وقوع الصاعقة؛ إذ فقد أشجع قادته، ذلك الذي كان يجسّد البسالة والولاء معاً. وكانت عاقبة هذه الخسارة انهزام عدة قبائل كانت حتى ذلك الحين منضوية تحت رايته. حين أُصيب عبد القادر بشلل آني، ورأى جحافله مبدَّدة، والقبائل تذعن بسبب افتقارها إلى السلاح، صمّم على الإلتحاق بزمالته، وأن يختار معها مكاناً للتراجع في المغرب Maroc، لكي يجدِّد هناك بناء قوته التدخلية، ويحاول خوض معارك جديدة.

1- لم تنقل الرُّفات إلى الأنفاليد Invalides إلاّ يوم 1861/04/02، في عهد حفيده الإمبراطور نابوليون الثالث.

2- تمتليء وثائق المحفوظات (الأرشيف) بأوصاف مدافن عِظام مرعبة

ومجازر غير إنسانية، مثل أعمال الشهيرَيْن پليسييه وسانت آرتو، اللذين صارا بكل أسى مشهورين بتنظيم محارق، بواسطة حُزَم الأغصان التي تُغيِّبُ في المغاور، وبلا تمييز بين البشر والماشية، ثم تسدُّ المنافذ عليهم بعد إضرام النار فيها.

3- السبَّاهي: فارس جزائري في الجيش الفرنسي سابقا أثناء الإحتلال.

4- ملاحظات الجنرال دوما خلال مهمته لدى الأمير في طولون.

5- زمالة: عاصمة الأمير المتنقلة.

6- لباس السبَّاهي مماثل تقريباً للباس الخيّالة القدامى (الفرسان النظاميين) لدى عبد القادر.

أسرى عبد القادر

عندما وصل أسرى سيدي إبراهيم إلى الدائرة (آخر معاقل الأمير)، جرى اقتيادهم إلى الخيمة الكبيرة لأم الأمير. فأمر ميلود بن عرّاش الذي كان يقود الدائرة بوضعهم في معسكر النظاميين (الواقع على مسافة معينة) المكلّفين بحمايتهم. يقول أحد الشهود إن والدة الأمير وجّهت لهم «كلمات مفعمة بالمواساة والأمل».

بناءا على أوامر الأمير وصل مصطفى بن التهامي إلى (الدّائرة) لقيادتها، مع الكثير من المعاقين والجرحى، أبلغ البوحميدي تعليمات عبد القادر: الإلتحاق به على جناح السرعة، مع أقصى حدّ من التعزيزات للتعويض عن الخسائر الواقعة في المعارك الأخيرة.

لكنّ وجود الجرحى في حاضرة الأمير المتحركة، وعلاقتهم بالوقائع المتعلقة بالأضرار الحاصلة خلال المعارك الحديثة، كان لهما تأثير كبير على معنويات القبائل. ولما رأت بعض القبائل ذلك تمهيداً لهزيمة كاملة، رحلت للإقامة في المغرب. وعبرت قبائل أخرى الحدود، وعادت من هناك إلى الجزائر مستسلمة بذلك لفرنسا.

فضلا عن ذلك، بدأ العوز يتهدّد، حتى أن المواد الغذائية بدأت تنضب تحت خيمة عائلة الأمير عبد القادر، حيث كانت والدته تتقاسمها سرّاً، بدافع إنساني متميز مع الأسرى، وتقدّم لهم القليل من المواد التي كانت في حوزتها.
أمر الخليفة بن التّهامي القبائل بالإلتحاق بالأمير، لكنها

رفضت. وأمام هذا التمرد، أمرها بتسليم جيادها للفرسان وللمتطوعين الذين سيقومون مقامها. شاع هَرَج كبير، ووقعت ليلاً أعمال فرار جديدة. كان آخر حصن متبقي للأمير لمواصلة الكفاح، قد بدأ ينذر بالإنهيار. أمام هذا الوضع المرعب، حيث لم يجد ابن التهامي أي حل للإرتدادات المتكرّرة، وضع مخططاً: يمكنه وحده في نظره، ردع المرشحين للفرار عن العودة إلى الجزائر.

استدعى زعماء القبائل الباقية، وأشاع أن الأسرى العرب لدى فرنسا كانوا قد أعدموا، وحمّلهم المسؤولية الجماعية للردّ على المجزرة بمجزرة. هكذا جرى ربط القبائل بهذا العمل، وبالتالي لم يعد في مستطاعها أن تخاطر بالذهاب إلى المعسكر الفرنسي.

أمر الخليفة في ليلة 24 - 25 أفريل 1846 بالإبقاء على ثلاثة عشر ضابطاً، كان اثنان منهم قد تمكّنا من الفرار بفضل الفوضى، وقام النظاميون بقتل الجنود الآخرين البالغ عددهم مائة وسبعة وثمانين. كان البوحميدي وحده معارضاً للمجزرة؛ فمنذ تلك الليلة رفضت أن تستقبله والدة الأمير وزوجته، المرتعبتان من جراء ما جرى، إذ كانتا تعرفان أن ذلك يخالف لأخلاقيات الأمير. جاءهن معتذراً عما فعل، لكنهن لم يتحاوبن معه، و لم يوجهنّ إليه أية كلمة.

كان عبد القادر بعيداً، بعيداً جداً. ولنفترض حتى أن صهره قد أرسل له ساعياً يناشده السماح بالتحرك، فإنه لن يستطيع الحصول منه على جواب في مثل هذه المدة القصيرة جداً، ما

بين العاشر، تاريخ وصول ابن التهامي إلى الـــدائرة، والرابـــع والعشرين، تاريخ الحدث.

كان عبد القادر عملياً في غرزة جنوب مدينة بوســعادة، مُطارداً من طرف الجنرال يوسف (1806-1866)[1]. بين هـــذا المكان و(الدَّائرة)، على طريق وادي المولوية، وبخط مستقيم، أي دون حساب العوائق الطبيعية، كان ثمة مسافة ستة وثمانين كيلومتراً، ويلزم ألف وثلاثمائة وستين كيلــومتراً للــذهاب والإياب، الأمر الذي يمثّل مسيرة يستحيل قطعها في المُهَـــل غير المناسبة.

لم يكن عبد القادر حاضراً، ولا يمكنه أن يكون مســؤولاً عن الحدث الدامي. حين عاد إلى (الدائرة) يوم 28 جويليــه 1846، كان همّه الأول التحقيق في وضع الأحد عشر أســيراً. وجرت مقابلة عاصفة بينه وبين بن التهامي، فكان يتهدَّده في السرّ، ويُسيء معاملته في العلانية.

ثم قرّر أن يتفاوض مع بيجو لتبادل الأسرى. لكنّ بيجـــو رفض، خوفاً من استفادة الأمير من التفـــاوض مـــع أحـــد جنرالاته، مما قد يأخذ مسلكا نحو معاهدة؛ فلم يقبل التبـــادل إلا من خلال المفوضية الفرنســـية في طنجة، وهـــذا مــــا رفضه الأمـــير.

لكن ضباط الأمير ومعاونيه، المرتبطين تماماً بالحدث الدامي ليلة 24 أفريل، طالبوا بأن يتحمل الأمير مسؤولية المذبحة، وأن يقسم على عدم الكشف أبداً عن هوية المسؤولين الحقيقيين.

كانت المصلحة في نظرهم تكمن في إنقاذ رؤوسهم. فخضع عبد القادرلهذا الشرط المؤلم، بهاجس وحيد هو ضمان سلامة الأسرى الأحياء. وكان على رأسهم المقدم الذي صار لاحقاً جنرالاً، كوربي دِو كونّار Courbey de Cognard.

ودائماً دون علم عبد القادر، المُحاصر عند الحدود من جانب الجنرال كافينياك (قائد منطقة الحدود الجزائرية المغربية) الذي كان يتهدَّده، والخاضع لمناوشات ملك فاس الذي كان يستعجله الإستسلام له (بموجب معاهدة طنجة) أو أن يغادر أراضيه، جرى ارتكاب عمل آخر. اقترح متآمرو ليلة 24 أفريل (فلنسمِّهم هكذا، تسهيلاً للرواية)، على المقدم كوربي دِو كونار إطلاق سراحه مع أصحابه مقابل فدية، وبشرط حازم ولا رجوع عنه، وهو أن يبقى الأمير غير عالم بالأمر. وبعد عدة مساومات جرى تحديد المبلغ بثلاثة وثلاثين ألف فرنك. فكتب كوغنور إلى الجنرال الإسباني في مليلية (مدينة شمال المغرب، تحتلها إسبانيا) الذي نقل الطلب إلى وهران.

وكان المتآمرون قد وفوا بوعودهم حين سلّموا الأسرى للأمير، وهكذا التزم بوعده فحمى أعوانه. لأنه عندما انطلقت السيارة التي كانت تنقل الأسرى، كان في عداد ركابها أيضاً مبعوث من عبد القادر، ينقل رسالة إلى الملك لويس فيليب. يقول له الأمير فيها بنحو خاص[2]: « حيث إن السيد بيجو ولاموريسيير لم يهتمّا بهذه القضية، وكنّا لنا الكره نفسه، فإنهما لم يتمكنا من أن يعرفا لحظة محددة تجاهنا، كما تعلمون ذلك. لقد بلغ تزايد غضبنا مبلغاً شديداً، جعلنا نقرّر الأمر بالمذبحة ».

كان الأمير قد ذهب إلى أقصى الحدود، لإنقاذ إحدى عشرة نفس بشرية من يد خلفائه، وهذا ما كان لا يوافق أبداً عليه في ظروف أخرى. ذاك أن ابن التهامي و«المتآمرين» الآخرين، حين شعروا بلا شك باقتراب الساعة التي قد يقعون فيها بين أيدي العدو، إنما كانوا سيعرِّضون أنفسهم للأعمال الإنتقامية، فما كان منهم إلا أن مارسوا على الأمير ضغطاً بلا حدود، مصحوباً بذرائع من كلّ الأنواع، للحصول على حمايته الشخصية، لعمل لم يرتكبه.

طلب عبد القادر من الأسرى، قبل رحيلهم عن معسكره، التوقيع على بيان: «حينما كنا أسرى عند الأمير عبد القادر، كنانعامل معاملة حسنة، وكانت جرايتنا اليومية حصة من الخبز الخالص، واللحم الجيد والسمن والسكر والقهوة، وما أشبه ذلك.

لم يحصل لي أدنى إهانة من سائر الوجوه. عندما كان الأمير في الصحراء؛ حرر خليفته البوحميدي إلى الماريشال في الجزائر، في أمر الفداء، فلم يرد له جوابا. وعندما أخذ العرب يقتلون رفقاءنا من غير علم الأمير، سألنا عن السبب؟ فأخبرونا أنه قد عزم المراكشيون على أخذهم جبرا. وبعد هذا كله، أنعم الأمير علينا بإطلاق سراحنا، وأرسلنا إلى مليلية، وكان هذا منه إحسانا من غير عوض».

بالنسبة لعبد القادر، كانت هذه طريقة صريحة للقول بأنه لم يكن مسؤولاً عن المجزرة، وأنه ما كان يمكنه أن يكون مسؤولاً عنها. ومما يدل على أن الحقيقة كانت كذلك، هو أن

هذا البيان لم يُعرف إلا بعد 1852، من خلال نشره في (جريدة الأسرى). ولو لم تكن الوقائع الواردة في البيان مطابقة للواقع، لما تردد الموقعون عليه في استنكاره.

* * *

كان لدى عبد القادر أسرى منذ 1833. وعندما يكون بينهم نساء، وقد كان فيهم بعضهن، كانت تهتمّ بهن أمه وزوجته، اللتان كانتا تسهران شخصياً على أن يكون اعتقالهن أقل قساوة، وأن يُصان شرفهن. ففي كتابه (أسرى عبد القادر) الذي نشره السيِّد دِو فرانس Monsieur de France بعد أسره لدى الأمير، والذي كان ملازماً في البحرية، جاء ما يلي: « طالما أنت إلى جانبي، قال له الأمير، لن يكون عليك أن تخشى من شيء، لا من معاملة سيئة ولا من إهانات، ولقد وفى بكلامه ».

كانت سياسة عبد القادر الإنسانية تجاه الأسرى قد تجلّت في التوصل إلى اتفاق حول تبادل لأسرى بفضل التدخل الطوعي من طرف أسقف/ مطران الجزائر، الأب أنطوان أدولف دوبوش Antoine Adolphe Dupuch (1800- 1856).

كان ذلك يوم 21 ماي 1841؛ قامت امرأة شابة وبين ذراعيها ولدها الصغير، بقرع باب الأب دوبوش في ليلة عاصفة؛ وكانت مضطربة ودامعة. فطلبت من المطران التدخل لإطلاق سراح زوجها، وهو الملازم المساعد ماسو Massot، مأسور لدى الأمير في منطقة متيجة (منذ أوائل 1840)، فأخذ دوبوش ريشته وكتب إلى عبد القادر:

« أنت لا تعرفني، لكني أقسم بأني أخدم اللّه. ولو كنت قادراً على امتطاء جواد للمضي إليك، لما كنت خشيت من كثافة الدياجير ولا من زمجرات العاصفة. بل كنت رحلت ومضيت للوقوف أمام باب خيمتك لأقول لك، بصوت - إن لم أخطئ في حسابي إزاءك - لن تستطيع أن تقاومه: أعدْ لي ذلك الشخص من إخواني الذي وقع بين الأيدي المحاربة. دعني أرسل إليك أحد خدمي. فأنا ليس عندي ذهب ولا فضة، وبالمقابل لا أستطيع أن أقدم لك سوى صلوات نفس صادقة».

فردّ عليه الأمير: « تلقيتُ رسالتك؛ وفهمتها؛ وهي لم تفاجئني. مع ذلك، دعني ألفتك إلى أن صفتي خادم اللّه وصديق الناس اللتين لو طلبت مني بموجبهما، ليس حرية شخص واحد، بل حرية كل النصارى الذين أُسروا منذ تجدّد القتال، لما توانيت عن إطلاقهم. وفوق ذلك، ستكون جديراً برسالتك مرتين، حين تشمل بالرعاية نفسها عدداً مماثلاً من المسلمين الذين يتألمون في سجونكم».

تحادث دوبوش في الأمر مع بيجو؛ وبدأت المفاوضات؛ وذات صباح يوم جميل من أيام ماي، توغّل الأب دوبوش في سجن بربروس (بالجزائر العاصمة). واكتشف فيه مشهداً من أفظع المشاهد: أسرى عرب مكدّسون، نساء، أطفال سيئو التغذية، متعلّقون بصدور أمهاتهن، وهم في أسمال بالية. ومن السجن بالذات حرّر وأطلق نداء يدعو إلى الحسنى والمساعدات وجمع التبرعات. فتجاوب معه المحسنون. وسرعان ما بلغ النبأ سمع الأمير فوافق على الشروط المقترحة.

كان التبادل متوقعاً عند تلّة مُوزاية (بلدة قريبا من البليدة). كان المطران قد جمع مئة وثلاثين أسيراً يرتدون ملابس اعتنى هو بها، ووضع النساء والأطفال في عربات مستأجرة، وكان الرجال يسيرون وراءها على أقدامهم.

وصل المطران متقدّما بمفرده أمام ألف ومائتين عربي مسلحين جدا. وكاد الهجوم المفاجئ لجنرال ما أن يُفشل العملية. فظنّ الخليفة بن علال، المُكلف بتسليم النصارى واستلام العرب أن وراء الأمر فخّاً. شدَّ الخليفة مطوّلاً على يد المطران ودام اللقاء ثلاث ساعات. قدّم دوبوش هدايا.

فردّ بن علال عليه: « أجمل الهدايا هي وجهك وقلبك». ولكي يشكره، أرسل عبد القادر قطيعاً من أربعين رأس ماعز مالطي، تقوده امرأة وطفلة صغيرة، تم نسيانهما أثناء التبادل، « مع هذه العنزات ذوات الضروع الممتلئة، قال الأمير، سيمكنك إطعام الأطفال الصغار الذين تبنّيتهم والذين لم يعد عندهم أمهات ».

بعد ذلك بزمن، حين علم المطران بأن ستة وخمسين فرنسياً أسيراً قد جرى إجلاؤهم عن مدينة معسكر، المحاصرة من قبل دو لاموريسيير، أرسل الأب سوشي Suchet إلى الأمير. فوصل الأب بفضل دليل بعد عدة أيام إلى مكان عبد القادر. وسلّمه رسالة المطران. ثم جرت ترجمة الرسالة. ففكّر الأمير في الأمر. لن أسلم الأسرى إلا مقابل أربعة من رجالي أتمسك بهم. فردّ عليه سوشي بأنه لا يستطيع أكثر من نقل الرسالة. ثم فكر عبد القادر وأعلن:

- سنسلمك الأسرى بلا شرط.

- متى؟ قال سوشي.

- اليوم بالذات، قال عبد القادر. سأعطي تعليمات لكي يُقادوا إلى وهران.

انطلق سوشي برسالة من الأمير إلى المطران. «إننا نثق بك ثقة تامة: وإننا نطلب دوماً من الله أن يلهمك أفكار الخير، وأن يساعدك في كل مساعيك، وأن يسدِّد خطاك على طريق الرشاد».

هكذا نشأت صداقة عميقة وصادقة بين الأب دوبوش وعبد القادر. وعندما سيغدو الأمير السجين الشهير لدى فرنسا، سيواصل دوبوش زيارته، حاملاً له مواساة الراهب وحرارة الصديق. وسوف يبقى في عداد أولئك الذين كانوا من أشد النشطاء وأكثر المُقنعين بإطلاق حريته.

وفي رسالة موجهة من أحد سجناء 1842 إلى القائد الفرنسي، نلحظ في المقطع التالي وتحته سطر في النسخة الأصلية: «تعامل معي عبد القادر بشهامة، قد لا أجدها في بلدان أوروبا الأكثر تحضّراً ».

وكان الأمير قد نشر سنة 1843 المرسوم النص التالي: « من المقرّر أن كل عربي يقتاد فرنسياً أو مسيحياً سليماً ومعافى، يتلقى مكافأة بقيمة أربعين فرنكاً عن كل رجل، وخمسين فرنكاً عن كل امرأة. وأن كل عربي في حوزته فرنسي أو مسيحي، يعتبر مسؤولاً عن طريقة معاملته له. وهو فضلا عن

ذلك مطالب تحت طائلة أشد العقوبات، بأن يقود الأسير بلا تأخير، إما إلى أقرب خليفة أو إلى السلطان نفسه. وحين يتصرّف على هذا النحو، يتلقى المكافأة الموعودة. وفي حال شكوى أي سجين من أقل أذى، سيفقد العربي الذي أسرَهُ كل حق في المكافأة المشار إليها ».

وكان الكونت أوجين دوسفري Eugène de Civry قد كتب: « يبدو أن في فرنسا ما يشبه خلو عرش الغرائز النبيلة. ذاك أن إلهامات خصم فروسي لم تلقَ في قمة أولي الأمر سوى سياسة وضيعة وملتوية... فبينما كانت أيدي أبنائها تشرّفها في ساح القتال، كانت أيادٍ أخرى تخنق، تحت الدراهم والأرقام، بوارق قلبها ».

وإنه من المفيد أن نختم فصل الأسرى هذا، بإيراد مقتطف من رسالة أرسلها الأمير إلى الأب دوبوش: « أرسلوا راهباً إلى معسكري. فهو لن ينقصه شيء. سوف أسهر على أن يكون مكرّماً ومبجّلاً كما يجدر برجل يرتدي رداء كرامة رجل اللّه الشريفة، وممثل مطرانه.

سوف يصلي كل صباح مع السجناء، وسيرفع من معنوياتهم ويتراسل مع عائلاتهم. وعلى هذا النحو سيتمكن من أن يوفّر لهم الوسيلة لتلقي المال والملابس والكتب. بكلمة، كل ما يمكنهم أن يرغبوا فيه أو يحتاجوا إليه، لتلطيف قساوة أسرهم. وذلك بشرط وحيد: هو أنه منذ وصوله إلى هنا، يتعهّد تعهداً علنياً قاطعاً بأن لا يشير أبداً في رسائله إلى مكان وجود معسكراتي أو إلى تحركاتي التكتيكية ».

لم يكن المطران قد طلب شيئاً من عبد القادر. لكن الأمير كان قد بادر إلى ذلك، بدافع احترام المعتقد الديني لأسراه. لقد كان المدافع الشهيرعن الإسلام، وهو المدافع أيضاً عن التسامح والحق واحترام أهل الكتاب.

1- جريدة (Le Moniteur Algérien) 30 أفريل 1846.

2- تبادل الأسرى الذي اقترحه عبد القادر.

لالة مغنية ومعاهدة طنجة

كان عبد القادر المقيم على الرغم منه ما وراء الحدود مع المغرب، وفي الوضع الذي وجد فيه نفسه محصوراً مع دائرته، أي ما بقي من زمالته، قد تصوّر مخططاً له وجهان: أولهما القيام بغارات سريعة في الجزائر لمنع القبائل من الرضوخ لفرنسا، وثانيهما جرّ مولاي عبد الرحمان (سلطان فاس) إلى أن يصبح حليفه ضد فرنسا. ولهذه الغاية، كان عليه أن يجرّ الجيش الفرنسي إلى التوغل في الأرض المغربية.

شنّ غارة صاعقة على قبيلة صمادة التي كانت قد تخلّت عنه بعد معركة 1843/11/11. وكان الجنرال بيجو، القلِق من ذلك العمل الذي اعتبر جريئا، وبهدف اتقاء هجمات أخرى، خطط لإقامة مخيم متقدّم شمال غرب تلمسان، في مكان معروف باسم مزار السيدة لالة مغنية.

لكن هذا الإحتلال عجّل في إقدام الأمير على تنفيذ مخططه: في الواقع وحسب اعتقاد المغاربة Marocains فإن زاوية السيدة لالة مغنية موجودة على أرضهم (20 كم شمال شرق وجده)، مما جعلهم ينظرون إلى احتلالها كأنه انتهاك للأرض، مقرون بتدنيس المقدسات. وأمام تدنيس ضريح المرأة الوليّة، أقسمت القبائل المغربية، التي تحرّكها شتى الهيئات الدينية على الإنتقام لهذه الإهانة الموجّهة إلى الدين. فجرى إيفاد رُسُل في كل الإتجاهات لإشعال الأهواء. فراحت تَغْلي كل مناطق المغرب الشرقية، ولم يتوانوا هناك عن إعلان الجهاد.

ولما رأى سلطان فاس نفسه منجرفاً بالإعصار، أُرغم على اللحاق بالحركة وحتى على تصّدرها واستباقها، بحيث وجـد نفسه في حالة حرب ضد فرنسا، لكنه ما كان يرغب في هذه الحرب، فحاول تجنّبها حين أشرك ممثله القائد المغربي علي بن الطيب القناوي، في مفاوضات مـع الجنرال بيجـو. لكـن شريحة من قبيلة متحرقة، ورغبة منها في الثأر، أطلقت النـار على الدورية الفرنسـية. فباتت الحرب محتومة انطلاقاً مـن تلك اللحظـة.

أما عبد القادر الذي كان يتابع مجريات تلـك الأحـداث باهتمام بالغ، فقد رأى أن الفرصة مناسبة للقيام بعملية إلهـاء للعدو لمصلحة المغاربة، فجعل جيش الجنرال بيجـو المنـدفع بقوة، واقعاً ما بين مُعَسْكر المغاربة المتمـرِّد وبـين القبائـل الجزائرية الثائرة. ثم عاد إلى الجزائر، وسار حتى منطقة تيارت. لكنه رجع إلى المغرب، حينمـا التقى في كـل مكان الأرْتال الفرنسية المتحركـة، ورأى القبائـل منهـارة وقليلـة الإستعداد للقتـال.

وكان ابن ملك فاس، سيدي محمد، الذي كان والده قـد أرسله على رأس عساكر قد وصل إلى الحدود. وقبل خـوض المعركة وقع حادث كبير ومفاجيء جـداً، أدى إلى إحبـاط معنويات السلطان. كان ابن ملك فرنسا الدوق دو جوانفيل Duc de Joinville، قد قصف طنجة من البحر يوم 06 أوت، وقصف الصويرة (موغادور) يوم 15 أوت، وطنجة يـوم 16 أوت أيضاً؛ وكانت القوات المغربية قد هُزمت في معرمة وادي إيسلي (بالقرب من وجده) 14 أوت 1844.

أدت تلك الهزيمة الثلاثية إلى مفاوضات سلام، أو بالأحرى إلى شروط صلح فرضتها قوة السلاح. أما المعاهدة الناجمة عن ذلك، معاهدة طنجة، فقد أدت إلى قول بات شهيراً: « إن فرنسا غنية بما فيه الكفاية لدفع ثمن مجدها». ذاك أن حكومة فرنسا خلافاً للأعراف، لم تطالب بأي تعويض حرب، الأمر الذي أثلج كثيرا صدر السلطان، الذي كان مشهوراً ببخله. لكن فرنسا حصلت من الملك الذي بات مستعداً للتوقيع على كل شيء، ما دام قد أُعفي من كل تعويض، على ما هو أثمن من الذهب والفضة: تسليم عبد القادر. وتُرك تنفيذ الأمر إلى الظروف التي سيحدّدها الوزراء.

تنصُّ المادة الرابعة من هذه المعاهدة الموقعة في 10 سبتمبر 1844 (راجع الملحق):

« يعتبر الحاج عبد القادر خارجا عن القانون على امتداد إمبراطورية المغرب، وكذلك في الجزائر. وبالتالي سوف يُطارد بيد مسلحة، من قبل الفرنسيين في الأراضي الجزائرية، ومن قبل المغاربة في أراضيهم، إلى أن يُطرد منها أو يقع في قبضة هذه الأمة أو تلك. في حال وقوع عبد القادر في قبضة القوات الفرنسية، تتعهد حكومة جلالة إمبراطور الفرنسيين بأن تعامله باحترام وسخاء. وفي حال وقوع عبد القادر في قبضة القوات المغربية، يتعهّد جلالة إمبراطور المغرب بسجنه في إحدى مدن الساحل الغربي للإمبراطورية، إلى أن تتّخذ الحكومتان معاً التدابير اللازمة حتى لا يتمكن عبد القادر، في أية حالة، من حمل السلاح مجدّداً والإخلال ثانية باستقرار الجزائر والمغرب».

كانت قوة السلاح تمنح مولاي عبد الرحمان قسوة العدو، فيما كانت تمنح ملك الفرنسيين قلباً حنوناً وأريحياً.

إذن، لم يتطوّر الوضع كما كان يأمله الأمير. غير أن وضعه لم يكن ميؤوساً منه. فهو يعرف أن القبائل المغربية والأهالي عموماً كانوا مؤيدين له، وأن السلطان كان يخشى من شهرته. حتى أن عرش فاس كان في متناوله؛ وسيعترف لاحقاً بذلك في طولون أمام الجنرال دوما. يقول: « لئن كان لم يرغب فيه، فذلك فقط لأن دينه كان يمنعه من إيذاء ذلك الذي اختاره اللّه من جهة، ولأنه كان يعلم، وهو العارف بالمغرب ومختلف قاطنيه، أنه كان يحتاج إلى إثنتي عشرة أو خمس عشرة سنة من الصراع المتواصل، لا ليحكم مثل مولاي عبد الرحمان، بل ليحكم بالقوة وبالقانون ».

بدأ تنفيذ معاهدة طنجة دون أن يكون في إمكان الأمير الشك في وجودها. كتب السلطان إلى عبد القادر لكي يوافيه إلى فاس. فردّ الأمير بالحذر على رجل مغلوب بالسلاح، رداً تهربياً وتوقّفت القضية عند هذا الحدّ. فواصل ملاحظة الأحداث في الجزائر، فعلم من مواليه الكثيرين أن منطقة وادي الشلف قد اضطربت مجدداً، فقرّر المضي إليها لكي يحرّك المنطقة. لكن ثلاثة أرتال فرنسية بقيادة مؤلفة على التوالي، من الجنرالات دو لاموريسيير وكافينياك للتلّ، ومن العقيد جيري للصحراء، كانت قد أغلقت أمامه الطريق. فكان عليه الإنسحاب مجدداً إلى المغرب.

أحس عبد القادر في تلك اللحظة بالذات بيأس حقيقي، إذ كانت تلك إحدى اللحظات التي اكتشف فيها الرجل مقدار

عجزه ولاجدواه، وهو الذي كان يشعر منذ طفولته أنه مقدر له القيام بمهمة عظيمة في حياته المستقبلية. كان كمن يريد أن يفرض إرادته على مسار الأحداث، فتصوّر مشروع مسيرة طويلة، مثل مسيرة صاحب رسالة، رسول محرومين يمتحنه القدر. لنتركه يروي ذلك للجنرال دوما في طولون [1]، يقول:

« خطرت لي فكرة السير على رأس كل هؤلاء الأهالي الذين اتبعوا قوتي، فأدعو إليّ جميع المسلمين المعادين لسيطرة النصارى، والذين ما عادوا يرغبون في تحمّل المزيد من ذلك، وأن نسير جميعنا على هذا النحو براً إلى مكة، فنعيش كأصدقاء مع أولئك الذين يستقبلوننا كأصدقاء، ونمرّ فوق أجسام كل أولئك الذين يُظهرون لنا العداء.

فمن يستطيع لدى العرب أن يقاوم العصابات القديمة التي حاربتموها غالباً، أنتم الذين تشتهرون بقوة بارودكم في العالم بأسره؟ كان ذلك مشهداً جميلاً يمكن تقديمه إلى العالم، مشهد ذلك الذي يسعى لإعادة العرب إلى مهدهم، العرب الذين كانوا قبل اثني عشر قرناً قد خرجوا منه لفتح إفريقيا، ولم يعودوا يرغبون في البقاء فيها منذ أن سقطت تحت هيمنة المسيحيين».

لكن حدثاً طرأ وأضرم حماس الأمير. ذاك أن وادي شلف التي كانت قد شهدت فترة اضطراب، زارها رجل، هو محمد بن عبد الله، المعروف أكثر باسم بومعزة. فقدّم نفسه بوصفه (المهدي المنتظر)، أي ذلك الذي أرسله الله لكي يقود القبائل إلى الحرب الضروس وطرد الفرنسيين من الأرض

الجزائريـــة. فسارت وراء رايته الأقوام التي تشـــكّلت علـــى عجل في منطقة أورليانفيل (الأصنام سابقا، الشلف حاضرا)، وكلها حماس لخطابـــه.

ولما كان عبد القادر لا يدري إن كان عليه اتخاذه خصـــماً أو محارباً قابلاً للإسترداد والإحتواء، فقد قرّر أن يستطلع آراء القبائل المتمردة، كما لو كان الرجل غير موجـــود. فأرســـل رسلاً إلى المنطقة، يعلمون زعمـــاء القبائـــل عـــن نيتـــه بالإنضمـــام إليهم لمواصلة المعركة. وبما أن الأجوبة كانـــت مؤاتية، بات حضوره منتظراً بفارغ الصبر؛ فلم يبـــق أمامـــه سوى اختيار اللحظة.

أتاح له رحيل الماريشال بيجو إلى فرنسا فرصة التحـــرك. توغّل في سبتمبر 1845 في وادي التافنا.ولدى وصوله استولى الإنفعال والحمـــاس علـــى القبائـــل، واســـتقبل اســـتقبال المنتصرين.أمام هذا الوضع خرج العقيد لوســـيان فرنســـوا مونتانياك François Lucien Montagnac إلى بلدة الغزوات بلا تعقل،على الرغم من الأوامر المعطاة له، إذ كان يخشى مـــن تأييد كاسح للأمير، وكان عليه أن يحمي القبائل المتردّدة. فقام الأمير بتمزيق رتله الصغير إرباً إرباً، ولم يستطع أن يرجع إلى الحامية سوى اثني عشر رجلاً بمعجزة. أما بقية الرجال فكانوا بين قتلى أو أسرى. كانت تلك معركة سيدي إبراهيم. أرسل الجنرال كافينياك من تلمسان موكباً قوامه مئتـــا رجـــل، فقامت خيالة الأمير بتطويقهم دون إطلاق نـــار، فســـلموا أسلحتهم للأمير.

استعاد الأمير حيويته بعد هذا النصر المزدوج. ذاك أن هزيمة الفرنسيين في سيدي إبراهيم، كان لها أثر كبير سواء في الجزائر أم في فرنسا. كتب الجنرال سانت آرنو Saint Arnault في الثالث من تشرين أكتوبر: «مَن يدري ما سيحدث؟ فعبد القادر يستطيع أن يكون في متيجة خلال شهر، كما يستطيع أن يفرّ إلى المغرب، بلا حاشية قبل عشرة أيام. ثمة شيء وحيد أكيد، هو أن الجهاد قد انطلق، وأنه بدأ بكارثة أرهبت المستوطنين والتجار في الجزائر العاصمة».

سيمضي عبد القادر مستقوياً بهذه الإنتصارات، منتصراً إلى منطقة المتيجة. غير أن الماريشال بيجو الذي استدعي على الفور مع تعزيزات كبيرة (كان تعداد الجيش الفرنسي آنئذ مائة وستة آلاف رجل)، حرّك خمسة عشر رتلاً، في مهمة لمنع عبد القادر من التغلغل في التلّ وطرده إلى الصحراء. وعلى الرغم من هذا التجهيز الهائل، اجتاز الأمير السفوح العالية، وقطع خمسين فرسخاً في يومين، ونجا من ثلاثة أرتال عسكرية، وراح ينقل الإنتفاضة إلى أبواب مدينة (أورليانفيل).

لكنه حين هزم في (وادي يسر) تراجع إلى منطقة القبائل، ثم وجد نفسه محاصراً من كل الجهات، فتوجّه نحو الجنوب. طارده رتل العقيد كامون Camon، فتوجّه نحو الصحراء حيث فوجىء بالجنرال يوسف الذي قتل له سبعين من فرسان طلائعه، واستولى على المتاع وبضع مئات من البغال. ولما تعب من أعباء الجرحى الذين كانوا وراءه، أمر الخليفة مصطفى بن التهامي بالتوجه إلى الدائرة ونقل المصابين إليها.

أما بومعزة الذي صار حديثاً من خلفاء الأمير، فقد حارب بشجاعة، وأثار القبائل الواحدة تلوى الأخرى. ثم قام الحاكم العام شخصياً، على رأس إحدى عشرة كتيبة، ربط الإتصال بينه وبين سانت آرنو، الذي كان على رأس أربع كتائب أخرى، لاحتواء بومعزة والقضاء عليه. توالت المعارك وكان على بومعزة التراجع للفرار من العدو. طارده بحماس سانت آرنو- الذي سيغدو ماريشالاً – واعتقله وأرسله إلى فرنسا حيث أثار فضول الصالونات الباريسية. جرى إسكانه ومنحه نفقة بخمسة عشر ألف فرنك، في شقة فاخرة في الشانزليزيه. حاول الهرب أثناء ثورة 1848. لكنه اعتُقِل مجدداً وحُبِس في حصن هاع (Haa)؛ ثم أُدْخل بتوصية من نابوليون الثالث في الجيش العثماني برتبة عقيد.

1- مقتطف من ملاحظات سجّلها العقيد دوما في طولون.

الجيش المغربي يهاجم الأمير

كان سلطان فاس مولاي عبد الرحمان يعرف وضع عبد القادر. فقد كان على علم بأن الجيش الفرنسي، المعزّز بأكثر من مئة ألف رجل، قد دفع بالأمير نحو المغرب، وهزمه عند الحدود؛ وأن الدائرة كانت قد حُصِرت ببضع مئات من المشاة والفرسان؛ وأن ارتدادات القبائل كانت قد تكاثرت؛ وأنها كانت تشكو من النقص في الأغذية، ولم يعد لديها ذخائر كافية لتحمّل المعركة. لقد بدا له أن الفرصة قد آتته لتنفيذ ولو جزء من معاهدة طنجة، أي الوفاء بالتزاماته تجاه فرنسا بأقل نفقات وبلا مخاطر كبرى.

فأرسل جيشاً بقيادة حفيده مولاي هاشم في ربيع عام 1847، لطرد الأمير خارج الحدود. لكنه فوجىء ليلاً، بفضل العيون الكثيرة التي كان عبد القادر يعتمد عليها بين قبائل الريف الأمازيغية، أوقف عبد القادر زحفه، وقام على رأس مقاتليه بتوجيه ضربة قوية وسريعة بمساعدة أهالي منطقة الريف [1]، المقاتلين المُهابين مثل مقاتلي جبال منطقة القبائل، الذين كانوا يكنّون مشاعر الإعجاب للأمير ومشاعر العداء لملك فاس؛ وانتهت المعركة التي قادها عبد القادر، بانسحاب فوضوي للقوات المغربية، واستطاع حفيد الملك أن ينجو بأعجوبة.

لم يكن مولاي عبد الرحمان ينوي الثأر لهذه الهزيمة، إذ كان بكل حسن نية قد أثبت للحكومة الفرنسية عزمه على تنفيذ بنود المعاهدة التي كان قد وقّعها. وبالتالي كان يرى أن فرنسا

لم تعد قادرة على طلب المزيد منه. غير أن حدثاً كبيراً كان قد وقع، وأخذ يبدِّل مجرى الأمور تماماً. ذلك أن الماريشال بيجو أقدم على تقديم استقالته إلى حكومة باريس، لكي يرتاح من همومه ومتاعبه الحربية. فعينت الحكومة بديلاً عنه، ابن الملك الدوق دومال le Duc Dumale، لتسبغ على مواصلة الغزو التزاما علنيا وهالة أميرية.

وعليه، نشّطت الحكومة جهازها الدبلوماسي، حتى أنها لم تعتبر الهزيمة الحديثة جداً لسلطان فاس سوى حصيلة أخطاء عسكرية، وليس كعلامة تفوق لعبد القادر. الآن وقد صار عضوا من العائلة الملكية على رأس حكم الجزائر، صار يلزم أن يجمع حوله كل فرص نجاح مهمته وأن يستكمل الغزو؛ وكان ثمة وسيلة وحيدة تضمن النجاح: القضاء على عبد القادر.

مُورس ضغط دبلوماسي شديد على مولاي عبد الرحمان. فكان لابدّ من تنفيذ سريع لمعاهدة طنجة بكاملها، لاسيما مادتها الثانية. ختم القائم بالأعمال الفرنسي في طنجة مداخلاته الدبلوماسية بهذه الكلمات: « إذا كان لا يريد تنفيذ المعاهدة، فإن فرنسا ستتولى تنفيذها بنفسها ».

إن التهديد بتدخل عسكري فرنسي في الأراضي المغربية سوف يذكّر سلطان فاس بذكرى معركة إيسلي. فقرّر إرسال جيش كبير ضد الأمير، هذه المرة بقيادة ولديه مولاي محمد ومولاي سليمان، وذلك تأكيدا لالتزامه الشخصي.

لم يستطع عبد القادر أن يصدق أن حركة قواتٍ كهذه، تنتشر بقيادة ولدَيْ الملك بالذات. وهو الذي لم يحمل بعد

يمين المبايعة في سهل غريس سوى لقب أمير، حتى لا يكون إلا ذراعه ومثله؛ وهو الذي بعد معاهدة التافنا، كان قد قدَّم له السلطة العليا حتى لا يكون سوى تابعه الأمين؛ وهو الذي أرسل إليه مرَّات عدَّة هدايا بتقدير واحترام. وكان قد تلقّى منه مساعدات تشجيعية. وهو الذي كان قد تقاسم وإياه الذرية المديدة والشريفة لمولاي إدريس، مؤسس فاس! لم يكن يفهم، ولم يستطع أن يفهم أنه يُمْكن أن يُحارَبَ مجاهِد من طرف سلطان مجاور مسلِم مثله.

لم يعد هناك شك بأن ثمة خطأ ما، وقوع سوء تفاهم عابر، وجود عقدة ينبغي فكّها، والتباس لابد من توضيحه. فعزم على إرسال خليفته البوحميدي إلى فاس. فكان استيضاح الأمر مع السلطان من شأنه أن يضع حداً للكابوس. لكن البوحميدي رُمي في السجن عندما وصل إلى مقصده. ولما رأى السلطان أن هذا الحبس غير كاف، سيما أنه مشغول بتنفيذ معاهدة طنجة، أرسل رسالة رسمية إلى عبد القادر يعلمه فيها: « أنه لن يترك له سوى أحد الخيارين، إما الإستسلام له وإما السير نحو الصحراء؛ وأنه في حالة الرفض، ستُعطى الأوامر لطرده بالقوة من الأراضي المغربية ».

بعدما قرأ الرسالة، طرد عبد القادر الرسل في إزدراء. ما العمل؟ المقاومة بألف ومئتي من الخيالة والمشاة فقط، ضد جيش معزَّز بستَّةٍ وثلاثين ألف رجل؟ إن مفاجأة الليل وحدها يمكنها التعويض عن عدم تكافؤ القوى. جمع الأهالي الذين كانت (الدَّائرة) مكوّنة منهم، وعرض مخطّطه الذي ألهب قلب الحاضرين. وإذا نجح المخطط فمن المحتمل حتى

وقوع أحد ولدَيْ الملك بين يديه. فجرى وضع مكيدة: جمال مطلية بالقطران، ستُقاد ليلاً بأيدي رجال مهرة وموثوقين إلى أقرب مكان ممكن من المعسكر المغربي، وفي آخر لحظة ستُضرم النار في القطران الذي يُغطّي الجمل. وبعد أن يستولي الذعر على الرجال والجياد المرعوبين، وما سينجم عن ذلك من هرج، سيكون في مستطاع الأمير الإنقضاض مع رجاله على المعسكر المغربي.

كان يمكن أن تنجح هذه المَكِيدة لولا تسرّب أو خيانة كشفاها أمام المعسكر المغربي. عندها سارعا إبنا الملك إلى خلع مخيّمهما، حتى إنهما تركا خيماً منصوبة، وانسحبا إلى مسافة ما عن جحافلهما. وحين قاما بهذه المناورة، تركا رجال عبد القادر يتوغلون في المعسكر ويتشتّتون وراء النهب، بدلاً من إعادة التجمّع لأجل القتال. خسر الأمير مائة وخمسين رجلاً، وأُجبر على قتال تراجعي حتى يغطّي دائرته. كان ذلك يوم 12 ديسمبر 1847. وكانت الهيبة المحيطة بالدّائرة، قد حالت دون مطاردة المغاربة لعبد القادر حتى وسط جماعته.

على الرغم من الهزيمة، لم يشعر الأمير بعد أنه مغلوب. فأعطى الأوامر بالإستعداد للقتال. وفي الوقت نفسه، جاءه نبأ ليضع نهاية لمشروعه القتالي: أخواه، سي مصطفى وسي الحسين أقدما على الإستسلام للجنرال دو لاموريسيير. كانت الدّائرة في حالة اندهاش والمعنويات في أدنى مستوى لها. وكان القتال بهذا الإستعداد المعنوي لرجاله يعني الإقدام على هزيمة أكيدة، ستؤدي إلى نهب الدّائرة، حيث كان ستة آلاف إنسان

يلوذون بــهـا، وبلا شــكٍّ إلى أســـر أم عبــد القـــادر وزوجتـــه وأولاده.

لم يتجرأ على تحمل هذه المخاطرة الرهيبة والمذلّة معا، فهل سيجد الوسيلة لبلوغ الصحراء مع بضعة فرســان مخلصـين؟ فينجو في آن واحد من الفرنسيين والمغاربة؟

1- الريف: منطقة جبلية شمال المملكة المغربية.

وقف القتال بالتفاوض

حين تأمّل عبد القادر في وضعه، مطاردا من القوات المغربية الراغبة في طرده بأي ثمن خارج حدودها، تنفيذاً لمعاهدة طنجة، ومُلاحقا من طرف القوات الفرنسية على الأرض الجزائرية، ارتأى أن خلاصه الوحيد هو في الذهاب إلى الصحراء.

وعليه، دفع دائرته نحو الحدود الجزائرية. فاجتازت نهر المَلْوية، ودارت آخر معركة. أما واقع الحال فسوف يصفه الجنرال دو لاموريسيير، كالتالي: «يوم 21 (ديسمبر)، بدأت الدائرة باجتياز الملوية لكي تصل إلى سهل طريفة. دارت معركة حادة؛ قُتل فيها أكثر من نصف المشاة النظاميين والقسم الأفضل من الفرسان؛ لكن العبور تمّ دون نهب المتاع. عند الخامسة مساء، تشتّت المشاة النظاميون؛ فعبرت الدائرة وادي الكيسَ، ودخلت في مجالنا؛ فتوقّف المغاربة عن مطاردتها.

كان عبد القادر وحده، فوق جواده، يقود هجرة عبر شعاب مَسيردَة (قريبا من تلمسان). توجّه بالسؤال عن الطريق إلى أحد فرسان قائدنا، الذي سيتعرّف على الوافدين. أُعلمْتُ بالأمر عند الساعة التاسعة من مساء يوم 21. وعَلِمْت في الوقت نفسه أن الأمير استعلم عن الطريق التي يمكنه سلوكها لبلوغ منابع وادي الكيس وبني يَزْنَاسَن. كنت مقتنعاً ولم أخطئ، بأن(الدائرة) جاءت لتسليم نفسها؛ لكن الأمير – حسب المشروع الذي أُعلمت به- كان يسعى لبلوغ الصحراء».

عبر عبد القادر الحدود ورأى فجأة أن تلّ كَرْبوس المواجه له، الذي كان تحت سيطرة القوات الفرنسية. وجرى تبادل إطلاق نار بين طليعة الأمير والسّباهين (فرسان جزائريين في الجيش الفرنسي) المتمركزين على التل، المتخفّين في ملابس فرسان عاديين. كان ذلك كميناً، إذ كان رتل دو لاموريسيير المؤلف من ثلاثة آلاف وخمسمئة من المشاة وألف ومئتي من الفرسان، وجياد مجهّزة للإنطلاق غير بعيد عن هذا الموقع.

قرّر الأمير أن يتقدم شخصياً للإطلاع على الوضع، فعاد على عجل واجتمع بالخليفتين اللذين كانا يرافقانه، سي مصطفى بن التهامي وسي قدّور ولد سيدي مبارك، والآغا بوخيخا وهو من أهمّ المقاتلين وآخرين. كانت الريح تعوي والمطر يهطل بغزارة في تلك الليلة السوداء من ليالي ديسمبر 1847، التي انعقد فيها الإجتماع الأخير للأمير.

فذكّرهم بالقسم الذي أقسموه له سنة 1839، حين نُقضت معاهدة التافنا، بألا يتخلّوا عنه أبداً، مهما يكن حجم الأضرار والآلام التي يعانونها. « إن العهد الذي قطعتموه لي والذي بقيتم أوفياء له، كان يوجب عليَّ أن أفي بدوري، بما كنت قد تعهدت به لكم. لقد حرصت على ألّا يستطيع أي مسلم، في أي لحظة أن يتهمني بعدم بذل كل ما بوسعي لنصرة القضية التي دافعنا عنها معاً. وإذا كنتم ترون أن ثمة أمراً ما نحاوله، لنصرة قضيتنا فأخبروني عنه.

وإذا كان الأمر بعكس ذلك، ولم يعد ثمة شيءٌ يستحق المحاولة، فإني أطلب منكم أن تحلّوني من قسمي الذي أقسمته لكم، يوم طلبت منكم قسمكم ».

فأجمعوا كلهم على القول والتكرار أمامه، مستشهدين اللّه على قولهم، بأنه بذل وسعه، لكن القدر قرّر أمراً آخر. فقال لهم: «عندها لم يبقَ سوى ثلاثة حلول ممكنة: إما اجتياز تل كربوس والعبور فوق أجسام الخيّالة الذين يحرسونه، ولو سلّمنا جدلاً بأننا سنعبر، فلابد من التفكير بأن الفرنسيين هم قريبون جداً من الموقع. وإما سلوك طريق يسمح للمشاة والفرسان ببلوغ الجبل وعبوره؛ لكن النساء والأطفال والجرحى لن يستطيعوا السير في هذه الحالة، وسينتهي الأمر بهم إلى الوقوع في أيدي النصارى. وإما الاستسلام، أخيراً».

تكلّم مجدّداً صحبه كرجل واحد: «لتمت النساء والأطفال وأهلنا، المهم هو أن تسلم أنت، سلطاننا، الذي سيتمكّن وحده من استئناف القتال في سبيل اللّه».

لكن عبد القادر كان له رأي مختلف تماماً. كان يعلم أنه يتحمل مسؤولية كل السكان، هؤلاء الذين كان يجرّهم وراءه، وأولئك المنتمين إلى كل القبائل. فقال: « لقد انتهى القتال، وهذا ما شاءه اللّه. يجب أن نكون على بيّنة من أمرنا: لقد قاتلنا على مدى خمس عشرة سنة، لإنقاذ شعبنا من الهيمنة المسيحية، فماذا أستطيع أن أفعل أكثر إذا بقيت في هذا البلد بينما ضاعت القضية. ماذا تستطيع القبائل في مواجهة جيش قوي لا يتردّد في استعمال كل الوسائل لإبادتها.

إن القبائل نفسها تعبت من الحرب. وكانت على التوالي قد ضُربت بسيفي وبسيف العدو. هذا الشعب لن يخضع للكافر أبداً. هذه الأرض لن تقبل نير الأجنبي. سيأتي يوم يظهر فيه

رجل تُمليه الأحداث، ويقود القتال تحت رايته، كما فعلت أنا شخصياً.

إن المسألة الوحيدة التي بقيت للحسم هي مايلي: هل ينبغي الإستسلام للنصارى أم لمولاي عبد الرحمان؟ يمكنكم أن تختاروا ما يبدو لكم مناسباً أكثر. أما أنا فقد حسمت خياري. فأنا أفضّل الإستسلام للعدو الذي حاربته وكبّدته هزائم كثيرة، على الإستسلام لمسلم خانني. سأطالب بترحيلي إلى بلد مسلم، مع عائلتي ومَن يرغب منكم في أن يتبعني».

أطلق البعض الشكوك حول نوايا الفرنسيين في احترام عهودهم. فقال: « لا تخشوا شيئاً، فهم إما أن يُعطوا عهدهم، وعندها كل شيء يدعو إلى الظن بأنهم سَيَفُون به. وإما أن لا يعطوه، وعندها سوف نتشاور ونتخذ القرار الذي يفرض نفسه. ثم أضاف: ألم يتصرّفوا تصرفاً سليماً مع الخليفة بن سالم في شهر فيفري المنصرم »[1].

إن قضية بن سالم تستحق تعليقاً. لئن كانت السلطات الفرنسية قد احترمت تعهداتها عملياً، فذلك بلا شك لثلاثة أسباب جوهرية: تقديم برهان ساطع للأمير على احترام العهد الذي أعطي لأحد ضباطه، ثم إن الإحترام المقدم إلى ضابط، سيتزايد أيضاً بالنسبة إلى قائد بارز مثل عبد القادر. وأخيراً، إنتهاز هذه الفرصة لإلهام هذا الضابط رسالة يكتبها إلى سلطانه، يدعوه فيها إلى أن يحذو حذوه في حال اضطراره ذات يوم ليفعل مثلما فعل. وهذا ما يسمى استباق الأحداث.

قرر الأمير، القوي بتأييد أصحابه لمشروعه، إرسال رسولَيْن إلى الجنرال دو لاموريسيير. الذي يروي ذلك بنفسه: «ما كدتُ أقطع فرسخاً ونصف الفرسخ حتى أخبرني فرسان أرسلهم الضابط بوخويا، أنه كان في مواجهة عبد القادر وأنه كان جاهزاً؛ فسارعت قدر المستطاع لدعمه مع خيالتي؛ كانت الساعة الثالثة صباحاً. تلقيت في الطريق ممثلي (الدّائرة) الذين جاؤوا للإستسلام، فأعطيتهم الأمان على عجل وأنا أرسلهم إلى معسكري للبحث فيه عن رسائل.

أخيراً، بعد عدة لحظات، التقيت الضابط بوخويا الذي عاد مع رجلين من أشد الرجال ولاءً للأمير، والذي كان مكلّفاً بأن يقول لي إن عبد القادر لم يكن قادراً على الوصول إلى السهل لمتابعة مشروعه، وأنه يطلب الإستسلام. كان بوخويا نفسه قد تحدّث مع الأمير، الذي أعطاه ورقة ختمها بخاتمه، وكان الريح والمطر والليل قد منعه من كتابة أي شيء عليها. وكان يطلب مني رسالة أمان له ولكل الذين كانوا معه.

كان يستحيل عليّ أن أكتب للسّبب نفسه الذي كان قد حال دون الأمير والكتابة، وفوق ذلك لم يكن خاتمي معي. وكان الرجال يصرّون إصراراً مطلقاً على أخذ أي شيء يدلُّ على أنهم كانوا قد تحادثوا معي. فأعطيتهم سيفي وخاتم الرائد بازين Bazaine ووعدتهم شفهياً بالأمان الأشدّ علانية. فطلب مني مبعوثا الأمير أن أرسل معهم بوخويا، الذي أرسلته مع أربعة سباهيين. حدث كل ذلك ونحن نسير».

عُقد اجتماع آخر عند رجعوهما، كان الجنرال قد أرسل تدعيماً لكلامه سيفه وخاتم أحد ضباطه. وعندما أبديا ملاحظة للأمير بأن الجواب كان شفهياً، وأن المكتوب وحده يشكل تعهّداً موثوقاً، أعاد المبعوثين. ولنترك دو لاموريسيير يتحدّث: « أعاد بوخويا إليّ سيفي وخاتم الرائد بازين، إضافة إلى رسالة من الأمير بخط مصطفى بن التهامي. وإني أبعث إليكم (إلى الدوق دومال) نسخة عن ترجمة هذه الرسالة، وأيضاً جوابي عنها. لقد كنت ملزماً بتقديم تعهدات؛ فالتزمت بها، وإني لعلى أمل وطيد بأن توافقوا سموّكم الملكي والحكومة على ذلك، ما دام الأمير يثق بكلامي ».

تحت ضغط الأحداث التي تعاقبت، لم يكن لدى دو لاموريسيير متّسع من الوقت لإرسال رسالة الأمير ولا جوابها إلى الدوق دومال. وأضاف في تذييل لاحق: «امتطيتُ جوادي، امتطيتُ جوادي اللحظة لكي أمضي إلى الدائرة. كنت أفتقر إلى الوقت لكي أضم نسخ الرسالة التي تلقيتها من الأمير وتلك التي رددت بها عليها. يكفيني أن أشير لكم بأنني وعدت فقط بأن يجري اقتياد الأمير وعائلته إلى عكا أو إلى الإسكندرية. هذان هما الموضعان الوحيدان اللذان أشرتُ إليهما؛ فهما اللذان كان قد حدّدهما في طلبه، ووافقتُ عليهما».

عندما قرأ أصحاب الأمير جواب الجنرال، لم يعد لديهم أي سبب للإرتياب. فتوجّه عبد القادر بصحبة مناصريه ومرفوقاً بعائلته، نحو بلدة المحلّة المجاورة لبلدة سيدي إبراهيم، هناك بالذات حيث كان قبل عامين قد أحرز واحداً من أبرز

انتصاراته العسكرية. فاستقبله الرائد مانتوبان Mantauban بكل الحفاوة المتوجبة نحو شخصية عظيمة، تضاءلت بسبب نقص السلاح. قدّم الجنود الفرنسيون التحية العسكرية لذلك الذي حارب فرنسا طيلة خمس عشرة سنة؛ وذهب عبد القادر إلى زاوية المرابط سيدي إبراهيم لإقامة صلاة أخيرة، بمثابة وداع أخير للأرض الجزائرية. ثم جرى اقتياده باحترام إلى دائرة الغزوات، حيث كان الدوق دومال قد رسا في هذا الظرف الإستثنائي.

ولقد قدّمت جريدة (Le Moniteur Algérien) الوصف التالي للأحداث: « عند الساعة السادسة مساءً، كان عبد القادر قد وصل مع الجنرال دي لاموريسيير، مع الجنرال كالفينياك والعقيد بوفور، وجرى إدخاله على صاحب السمو الملكي. بعد لحظة صمت، قال الكلمات التالية: «كنت قد أردت من قبل أن أفعل ما أفعله اليوم، وكنت أنتظر الساعة التي يشاءها الله. لقد أعطاني الجنرال عهدا وثقت به؛ وإني لا أخشى أن ينتهكه ابن ملك عظيم مثل ملك الفرنسيين ».

أكّد سموه الملكي عهد ضابطه بكلمات بسيطة ودقيقة. وجرت مراسم أخيرة في صبيحة اليوم التالي. وفي لحظة رجوع سموه الملكي من جولة استطلاعية، كان السلطان سابقا قد جاء على جواد وهو محاط بقادته الأساسيين، وترجّل أرضاً، على بضع خطوات من سمو الأمير الملكي. وقال له:

« أقدّم لكم هذا الجواد، وهو الأخير الذي امتطيته. إنه شهادة على امتناني، وأرجو أن يحمل لكم السعادة.

– إني أتقبله، أجاب الأمير، بوصفه تقديراً لفرنسا، التي ستشملكم رعايتها من الآن فصاعداً، وذلك كعلامة لنسيان الماضي ».

تلكم هي الوثائق الرسمية التي تروي شروط استسلام عبد القادر ومجرياته. وسوف نلاحظ أن في الرسالة التي أرسلها دو لاموريسيير إلى الدوق دومال، كانت ترتسم معالم تخوّف لا يخفى تماماً من قبل الجنرال، أو خوف لا يكاد يخفى من أن يرى وضع تعهده ووعده على المحك. إن هذه العبارة: « لقد كنت ملزماً بتقديم تعهدات؛ فالتزمت بها، وإني لعلى أمل وطيد بأن توافقوا سموكم الملكي والحكومة على ذلك، ما دام الأمير يثق بكلامي »، تكشف أنه كان على عجلة من أمره أكثر مما كان عازماً على فعله. أم أنه كان مطلعاً بحكم موقعه، على التدابير التي قد لا تتوانى الحكومة عن اتخاذها، نعني اقتياد الأمير إلى فرنسا وليس إلى أرض إسلامية؟

على كل حال، عندما سيغدو دو لاموريسيير، لاحقاً وزيراً للحربية، سوف ينسى وعده، على الرغم من أن تعيينه في هذا المنصب كان قد أثار أملاً كبيراً لدى الأمير؛ لكن دون جدوى لأن الأمر كان يتعلق بالمشارك الأساس في عملية الإستسلام، وبالتالي الشاهد العَيْني والسَّمْعي للوعد العلني الذي قطعه الأمير الملكي.

لنترك الأمير عبد القادر يروي بدوره – روايته للأحداث ومشاعر ثقته بكلام ابن الملك – إلى مطران الجزائر السابق، الأب دوپوش، الذي زاره زيارة ودّية في قلعة آمبواز:

«منذ سنتين لم أحارب الفرنسيين، على أمل أن أرى نهاية سعيدة لي ولرفقائي في هذه الحرب، التي تجددت في نـوفمبر سنة تسع وثلاثين 1839 (بعد نقض اتفاقية التّافنــاَ)، مــع أني كنت معتقدا أني لم أقم بالواجب الدّيني وحفــظ بــلادي، وأخشى أن أتلقى شبه الملامة.

عرض الفرنسيون علي مقدمات كثيرة، وهي: ترك السلاح مقابل شروط. وزيادة على ذلك: كان قــد عــرض علــي الماريشال بيجو بالواسطة مليونا، لأترك السلاح، فلــم أقبــل ذلك منه، محافظة على عهدي وديني. وقبل ذلك، كتــب لي خليفتي السيد أحمد بن سالم عند سفره إلى بلاد المشرق علـــى باخرة فرنسية، بعد تسليمه الإجباري.

وأكد لي بأنه كتب له من قبل الحاكم العام، الذي كنــت عارفا باستقامته وشجاعته، بأني إذا قطعت الأمل واتبعتــه في عمله، لا أعامل بأقل رعاية منه. وإجابة لطلبه، نقــل علـــى بواخركم إلى بلاد بعيدة، تقربها الوحدة الدينية إلينـــا. وقــد أبلغوه أني إذا كرهت السفر على باخرة مسيحية، يستأجرون لي باخرة إسلامية، وتتكفل فرنسا بنفقتها. . .

على أنه كان لي ثقة بعدالة فرنسا، وأنها تفي بما وعدتني به، مقابل تركي السلاح، وما ينشأ عنه من السلام العام. ولــيس لي أمل، إذا أصريت على الحرب بالظفر، لعلمـــي بنتيجتـــها. لكن حلفت أن أدافع عن ديني، وأحافظ على بلادي إلى حد تضعف فيه قوتي. وأظن أني لم أعمل القدر الكافي، ومع ذلك كان مركزي بـــ (الدّائرة) أواخر سنة 1847 خطرا وخيما.

فتحرك ضدي حاكم مراكش، وأظهر ما عنده من الحنق، وظل يتعقبني ويحاربني، فصرت أتحسب من قبائل الريف أكثر من الفرنسيين، الذين قوتهم كانت تزداد يوما فيوما، مع ازدياد خوفي وقلقي.

ومع هذا كله لم يخطر بفكري أن أعقد الصلح مع الفرنسيين، لكني لما رأيت أهلي في معسكر (الدَّائرة) في خطر عظيم من جنرال الغرب (غرب الجزائر)، قررت ما يلزم أن أعمل محافظة عليهم من التعب. على أنني كنت قادرا على التخلص منكم – بهمة من كان حولي من الفرسان الصناديد، الأشدَّاء على الأعداء، الأمناء على الوفاء – وأن أضايق الفرنسيين مدة طويلة، آويا إلى قبائل الصحراء، الذين لا يبخلون علي بقليل من الشَّعير والحليب.

وكان في استطاعتي على الأقل أن أفلح في الذهاب إلى الأماكن المقدسة، ممتطيا جوادي لكني تركت ذلك حبا للراحة والدَّعة، نساء وأطفال رفقائي المخلصين، الشيوخ والجرحى الذين يرافقونني. وفي هذه الحال، كتبت إلى الجنرال دو لاموريسيير بأن الحكومة الفرنسية إذا كانت باقية على نواياها لي، مما طالما حدثوني به، وأنها تأذن لي: إذا تركت السلاح بالذهاب إلى الشرق، الذي هو مطمح أنظاري، تركت لها سلاحي. فأرسل لي دو لاموريسيير سيفه وخاتمه عهدا على إنجاز جميع ما طلبته، وبأسرع وقت. فطلبت منه تأمينا بالكتابة وإلا فلا، فكان الجواب منه كالأول، فعرفته ثالثة: إذا لم أكن على ثقة من عهده، فإني أسلم أمري إلى الله، ولا يتم بيننا عقد اتفاق. فبعث لي بالتأمين الخطي ممضيا باسمه

الفرنسي، مختوما بخاتمه بالعربي، فطمأن بذلك قلبي. حيث أنه وكيل الحكومة الفرنسية، وأن كلامه أكيد يعمل به، ولو كان صادرا من أقل رجل من رجالها.

وحينئذ وصلت إلى معسكره، وبالوقت ذاته، حضر الدوق دومال إلى (جامع الغزوات) فاستقبلني بكل لياقة، وقال لي: إن ما فعله قائم مقامي، وتعهد لك به فإني أجريه عند اللـــزوم. وإذا رغبت، فإني أعاهدك بكلامي الملوكي: أن كل ما صـــار الإتفاق عليه، يتم. فقدمت له حينئذ آخر ما ركبت من الخيل أيام حروبي. فسألني:

- إلى أين قررت الذهاب، ومن سيكون معك؟

- فأجبته: إلى القسطنطينية أو عكا أو الإسكندرية، والـــذي يصحبني أهلي والبعض من ضباطي. وكان عدد مـــن أراد أن يرافقني نحو المـــئة، ولم يكن في وســـعي أن أرد أملـــهم في الذهاب معي.

- فأجاب إبن الملك: بأنه لا يـــوافقني علـــى الـــذهاب إلى القسطنطينية. ولكن عند وصولنا إلى المرسى الكبير * يرســـلني إلى الإسكندرية، إجابة إلى طلبي ووفاء بوعـــده. فقـــط، إن السفينة التي أركب فيها ستقف قليلا أمام مرفأ طولون، فقبلت منه ذلك. ولم أدرك له معنى إلا أن السفر يقتضي ذلك.

ولما وصلنا إلى طـــــولون، أخرجونـــا مـــن الســـفينة، وأودعـــونا في السجن، وأسافاه؟ كنت أظن أن نـــذهب إلى محل الراحة والسعادة لا إلى الحبس والشـــقاوة. حيـــث أني

تحصلت على العهد الـوثيق والوعـد الأكيـد مـن ابـن الملـك، الـدوق دومـال والجنرال دو لاموريسيير.

وكان الغالب على ظني أن دولة فرنسا لا تخلف وعدها ولا تنقض عهدها، لزعمها أنها من أعظم الدول المحافظـة علـى العدل والإستقامة، بل كنـت أقـول لنفسـي: إذا أسـرني الفرنسيون في الحرب، لا أنال منهم إلا كل رعاية، لأنهم ذوو شهامة، يعرفون قدر الغالب والمغلوب. فكيـف إذا سـلمت نفسي إليهم عن طيب خاطري؟ وكيف يكون إذا التسـليم على عهد ووعد أكيد؟ ونظرا لما أعرفه من كمـال حبـك وعقلك، أخبرتك بالواقع لتفرق بين الأخلاق العربية والأفعال الفرنسية، وتحكم بما تراه ».

في يوم 25 ديسمبر1847، أي بعد يـومين مـن مراسـم الإستسلام، نُقل الأمير على متن الباخرة لاسمودي l'Asmodée إلى فرنسا، مع عائلته وعدد كبير من أصحابه باتجاه طولون.

بيعت بمبلغ زهيد (ستة آلاف فرنك) كل أملاك الأمير، من خيام وجياد وبغال وجمال، التي كان يملكها لحظة إلقاء سيفه عند قدم خصمه. ولزيادة التضييق على حريته، لم يُدفع له هذا المبلغ إلا بالتقسيط، مع ضرورة أن يقدم تبريرا مسبقا لكـل استعمال. وبناء عليه، كلما كان الأمـير يرغـب في تقـديم مساعدة لأحد خدمه أو حسنة لواحد من أقاربه، كان عليـه أن يحظى بإذن السلطات الفرنسية.

هل كانوا يشتبهون في أن السجين الشهير يرغب في شراء السلاح بينما كان في أيدي سجّانه؟ إن السرعة التي نقل بها إلى طولون كانت علامة حذر شديد ووقاية قصوى: استبعاد كل خطر لانقلاب الوضع، بإبعاد هذا الخصم المرهوب الجانب عن الأرض الجزائرية بأسرع ما يمكن.

1- في شهر فيفري 1847، كان سيدي أحمد بن سالم، خليفة سباباو بمنطقة القبائل، قد استسلم بشرط نقله إلى الشرق مع عائلته وجميع الراغبين في مواكبته. وبما أن الماريشال بيجو قد وافق على هذا الشرط، فقد وضع في تصرّف الخليفة السابق بارجةً للدولة، قامت بنقله إلى ميناء دلس. كتب بن سالم خلال الرّسو رسالةً إلى عبد القادر ليسوِّغ له الموقف الذي كان قد وقفه. أثنى في هذه الرسالة كثيراً على طريقة وفاء فرنسا بوعدها؛ وأخيراً دعا معلمه — في حال اضطراره – إلى أن يحذو حذوه بالوثوق في كلام الفرنسيين. لقد كان لهذه الرسالة تأثير كبير في نفس الأمير.

* ميناء بوهران.

عبد القادر في طولون

وصلت البارجة إلى مرسى مدينة طولون Toulon المليء بالسفن في 24 محرم سنة 1264 هـ، أول جانفي سنة 1848 م بعد رحلة تخلّلتها عاصفة شديدة؛ فجرى نقل المسافرين إلى زوارق متجهة إلى الرصيف الذي كانت كل أنواع الناقلات تنتظرهم عنده: شاحنات، عربات نقل وكثير من الدرك والعسكريين. جاء المقدم السعيد لاستقبال الأمير، مقدِّماً له شروحات غامضة كان يصغي إليها دون أن ينطق بكلمة وتفرّقت الجوقة.

فمرفأ طولون الذي كان ينبغي أن يكون محطة إلى الشرق الأوسط، صار إقامة طويلة لم يكن الأمير ليشك فيها. وأمام سرعة هذا النقل غير المتوقّع تقريباً، أُخذت سلطات طولون المحلية على حين غرّة. وبدا لها أن حصن لامالغ هو المبنى الوحيد الذي يمكنه أن يضمّ، فضلاً عن عائلة الأمير، الثمانين شخصاً من حاشيته، والذي يمكنه توفير الشروط الأمنية في منأى عن كل مفاجأة.

لم يكن اختيار طولون عفوياً. فهو مرفأ عسكري، وكان يقدّم ما يكفي من ضمانات الحماية، من حيث ترساناته والقوات المعسكرة فيه وموقعه الإستراتيجي. وليس مصادفة أن يسلّم الملكيون، المنشغلون بتفكيك الجمهورية واسترجاع الملكية، المرفأ لإنكلترا سنة 1793، لكن بونابرت استعاده.

لقد أُفهم الأمير أن فترة معينة كانت ضرورية للتنسيق مع الحكومات المعنية، سواء الحكومة التركية بالنسبة إلى عكا، أو حكومة مصر بالنسبة إلى الإسكندرية.

كانت الحكومة الفرنسية قد حرصت على تعيين رجلين لدى عبد القادر، على قدر كبير من المزايا الأخلاقية، حتى يكونا على اتصال دائم به، للتخفيف من العذاب المعنوي الذي قد يُثيره انتظار مطوَّل: العقيد دوما قنصل فرنسا السابق في معسكر، والمدير المركزي السابق للشؤون العربية في حكومة مدينة الجزائر العامة، وهو رجل مثقف وعارف دقيق باللغة العربية، والنقيب بواسوني Boissonet، ضابط مميّز ومسؤول سابق عن قسم الشؤون العربية في منطقة قسنطينة، وهو أيضاً مثقف لطيف. وهما يُجيدان التحدث معه بلغة مطمئنة، وبذلك يلطّفان من لحظات الشك أو اليأس التي كان يُفترض أن يمرّ بها.

ولئن كان الأمير يدرك جيداً أن المساعي الدبلوماسية كانت ضرورية لكي يتابع مسيرته، فإنه كان يستطيع مع ذلك الإعتقاد أيضاً، بأن ملك الفرنسيين يمكنه الحصول بلا صعوبة على ردّ إيجابي لمسعاه، سواء لدى الباب العالي (السلطة التركية) أو لدى ملك مصر. فالباب العالي لا يكره أن يستقبل على أرضه الزعيم المناوىء للنظام التركي في الجزائر، لمعاملته كمغلوب شهير؛ ومحمد علي قد لا يتردّد في أن يستقبل على أرضه العدو الجَسور للحاكمين العثمانيين، الخصم الباسل لقوّةٍ أوروبية عظمى، كبطل مكلّل بالمجد دفاعاً عن الإسلام. وهذا يعزّز بلا شك من نفوذ مصر.

لكن الأسابيع توالت دون أي خبر وبلا أية إشارة. فبدأ الشك يستولي على الأمير. فهو الذي كان مطّلعاً على شؤون الدولة وعلى العلاقات بين الدول، بدأ يرتاب في تنكّر فرنسا

لالتزاماتها. وبدلاً من التشكي والتذمّر، كان شاغله الأول تقديم بعض المواساة إلى أصحابه المساكين. فربما كان مسؤولاً عن مصيرهم. إنه يشعر بالأسى وهو يراهم محبوسين ومكدّسين في هذا المبنى المتقشف.

وبينما كان الجميع يواصلون الإكثار من تقديم علامات التبجيل والتقدير له، كما كان الحال في أيام عظمته، كان الأمير يقدّم لهم عاطفة أبوية شديدة، بصفتهم أفراد أسرة نال القدر منها. وحين كان بعضهم يندهش من جراء ذلك، كان يردّ عليهم: « في الوضع الذي أنا فيه، عليّ أن أفعل مثل أجدادي، وألا أقول جوادي، بُرنسي، أملاكي، بل: جوادنا، برنسنا، أملاكنا».

كان يبيّن بموقفه للجميع أنه لم يعد سلطاناً؛ وأنه لن يكون سلطاناً في الوقت المنشود، إلاّ للفترة التي تمكّنه من الدفاع عنهم وتوفير حمايتهم. « وبما أن القدر شاء أن نتقاسم الإعتقال، ولو مؤقتاً، فلا مَناص من تقاسم كل شيء، لاسيما المودّة». وحين رجع إلى السلوك الشائع لدى أجداده، كان عبد القادر ينهل من قيمهم القوة على البقاء كريماً وصافياً في المحنة. إذ يتّسِم الفروسي دائما بفضيلة معاكسة للأنانية.

ألم يقل في إحدى قصائده الشهيرة، التي كان أصحابه يحبّون تردادها:

ومن عادة السادات بالجيش تحتمي

وبي يحتمي جيشي وتحرس أبطالي

كان عبد القادر يبدأ يومه في حصن لامالغ بصلاة الفجر، ثم يمضي لتحية والدته العجوز، ثم يلتقي أصحابه الذين يأتون لتحيته.ثم يختلي بولديه البكرين محمد ومحيي الدين، اللذين كان يراجع لهما الدُّروس التي لقّنها لهما أستاذهما. وبعد الغداء، كان يستقبل أشخاصاً مميّزين كانوا يرغبون في لقائه.

و لم يكن يفوّت أبداً صلوات النهار الأخرى، وصلاة المساء التي كان يؤمّها شخصياً في جماعته. وكان قبل صلاة المساء، يقدّم تلاوة دينية لكل الحضور، بحيث كان يختار آيات من القرآن كانت موضوعاتها تدور حول القوة الداخلية للنفس أمام الضرّاء. بعد الصلاة الجامعة والعشاء مع أهله، كان يختلي ببعض خلاّنه حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة.

لقد طال انتظار الإشارة. فراح القلقُ يستولي جدّياً على الأمير، عندما جاء المقدم بوفور Beaufort لمقابلته، مساعد معسكر الدوق دومال الذي كان قد كلّفه بمرافقة عبد القادر في البارجة، وبالعودة بعد ذلك إلى باريس. جاءه مكلّفاً من قبل الملك، لإعلامه بأنه سيتم الوفاء بالعهد الذي قطعه إبنه.

مضت ثلاثة أسابيع أيضا دون حدوث أي شيء، وكانت قد ترامت إلى سمع الأمير إشاعة غامضة عن مناقشات في مجلس النواب، تقول إن وعد الجنرال دو لاموريسيير كان موضوعاً على المحك. غير أن الخبر المطمئن قليلاً كان قد جاء: فقد صرّح وزير الخارجية أمام المجلس، بتاريخ 05 فيفري 1848 « أن الحكومة لم تكن تستبعد الإسكندرية، مع أنها ترفض إرسال عبد القادر إلى عكا، لأن تركيا لم تكن قد اعترفت بغزو الجزائر».

كان لوصول الأمير صدى كبير في فرنسا. فصحف باريس، مثل les Débats، Le Constitutionnel، والجرائد المحلية، مثل La Sentinelle، Le Toulonnais، Le Sémaophore de Marseille كانت قد فتحت أعمدتها أمام الحدث، وتابعت مجرى الأمور. ففي مواجهة النية السيئة، وممانعة الكثيرين من النواب إطلاق سراح الأمير، سعت بعض الأصوات وهي ليست قليلة، إلى إنقاذ شرف فرنسا: لامارتين، أمير دو لاموسكوفا، لاروش جاكلاين، الجنرال كافينياك.

وعندما صعد غيزو Guizot بعد هذه النداءات إلى المنبر، أضاف: «لقد بدأت المفاوضات للحصول من باشا مصر، أولاً: على استقبال عبد القادر (فنحن لا نستطيع إكراهه على ذلك)، وثانياً: أن يعطينا بعدما يستقبله هذه الضمانات، شروط الحراسة هذه التي لن أخوض هنا في تفاصيلها، لكنني سأضعها على نحو يكون فيه أمن حقيقي بالنسبة إلينا».

لما علم الأمير بذلك من الجنرال دوما شعر بالإطمئنان. إذ أن فرنسا تتمسَّك بوعدها إذاً، ما دامت قد باشرت المفاوضات. وبالتالي ليست المسألة سوى مسألة وقت، فحثَّ أصحابه على الصبر وهو يخبرهم بالتفصيل عن تطور الأمور.

وصاح الجنرال فابفييه Fabvier، الذي كان البطل الشهير لاستقلال اليونان: «إن كنتم تمسّون بعهد فرنسا، فوداعاً أيها النصر». وكان الجنرال كافينياك قد كتب: « ليس عبد القادر سجيناً البتة. إنما آثر الرجوع إلى ما سمّاه القانون الفرنسي. ومن الأفضل أن يُعطى لهذا القانون طلاء حزين، على إظهاره بمظهر الحَنَث باليمين ».

أما الملك لويس فيليب، المتردّد بين آراء أبنائه المتناقضة، إذ يذهب بعضهم إلى حدّ رفض الوفاء بعهد أخيهم، وهو لا يستطيع التصرف بخلاف رغبة البرلمان، فقد خطر له أن يرسل إلى طولون الرسام هوراس فرني Horace Vernet، بحجة رسم صورة للأمير، وأن يقول له إن وزراءه كانوا خوّافين، وأنه سيفي بتعهد الدوق دومال. لكن هذا السيناريو الخيالي البالغ السذاجة لم يحدث. لا شك في أن الرسام لو قصد عبد القادر مع عدة الرسم، لكان مُني برفض قاطع.

سرعان ما انطفأ أمل الأمير لدى وصول الأخبار من باريس، عن تنحّي الملك وإعلان الجمهورية. فبما أن الملك لم يعد ملكاً، ظنّ الأمير أن كلام الدوق دومال قد مُحي. وأنه لم يعد لديه شاهد.

قال للجنرال دوما: «هذا سلطان كان يُعلن عنه أنه قوي، وكان قد عقد تحالفات مع الكثيرين من الملوك الآخرين، وكان لديه أسرة كبيرة، وكان يُستشهد به على تجربته؛ فكانت ثلاثة أيام كافية لإسقاطه! وأنتَ تريدني أن لا أكون مقتنعاً بعدم وجود أية قوة أخرى، أية مشيئة أخرى سوى مشيئة الله! صدِّقني، ليست الدنيا سوى جيفة، يمكن للكلاب فقط أن يتنازعوها لبضعة أيام».

قام السيد إميل أوليفيه Emile Olivier المحافظ العام للحكومة المؤقتة بزيارة الأمير. فأعرب له عن الكثير من التقدير، وأبدى له الكثير من العطف حين سأله عن الضمانات التي يمكنه تقديمها لفرنسا، بأنه لن يظهر مجدداً أبداً في الجزائر.

فقال له: «ليس في وسعي أن أعطي ميثاقا للحكومة أقوى من الميثاق، الذي أعطيته للجنرال دو لاموريسيير، وأكدته للدوق دومال، ابن الملك، والملك أيضا. ولو لم أرد التسليم والنزول عن الإمارة، ما كنت اليوم هنا عندكم في حال أسير مقهور. وبالتالي جئت إليكم بكل حرية. هذه الضمانة تساوي كل الضمانات الأخرى.

- فقال أوليفييه: كلامك أيها الأمير مقبول، ولا ضرر عليك إذا أنت حلفت للحكومة بالقرآن: على أنك لا ترجع إلى الجزائر مجددا، ولا تتدخل في مصالح فرنسا، بوجه من الوجوه، بنفسك ولا بواسطة ؟

- فأجابه الأمير: إن دعتني الحكومة إليه، لا أتوقف في إجرائه».

طلب السيد أوليفييه منه وقد تأثر أشد التأثر بنبل الأمير وعقليته، أن يوجّه رسالة إلى الحكومة المؤقتة، يُرفق بها القسم الذي جرى الحديث عنه، ووعده بأن يكون أفضل محامٍ عنه أمام السلطة الجديدة.

كان الأمير يقول لنفسه: «ما دام التعهّد غير المحترم بعد، هو من جانب الفرنسيين، فلماذا يُطلب مني تعهّد؟ » فقارب هذا المسعى غير المتوقع، بتصريح غيزو في المجلس الذي كان يرأسه، خاصة المقطع: « أن يعطينا هذه الضمانات وشروط الحراسة هذه، التي لن أخوض هنا في تفاصيلها، لكنني سأضعها على نحو يكون هناك أمن حقيقي بالنسبة إلينا».

بكلام أوضح، كان هذا يعني بالنسبة للأمير، عندما يطلب غيزو من محمد علي ضمانات وشروطاً ستبقى تفاصيلها سرية،

إنما يريد أن ينقل إلى ملك مصر تعهدات مكتوبة بيد عبد القادر، من شأنها أن تطمئنه إلى السلوك السلمي للمنفيّ وتقنعه بالموافقة. لم يرَ عبد القادر في النهاية أي مانع للردّ على طلب الحكومة الفرنسية، على الرغم من تقديره لمدى بقائه خطيراً.

صحيح أن في بعض دوائر باريس السياسية والعسكرية يذهبون إلى حدّ بثّ التخوّف منه، مستندين إلى احتمال رؤية قوة أجنبية تساعد عبد القادر على العودة من مصر إلى الجزائر، لاستئناف القتال فيها، وبالطبع كان التفكير ينصبّ على إنكلترا.

عندها كتب الأمير:

« الحمد لله الواحد الأحد، الذي لا يزول ملكه مدى الأبد.

إلى أركان المشيخة، المستولين على زمام ملك فرنسا.

أما بعد، فقد حضر عندي رسولكم السيد أوليفييه، وأخبرني بأن الفرنسيس اتفقت كلمتهم على إبطال الملك الإستبدادي، وإبداله بحكومة جمهورية شورية. فسرني هذا الخبر، لما أعلمه من أن المراد بهذا الأمر نزع الظلم ومنع التسلط. وبناء على ذلك، أرجو أن تكشفوا عني ما أنا فيه من البلاء، فإنكم بنيتم أمركم على دعائم العدل والإنصاف، والوفاء بالعهد، والصدق في الوعد.

وإن نقمتم على ما جرى بيني وبينكم من الحروب، التي اتصلت عدة سنين، فما أظن أن أحدا ممن على وجه الأرض من البشر، ينكره علي أو يذمني به. لأني رجل أوجب علي

ديني أن أدافع عنه وعن أرض أهله، المتمسكين بعروته الوثقى، فقمت بذلك، وبذلت وسعي فيه ما استطعت. ولما ظهر لي انتهاء أجل قيامي، بهذه العبادة التي حزت بها ولله الحمد شرف الدنيا والآخرة، وتلاشت الهمم وتقاعدت العزائم، ونفد ما عندي من المواد والأسباب، التي كان القيام بها، سلمت وقلت: إن الأرض لله يرثها من يشاء من عباده، فهو أقامني حيث شاء، وأقعدني حيث شاء.

ثم أني طلبت من رئيس جيوشكم، التي كانت تترصدني وتتوقع وقوعي، النائب عنكم في الجهة الغربية، الجنرال دو لامورسيير عهدا وميثاقا: على أني إن سلمت في أمري الذي كنت قائما به، فإنه بالنيابة عنكم يحملني وأنا من معي إلى الإسكندرية أو إلى عكا، فأجاب إلى ذلك وقبله. وأعطاني العهد والميثاق على ذلك، وحرره وأمضاه بخطه وختمه. كما أني أعطيته عهدا وميثاقا، على ألا أرجع إلى الجزائر، ولا أتعرض للفرنسيس في شيء بوجه من الوجوه.

وبعد الوثوق منه ومني، جئت بأهلي وأولادي ومن اتبعني من خاصتي إلى مرسى الغزوات، واجتمعت بالجنرال دو لامورسيير وحاكم الجزائر الدوق دومال إبن الملك، والجنرال كافينياك. ثم حملونا في الباخرة الحربية من مرسى الغزوات، على أن يمروا بطولون لحمل لوازم الباخرة، ثم يجددون السير بنا إلى المشرق.

فلما وصلنا إلى طولون، أنزلونا إلى البلد، وتصرفوا فينا بما شاءوا، وكيف شاءوا. وها نحن على ذلك، ننتظر الفرج من الله تعالى، فلعله يجريه فتحوزون به الفخر العظيم، والذكر

الجميل في العالم بأسره. إذ الوفاء بالعهود وإنجاز الوعود من خصال أهل الكمال، ونعوت ذوي الفضل والأفضال.

وإن أمرتم بأني أقسم لكم بالقرآن العظيم، أني: لا أنقض لكم عهدا ولا أخلف وعدا، ولا أتعرض لكم في شيء، فلا يثقل علي ذلك، بل أقسم لكم بما تريدون، فيما تريدون.

أبعث لكم بتحياتي.

حرّره عبد القادر بن محيي الدين،

يوم 09 ربيع الأول 1264 (مارس 1848)».

أُرفقت هذه الرسالة بالنص التالي:

«الحمد للّه وحده!

أصرّح إذاً أني لن أثير من الآن فصاعداً، أي اضطراب ضد الفرنسيين، أكان ذلك شخصياً أم بالرسائل، أم بأية وسيلة كانت.

أمام اللّه أُقسم على ذلك بمحمد وإبراهيم وموسى وعيسى؛ أقسم بالتوراة والإنجيل والقرآن؛ بكتاب البخاري ومسلم؛ أقسم على ذلك بالقلب وباللسان.

هذا القسم مشترك بيني وبين أصحابي، البالغ عددهم مئة؛ بين هؤلاء الذين وقّعوا الإقرار الحالي وأولئك الذين لم يوقّعوه، لأنهم لا يعرفون الكتابة البتّة.

سلام من عبد القادر، بن محيي الدين».

حين تلقّى إميل أوليفييه هذه النصوص ونقلها إلى الحكومة المؤقتة، إنما أوفى بعهده. فكتب إلى آراغو Arago، وزير الحربية

الجديد السطور التالية: «هذه إحدى قضايا الشرف الـوطني التي أورثنا إياها الحكم البائد... وإن لمن الأعمال المجيدة تنفيذ وعد قطعه ابن الملك، وحنثت به الملكية».

وكذلك الجنرال دوما، صديق عبد القادر، الذي كان قد عرف قائد الحرب وأُعجب برئيس الدولة، كان قد كتب بدوره طلباً أقل طموحاً إلى وزير الحربية، بغية التلطيف من وضعه: «يتبيّن أن من المستحيل إبقاء عبد القادر وجماعته في حصن لامالغ. فالمكان ضيق، وهؤلاء الناس معتادون على الهواء الطلق، على الحركة سيمرضون جميعهم. يجب إيجاد سُكنى أنسب لعاداتهم وتقاليدهم. إن الإنسانية تأمر بذلك».

وضع جواب آراغو حداً لكلّ الخزعبلات والشائعات. ولمرة وحيدة كان للحكومة الفرنسية موقف حاسم: «لم يكن يتعلق الأمر بأي تفاوض مع أية قوة استقبال. لا ترى الجمهورية أنها ملزمة بأي التزام تجاه عبد القادر، وتعتبره سجيناً كما كان وضعه في ظل الحكومة السابقة».

هكذا أقدمت الجمهورية على تلطيخ شرف كلمة فرنسا.

وبناءا على هذه الحيثيات، وتأسيساً على بعض محاولات الساعة الأخيرة، المستوحاة بلا شك من التساؤلات أو الانتقادات الدولية التي لابدّ أن يثيرها الموقف الحاسم للحكومة، جرى إيجاد تسوية: سيذهب الأمير إلى مدينة پو Pau في قصر هنري الرابع، مصحوباً فقط بأقرباء الأسرة والخدم.

تولّى كاتب الدولة للحربية، الجنرال شاراس Charras، وليس آراغو، مهمة إعلام الأمير بهذه الرسالة: «الجمهورية

هي حكومة الشعب، والشعب كريم، ولا يضربُ بعد النصر؛ عندما تزول كل بذرة نـزاع، ستدفنك فرنسا في أرض الإسلام، بانتظار ذلك، فإنها تمنحك مسكناً كبيراً وجميلاً في پـو. وإن لطافة الطقس وجمال المنطقة سوف يذكّرانك بالجزائر».

قرأ عبد القادر وأعاد قراءة هذه الرسالة. « عندما تزول كل بذرة نزاع »، إذا كان قد خلّف بذور نزاعات، ولا يمكن للنزاع إلا أن يكون مستديماً. وعليه فإن عبد القادر سيبقى أسيراً لدى الفرنسيين. لكن غضبه انفجر حين علم أنهم سيفصلونه عن أصحابه، وينقلونهم إلى جزر سان مارغريت Saint-Marguerite، أي وفقاً لأحكام مختلفة. قال: « لن ترغموني إلاّ بالقوة. ضعوا حبالاً في رقابنا، في رقاب نسائنا وأطفالنا، جرجرونا على الأشواك والحجارة إلى أن تتمزّق أجسامنا».

تحرّك الجنرال دوما، الحنون والطيب القلب، للحصول على شروط إقامة جديرة بأسيره الشهير. ولقد سعى إلى ذلك تقديراً منه لعبد القادر. هذا صحيح؛ لكنه سعى إلى ذلك بنحو خاص كضابط في الجيش يهمّه الحفاظ على صورة فرنسا. لأن فضيحة باتت بالضرورة مثيرة فيما يتعلق بعبد القادر، يمكنها أن تلطّخ صورة الجمهورية الوليدة، المشبوهة لدى العواصم الأوروبية.

ففي الماضي، كان قد سمع الأمير يقول له بلهجة هادئة، لكنها صارمة: « والحال، أليس لديكم محكمة مكلّفة بالإستماع إلى شكاوى المقهورين ؟ إذا كان هناك محكمة

واحدة، فليجرِ اقتيادي إليها؛ وليُدْعَ إليها كل علمائكم، وأنا كفيل بالتغلب عليهم بقوة حججي وحقي. آه! كم أنتم بعيدون من هذا السلطان المسلم الذي صار أصمَّ، فراح يبكي ويردُّ على أولئك الذين سألوه عن أسباب بكائه: « أبكي لأني لم أعد قادراً على الإستماع لشكاوى المظلومين »[1].

1- مقتطف من ملاحظات سجّلها العقيد دوما خلال مهمته في طولون.

عبد القادر في پـو

كان عبد القادر قد وصل مع أصحابه وعائلته بكاملها إلى قصر هنري الرابع، لأن قبل ذلك بثمانية أيام، عندما كـــان لا يزال في حصن لامالغ Lamalgue، كانت البارجة البـــاتروس l'Albatros قد أنزلت أخوة عبد القادر الثلاثـــة وعـــائلاتهم، ومجموعهم ثلاثون شخصاً.

لقد كانوا نفس الأخـــوة الثلاثة الذين كانوا قد استسلموا إلى دو لاموريسيير في منتصف ديسمبر 1847، الذي كان قد أعطاهم الأمان؛ وبعد رسوّهم في طولون، ساروا على الأقدام إلى حصن لامالغ. لكنهم حين كانوا يعبرون جســـر لفـــيس Lévis، لاحظت النساء أنهن يسرن بين صفين مـــن الـــدرك (الجندرمة)، وتسير وراءهن جمهرة من المتسكعين والفضوليين، فأطلقن صيحات أليمة، ناجمة عن الشعور بالمهانة.

عندئذ قال عبد القادر للجنرال دوما: « لمن أتوجّه حـــتى أحصل على إرسال أخوتي إلى الإسكندرية، الـــتي يمكنـــهم الانطلاق منها إلى مكة ؟ لقد جاؤوا للإنضمام إليّ بكل طيبة خاطر، وهم على قناعة بأنكم ستفون بالوعد الذي قطعتموه لي. لا يمكن ارتكاب خيانة مزدوجة بحقي. لماذا جعلتمـــوهم يشاطرونني قَدَري؟ إنهم مرابطون وأهل سلام، لم يشـــاركوا قط في كفاحي، وكانت السبحة بندقيتهم الوحيدة »[1].

كان الأمير حتى وصوله إلى مدينة پو Pau قد عكف علـــى إيهام أصحابه أن الأمر كان يتعلق فقط بتغيير مكان الإقامـــة، بانتظار أن تعيد فرنسا حريتهم إليهم، وهي الحريصـــة علـــى

احترام كلامها. لكنه كشف لهم الحقيقة البيّنة في پو. فهناك قضبان حديدية موضوعة على النوافذ، ودوريات تراقب من كل الجهات وتحرس المنافذ. وكانت أعمال ترميم القصر جاريةً بأمر من لويس فيليب، تكريماً لذكرى جده الشهير هنري الرابع الذي كانت پو موطنه.

فجرى إعداد شقق وأجنحة الطابقين الثاني والثالث للأمير، لكن في النهار فقط. أما في الليل فعلى الأمير وعائلته أن ينحبسوا في البرج الرئيس، وهو القسم الأكثر تقشّفاً، لأن قصر پو، على ما يقال، كان معرضا أكثر من أي قصر آخر لمحاولات الهرب، نظراً لقربه من الجبال والبحر.

كان عبد القادر على قناعة تامة بأنّه سجين في قصر. فقرّر إبلاغ أصحابه وعائلته بمضمون رسالة الوزير أراغو. واعتمد قاعدة جديدة، بما أنه أُخضع بالقوة لهذا الوضع، فلم يبق أمامه سوى حق الإعتراض على الأسْرِ الظالم. فكان يمارس حقه هذا كلما سنحت له الفرصة، إلى أن أُخْبر ذات يوم، في مطلع جويليه 1848، أن الجنرال دو لاموريسيير قد عُيِّن وزيراً للحربية.

الرجل الذي كان قد وقّع بيده اتفاق كربوس، صار في القيادة. ولئن كان الوزراء الذين سبقوه غير مطّلعين على تفاصيل الإستسلام، وبذلك لم يظنّوا أن من المناسب الوفاء بوعد لم يشاركوا فيه، فإن دولاموريسيير الخصم، الفاعل والشاهد، ما كان يمكنه في المقابل تجاهل التعهد الذي كان شخصياً قد قطعه له، تحت طائلة تلطيخ شرف فرنسا.

عندها كتب الأمير الرسالة التالية:

« الحمد لله وحده!

إلى ذلك الذي لا يجدر بوعده أن يتغيَّر البتة، والذي لا يمكنه الإخلال بعهدٍ قطعه، الشخص المشهور في الشرق والغرب معاً، والإسم المتداول على كل لسان، إلى صديقنا، أخينا السعيد دو لاموريسيير!

السلام عليكم، السلام الذي تجتمع فيه التهاني والتقديرات.

لقد شكرتُ الله عندما علمت أنكم، بعدما ظفرتم بأولئك الذين كانوا يثيرون الإضطراب، جرى تكليفك بمهمة توفير سعادة فرنسا. وعندها سُررت بتعيينك في الوزارة، وأنا مقتنع بأن هذا التعيين سيترتب عليه تحريري. ولقد جاءني فرنسيون كثيرون وقالوا لي: « يمكنك أن تعتبر نفسك حراً، لأن صديقك ذاك الذي أعطاك وعده، هو الآن في مرتبة عالية، ولا تعلوها قوة أرفع منها ».

وعليه، فأنت محبوب من الفرنسيين كافة، ولاسيما من أعضاء المجلس، نظراً لخدماتك الكبيرة التي أسديتها للدولة، وقادر على القيام بأمور أصعب بكثير من الأمر الذي تعهدتَ به تجاهي. هذا الكلام يعرفه أهل الشرق والغرب، في الأرض وفي الجُزر. والحال، لابد أن تخرجني من مجاهل النسيان التي طُرحت فيها، لأني مثل الرجل الذي رموه في البحر، ولكن الخلاص سيأتيني على يدك.

إن كثيرا ممن لا إلمام لهم بما وقع بيني وبينك يعتقدون أنك غلبتني في الحرب، وأجبرتني على التسليم عنوة وإلقاء السلاح،

ويُضيفون أنك أنت قمت بمطاردتي وتمكنت من أسري. فينبغي لك أن تكشف الحقيقة، وأن تقول لهم أنك لو لم تعلن لي عن وعودك، لما كنت ذهبت إليك، وأنك كنت بعيداً مني عندما كانت المفاوضات قد دارت بيني وبينك، وأن المسافة التي كانت تفصل بيننا، كانت على الأقل مسيرة عشر ساعات، وأن المفاوضات دامت أربعين ساعة، وأن طريق الجنوب كانت مفتوحة أمامي، وكذلك الطريق التي تقودني إلى الأمازيغ (البربر)، وأني كنتُ قادراً على المضي إلى حيث أرغب، حتى أن أضع نفسي بين يدي سلطان المغرب، وبدلاً من إماتتي، كان بخلاف ذلك سيغمرني بالإحسان.

لا يزال الفرنسيون يزعمون أن مسألة إرسالي إلى الشرق جديدة. قلْ لهم إن القادة الفرنسيين دعوني مراراً وتكراراً للسير في هذا الطريق؛ وأنهم سيّروا إلى تلك المناطق عدداً من الأفراد الذين وقعوا في قبضتنا؛ قل لهم كم دارت مفاوضات وجرت في مراحل شتّى بينهم وبيني حول هذا الموضوع؛ قل لهم أيضاً أن بين يديَّ مكتوبك الذي يقول إن الفرنسيين كانوا يقبلون بكل شروطي، وأنك تعهدت بشرف فرنسا، وأن أمير مدينة الجزائر أيّد تلك التعهدات.

وأضفْ أخيراً أني رجل ميت في نظر الناس، وأني أُقسم بأقدس الأيمان بأني لن أثير الفتنة بين رعاياهم في الجزائر، من العرب أو القبائل، من المسلمين أو اليهود. لقد منحك اللّه القوة، ولا يوجد شخص يمكنه قبول أي عذر من طرفك. إن لم تُعِدْ لي حريتي، ولم تقلْ لنفسك إن امرأتك حرام عليك!

اشرحْ إذاً كل هذه القضية للفرنسيين المشهورين بشرفهم بين الشعوب كافة، إذ يستحيل عليهم حين يفهمونها، أن لا يجعلوني أستعيد حريتي. إن لم تُقدم على ذلك، فسوف يقع عليك العار، ولن يعود أحد يصدِّق كلامك، ولا يعود أحد، كبيراً كان أم صغيراً، يكنّ لك أي تقدير!

سلام من عبد القادر بن محيي الدين.
حرّر بتاريخ السابع من شهر شعبان
1264، 09 جويلية 1848».

كانت رسالة أراغو على الرغم من فظاظتها في غاية الوضوح، بينما كان الصمت الذي لاذَ به دو لاموريسيير يُقارب الجبنَ السياسي وأسوأ أنواع الإحتقار. استولى الغضب على أصحاب الأمير. فذهبوا إلى حد الشروع برمي أنفسهم بلا سلاح على دوريات القلعة وحرسها، بهدف قتل أنفسهم. لكن المشروع جرى كشفه، كانوا يقولون: «لم نكن نريد الحرب، إنما نريد الموت حتى يراق دمُنا على شرف فرنسا، ويطبعها بطابعه، لأننا قد قُتلنا لمطالبتنا بتنفيذ الوعد الذي أُعطي لسيدنا».

تمكّن عبد القادر وحده من تهدئتهم. وحين علم الجنرال دوما بأن الأب دوبوش كان قد أعلن عن قدومه إلى مدينة پو، كتب له: «ستقومون بزيارة السجين الشهير، آه! لن تأسفوا على رحلتكم بالطبع. فلقد عرفتم عبد القادر في ازدهاره، حين كانت الجزائر بأسرها خاضعة لسلطته. والحال، سوف تجدونه أكبر، وأكثر إدهاشاً أيضاً في الخصومة... فهو لا يطلب شيئاً، ولا يهتمّ بأي شيء من أشياء هذه الدنيا، ولا

يشكو أبداً، ويعذر أعداءه ولا يسمح بأن يقال عنهم أي كلام سيء أمامه».

استقبل في الواقع زواراً كباراً، مثل المدّعي العام مارست Marrest، وهو ضابط بونابرتي سابق؛ وقال له: « أنتم رجل حرب وعدل. تعالوا لرؤيتي، وسوف نتحدث عن العدل والمعارك، وخصوصاً عن العدل. وسوف نقارن العدل الذي تعتبرونه همجياً بالعدل الذي تظنونه متحضِّراً».

يروي أستاذ مدرسة في جريدة (ذاكرة البيرينيه) مشهداً وجده مثيراً: جاء السيد بوغنار Bugnard ليهدي عبد القادر خاتماً ذهبياً رائعاً، مرصَّعاً بجزء من ضريح نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة، وكان الجنرال برتران Bertrand قد قدَّمه له. في بادىء الأمر صاح الأمير به، لكنه عندما أكد له بوغنار أنه يملك جزءاً آخر من الحجر الثمين، تقبّل الهدية ووضع الخاتم في خنصر يده اليمنى: « ربما سيحمل لي السعادة ؟». في الحقيقة كان الأمير معجباً بنابوليون، وكان قد تحدّث مع دوما ثم مع بواسوني عن الإمبراطور في عدة مناسبات.

كما قامت سيدات المجتمع بزيارة والدة الأمير وزوجته. وكنّ يتسلين بحلاقة الرأس على غرار (الموضة) الجزائرية. وكانت سيدة شابة جميلة وبالغة الأناقة، قد وجدت نفسها فجأة أمام الأمير، فطرحت عليه سؤالاً غريباً :

– لماذا عندكم عدة نساء، وليس امرأة واحدة، كما هو الحال عندنا؟

– سيدتي، نحن نحبُّ الواحدة لعينيها، والثانية لشفتيها، والثالثة

لجسمها، وأخيراً الرابعة لعقلها وقلبها؛ ولو وجدنا هذا كله مجتمعاً في امرأة واحدة مثلك، لما اخترنا أخريات معها!.

كان عبد القادر الشاعر هو الذي يتكلم! إذ كان يفضّل المناقشات السياسية خصوصاً مع الرائد بواسّوني الذي حلّ لديه محل العقيد دوما (أصبح جنرالا). فقد كان مهتماً بالتغيرات الجارية في فرنسا. فالجمهورية التي يُقال أنها عادلة، إنما كانت تمارس في نظره، سياسة ظلم أشد أيضاً من سياسة الملكية. وكان بواسّوني ينكبُّ على أن يشرح له المتغيرات الطارئة، من أسبابها إلى نتائجها.

أدت الإنتفاضات التي وقعت في باريس أيام 22، 23 و24 فيفري إلى تنحي الملك لويس فيليب، لمصلحة حفيده كونت باريس. وفيما كان الملك يهرب للوصول إلى إنكلترا، حاولت دوقة أورليان يوم 24 فيفري، أن تقدّم ولدها إلى مجلس النواب وتجعله يعلن الوصاية. غير أن دخول الثوار إلى قصر بوربون أثار جنون النواب وعجّل في رحيل الدوقة.

أعلن المتمرّدون الجمهورية. وفي اليوم نفسه جرى تشكيل حكومة مؤقتة؛ وكان في من ضمنها لامارتين Lamartine، لدرو رولان Ledru Rollin، لويس بلان، Louis Blanc آراغو Arago، والعامل ألبير Albert: هذا الفريق غير المتوقّع، الذي رفعته الظروف إلى رأس الدولة، كان يتقلّد في غياب كل مؤسسة، السلطات التنفيذية والتشريعية: فهو يشرع ويحكم في وقت واحد.

على الرغم من كون الحكومة المؤقتة غير مؤهلة للنظر في شكل المؤسسات المقبلة، فقد اتخذت قرارين أساسيين يوجّهان

المستقبل: إعلان الجمهورية وإقرار الإقتراع العام. صدر قرار في 05 مارس، يحدِّد كيفية تنظيم انتخاب أعضاء الجمعية التأسيسية القادمة: من الآن فصاعداً، سيكون من الناخبين جميع الفرنسيين البالغين 21 سنة وما فوق، والمقيمين في البلدة منذ ستة أشهر، والمتمتّعين بكامل حقوقهم المدنية. ولقد كان مضمون هذا القرار كبيراً: إذ أن الهيئة الإنتخابية سترتفع من مائتي ألف إلى أكثر من تسعة ملايين. فمع اعتماد الإقتراع العام المباشر والسرّي، غدت الجمهورية الموحّدة وغير القابلة للتجزئة ديمقراطية؛ والإجراءات الجديدة سوف يستفيد منها نابوليون الثالث لاحقاً.

إن لامارتين الذي كان يدافع في المجلس عن عبد القادر، قد فرض يوم 25 فيفري العلم المثلث الألوان كراية وطنية للجمهورية، بدلاً من العلم الأحمر. صحيح أن الشارة الوطنية المثلثة الألوان، التي جرى اعتمادها سنة 1789، كانت ترمز إلى الإتحاد بين الشعب والملك؛ إذ كان الأبيض يرمز إلى الملك، والأزرق والأحمر يرمزان إلى باريس. لكن هذه المرة، جرى تغييب الملك بلا رجعة.

توالت الأسابيع على الأمير دون أن تصله أية إشارة من باريس. لكنه بعد المناقشات المشجّعة دوماً مع بواسّوني، استشعر بأن شيئاً ما سيحدث: ذاك أن الكثير من التقلبات السياسية لا يمكنها إلا أن تُفضي ذات يوم إلى فسحة، إلى بداية حلّ، ما دامت تجليات الودّ تواصل الإحاطة به. حتى أن أهل پو القليلين، أعربوا له عن مودتهم ومحبتهم. ففي بداية ماي المشمسة، تجمّعت جمهرة من مدينة پو في باحة القلعة، مطالبةً بظهور الأمير. فلبّى الطلب، وبما أن ذلك اليوم كان

يوم جمعة، ألقى بضع كلمات على سبيل التحيّة والإخاء البشري. غير أنه رفض الخروج، كان يقول: « لا يخرج العربي من خيمته وهو في حالة حداد. أنا في حداد على حريتي »، « عند المسلمين لا يدوم الحِداد. لكن حِداد الحرية يدوم إلى الأبد ».

وفي آخر المطاف، قرّرت الحكومة نقل الأمير من قصر پو إلى قصرآمبواز Amboise. وفي انتظار ذلك، لم يعد في مُستطاع الأمير وأصحابه أن يتصلوا بالخارج، ولا أن يكتبوا أو يتلقّوا رسائل، ولا أن يستقبلوا زائرين؛ وأكثر من ذلك: « حرمانه من أية فرصة لتعلّم الفرنسية ». كل ذلك حمل توقيع وزير الحربية دو لاموريسيير.

فالرجل الذي كان قد وقّع عن الجانب الفرنسي، تبادل الرسائل مع الأمير، كان ينكر توقيعه الشخصي، أي توقيع فرنسا ما دام قد كان يتصرّف باسمها في أزمنة أخرى، في أماكن أخرى، كان يُمْكن وضع علامة شرف لرؤية الأمير يتعلّم الفرنسية.

لقد كان دو لاموريسيير خادماً سيئاً للفرنكوفونية، التي لم تكن قائمة بعد كمؤسسة؛ لكنها كانت مطمحاً وطنياً تعلنه فرنسا، وهو بلا شك مطمح مشروع.

فهل صار الأمير بالغ الخطورة ؟ يتذكّر ذات يوم أنه كتب إلى زوجته وهو عائد من معركة مظفرة، رسالة شعرية (تسائلني أم البنين) تنتهي هكذا:

وعني سلي جيش الفرنسيس تعلمي

بأن مناياهم بسيفي وعـــسالي*

سلي الليل عني كم شققت أديـــمه

على ضامر الجنبين معتدل عال

سلي البيد عني والـــمفاوز والربى

وسهلا وحزنا م طويت بترحال

فما همـــتي إلا مـــقارعة العـــد

وهزمي أبطالا شـــدادا بأبطالي

فلا تهزئي بي، واعلمي أنني الذي

أهاب، ولو أصبحت تحت الثرى بالي

وكانت صحف المـــدينة قد تبنّت قضيته ودافعت عنـــها؛ فكان أبرز مقال هو الإفتتاحية التي كتبها باتريـــك أوكلـــين Patrik O'Qulin رئـــيس تحـــرير جريدة (ذاكرة البـــيرينيه): « إن التاريخ سوف يلوّث سمعة إنكلترا لسلوكها غير الشريف تجاه نابوليون. فهل سيجد كلمات شديدة القسوة لوصـــف تجاهلنا حُرمة المعاهدات؟ ».

والحال، فقد كان نابليون بونابرت (نـــابليون الأول 1769-1821) قد نُقل يوم 15 جويلية 1815، علـــى مـــتن البارجـــة البريطانية بلّروفون، بالإتفاق مع القبطان متلانـــد Maiteland على أمل الحصول على اللجوء السياسي الذي كان موعـــوداً به.. وفي يوم 26 جويلية، اقترب مـــن بليمـــوث Pleymouth،

بينما كانت السلطات تنظر في مصيره. يوم 31، أصدرت حكومة سان جامس Saint James حكمها. ولما اعتبرته الحكومة البريطانية مجرم حرب، قرّرت نفيه لأسباب أمنية مدى الحياة إلى جزيرة القديسة هيلان Sainte Hélène، وهي جزيرة صخرية ومعزولة، مات فيها بعد خمس سنوات.

أمام هذا الحكم القاسي، كتب نابوليون اعتراضاً، جاء في آخره: « إني أنادي التاريخ: سيقول إن عدواً حارب الشعب الإنكليزي عشرين سنة، قد جاء بكل حرية في محنته، باحثاً عن ملاذ في ظل قوانينكم. فأي دليل أسطع من هذا كان يمكن أن يقدمه لهذا الشعب على تقديره له وثقته به؟ لكن كيف كان الردّ في إنكلترا على استرحام كهذا؟ جرى التظاهر بتقديم يد مضيافة لهذا العدو، وعندما سلّم نفسه بحسن نية، جرى ذبحه.

على متن بلّروفون في البحر. التوقيع: نابوليون» (2)

حين قارن كاتب افتتاحية جريدة «ذاكرة البيرينيه» بين وضعي بونابرت والأمير، شدّد على «تجاهل صدق المعاهدات»، من جانب فرنسا. فقد كان الأمير عبد القادر قد اعترض، مثل نابوليون وبأبلغ قوة على «ما كان قد أصابه من عنف» وعلى «انتهاك حقوقه». ولئن كان الدليل الذي رماه بونابرت في وجه إنكلترا لا جدال فيه، فإن دليل عبد القادر حين خاطب دو لاموريسيير، كان يقدّم محاجّة ذات منطق قوي.

فلنتوقف فقط أمام بعض الحقائق:

1 - كان نابوليون قد كتب: « إني أعترض علناً أمام السماء والناس » وكان عبد القادر قد كتب: «هذه الكلمة (كلمة دو لاموريسيير)، يعرفها أهل الشرق والغرب، أهل البرّ والجزر».

2 - كان نابوليون قد كتب: «لقد جئت بكل حرية على متن بلّروفون، فأنا لست سجيناً، بل أنا ضيف إنكلترا »، وكان عبد القادر يقول: « لو لم تقطع لي عهوداً ووعوداً، لما كنت ذهبت إليك ».

3 - كان نابوليون قد كتب: « لقد جئتها بتحريض من القبطان بالذات، لاستقبالي واقتيادي مع حاشيتي إلى إنكلترا، إن كان ذلك يحلو لي»، وكان عبد القادر يقول: «لقد كنتَ بعيداً مني عندما دارت المفاوضات بينك وبيني؛ وكانت المسافة التي تفصلنا، على الأقل مسيرة عشر ساعات؛ ودامت المفاوضات أربعين ساعة ».

4- بينما كان نابوليون قد تلقّى تعهداً شفهياً من قبطان السفينة باسم حكومته،كان عبد القادر يقول: « بين يدي مكتوبك الذي يشهد أن الفرنسيين كانوا يقبلون بكل شروطي ». وهذا ما يُدعى اليوم في الأعراف الدبلوماسية، بتبادل رسائل، لها قوة اتفاقية، قوة معاهدة بين حكومتين سياديتين؛ دون أن ننسى أن التصديق على هذا المكتوب قد قام به ابن الملك شخصياً، وبحضور موقّع الرسالة. ولئن كان كاتب التعليق قد لام إنكلترا على عدم احترام تعهّد لفظي،

فسوف يكون في إمكانه أن يلوم أكثر فرنسا، على عدم احترامها لتعهد مكتوب، كان فوق ذلك نتاج تفاوض دام أربعين ساعة.

كان نابوليون قد جاء طالباً اللجوء السياسي على أرض عدوّه بالأمس. وكان عبد القادر قد طلب، وحصل خطياً على الذهاب للإقامة في أرض إسلامية. كان نابوليون يثق في كلام أمة عظمى، فمضى لرمي نفسه في فم ذئب. أما عبد القادر فقد رفض الإقامة لدى خصمه السابق، حتى ولو بصفة ضيف شرف، كما اقتُرح عليه لاحقاً.

ولئن صممت إنكلترا على إرسال بونابرت إلى القديسة هيلانة، تلك الجزيرة البعيدة والمعزولة، فذلك لكي لا يتمكن أبداً من المطالبة بعودة مفاجئة إلى القارة، مثل العودة إلى جزيرة الألْب Elbe. وإذا كانت فرنسا قد قرّرت إبقاء عبد القادر على الأراضي الفرنسية، خلف قضبان قصر محصّن، أو حتى في حرية مراقبة بالضرورة، فذلك حتى لا يستطيع أبداً وضع قدميه في بلده، لأنه أراد دفع المعتدي.

---

1 - مقتطفات من ملاحظات العقيد دوما.

2 - إليكم نصّ الاعتراض الذي أُرسل إلى اللورد كيث:

«إني أعترض هنا علناً، أمام السماء والناس، على ما أصابني من العنف، على انتهاك أقدس حقوقي، حين جرى الإعتداء بالقوة على حريتي وشخصي. لقد جئت بكل حرية على متن بلّروفون؛ أنا لستُ سجيناً، بل أنا ضيف إنكلترا. لقد جئتها بتحريضٍ من القبطان، بالذات، الذي

قال إن لديه أوامر من الحكومة باستقبالي واقتيادي إلى إنكلترا مع حاشيتي، إن كان يحلو ذلك لي. فحضرت بنيّةٍ طيبة، لوضع نفسي في حماية قوانين إنكلترا. وما أن جلست على متن بلّروفون، حتى صرتُ في منزل الشعب البريطاني. ولئن كانت الحكومة، حين أعطت الأوامر لقبطان بلّروفون لاستقبالي مع حاشيتي على هذا النحو، لم تكن تريد سوى نصب شَرَك، فلقد لطّخت شرفها ودنّست سفينتها الحربية».

«ولئن جرى ابتلاع هذه المقالة، فسوف يكون من العبث أن يرغب الإنكليز، من الآن فصاعداً، في الحديث عن نزاهتهم، عن قوانينهم وعن حريتهم. سوف يضيع الصدق البريطاني في ضيافة بلّروفون».

* العسال: الرمح.

عبد القادر في آمبواز وإطلاق سراحه

بما أن الحكومة الفرنسية قرّرت نقل الأمير إلى قصر بمدينة آمبوازAmboise، فقد غادر مدينة پو يوم 02 نوفمبر 1848 مصحوباً بكل مرافقيه. أخذ مكانه مع ولديه في عربة خيل مكشوفة، يتبعهم على حصان الرائد بواسّوني وعدة ضباط آخرين وفصيلة من الدرك. ناول أحد أفراد الحراسة ظرفا موجّهاً إلى خوري سان مارتان، يقول فيه: «سوف يعذرني، لكن شحّ مواردي لم يسمح لي بغير هذه الصدقة المتواضعة».

كانت السفينة التي تنقله من بوردو Bordeaux، قد عبرت لاجيروند La Gironde ومضت إلى مدينة نانت Nantes حيث حيّاه الجيش، بينما كانت تتردد ثلاث عشرة طلقة مدفعية في الفضاء. لكن في آمبواز، حيث كانت زينة جديدة قد أُعدّت لعبد القادر، كانت الحراسات في كل مكان، وكانت الدوريات متحرّكة، حتى إن مفتشي الأمن العام كانوا متمركزين في بيت مشرف على المدخل المُحَجَّر من قبل، والذي كان يؤدي إلى القصر.

ما كاد يمضي شهر على وصوله إلى آمبواز، وفيما كان عبد القادر يتساءل عن دلالة هذا التعزيز لتدابير الرقابة، حتى جرى التخفيف من أسره الجديد بالإعلان عن انتخاب الأمير لويس نابوليون لرئاسة الجمهورية. فظهر له الأمل مجدداً.. حتى إن تسريبات قد سَرَت حول نية الأمير الفرنسي في التوسيع على الأسير، كتلك التي نشرها جريدة (Le Crédit).

وفعلا، فقد أشارت الجريدة إلى أن رئيس الجمهورية الجديد كان قد دعا إلى اجتماع استثنائي، حضره الماريشال بيجو والجنرال شانغارنييه، للتداول في المصير الواجب تقريره بشأن الأمير عبد القادر.

وبينما كان كل من بيجو وشانغارنييه يؤيدان إطلاق سراحه، كان وزير الحربية الجنرال روليير Rulhiere معارضاً لذلك معارضة قاطعة. للإقتناع بذلك. يكفي أن نقرأ المراسلة التالية المنشورة في جريدة (المورنينغ پوست) سنة 1852، أي بعد تحرير الأمير: «كان أحد أصدقائي، الذي كان وزيراً لدى لويس نابوليون مباشرة بعد انتخابه سنة 1848، قد أخبرني أن لويس نابوليون تداول في أحد المجالس الأولى المعقودة في قصرالإليزيه، حول تحرير الزعيم العربي الشهير.ومما يلاحظ اليوم أن عبد القادر، لو لم يُطلق سراحه قبل الآن، فذلك لأن رقابة الجمعية الوطنية كانت بين الأميروالوزير».

أن يدعو لويس نابوليون إلى عقد اجتماع استثنائي، إثر انتخابه ببضعة أسابيع، للتداول في القضية، فهذا أمر لا يدعو إلى الدهشة. ففي الواقع كان لويس نابوليون قد خصّ القضايا الجزائرية دائما باهتمام خاص. فهو عندما كان منفياً في لندن، دعا سنة 1839 (أي بعد استئناف عبد القادر للقتال)، الحاكم العام السابق درويه درلون للقدوم إليه، للتداول في الوضع في الجزائر. وعندما صار رئيساً للجمهورية طرد لويس فيليب، وكان من الطبيعي أن يسجل نقطة مشرّفة بإصلاح الأذى الذي ألحقه الملك بالأمير، وبالتالي محو العار عن فرنسا.

عقد هذا الإجتماع يوم 14 جانفي 1849.وكان على الماريشال بيجو أن يزور آمبواز يوم 29 من الشهر نفسه، لمقابلة الأمير وإطلاعه على مقترحات جديدة. لكنه انشغل بالإضطرابات التي اندلعت في باريس، فكتب رسالة إلى عبد القادر يعتذر فيها عن مهمة كان لويس نابوليون قد كلّفه بها، لأن من الصعب التصوّر أن بيجو يمكنه القيام بمبادرة كهذه لدى الأمير، دون تعليمات من رئيس الجمهورية، أو على الأقل دون موافقته الشكلية.وبالتالي من الصعب افتراض غياب الترابط بين اجتماع 14 جانفي والزيارة المتوقعة لآمبواز يوم 29 منه.

« إلى الأمير عبد القادر، كان مرادي التوجه إلى حضرتك لأفاوضك في أمرك، الذي أنت فيه. ولكن منعني اضطراب الأحوال، وحيث أن الكتاب قد يقوم مقام كاتبه فيما يرومه، فإني أقول: إنك قد قاسيت أهوالا عظيمة، وبسببك احتملت بلاد الجزائر مصائب جمة. ولحق فرنسا منها أوفر نصيب.

ومن حين ألقيت بنفسك وبمن معك إلى العساكر الفرنسية، وصرتم في قبضتها، حدث في فرنسا اضطراب لم ينقل التاريخ مثله. فلا شك أن بلادك وبلادنا استحقا هذا القصاص لأمر ما. فإن الله حاكم عادل، ولا أحد يدرك ما يريد.

فالملك الذي سقط في الأيام الماضية، كان وعدني وعدا وثيقا بإطلاق سراحك وإرسالك إلى مكة، ثم جاءت الحكومة التي قامت عليه وخلفته، فنظرت في أمرك، وجنحت إلى ما جنح إليه الملك. ولكن أجبرها الصوت العمومي على ترك ذلك.

والآن أخبرك إخبار صاحب حقيقي لك: إنه ربما تمضي سنون عديدة ولا يتيسر لك التوجه إلى المواضع التي طلبتها، وإن سليت نفسك بالأماني الباطلة، فإن ذاتك تصير في أشد الكدر. وبناء على ذلك أشير عليك أن تكون على حسب الحال التي أبرزها حوادث الدهر، على وفق الإرادة الإلهية.

وذلك بأن توطن نفسك على جعل فرنسا وطنا لك، فتطلب من الحكومة أن تعطيك أملاكا جيدة في أرضها، ينتج لك منها ما تعيش به، كواحد من كبرائها، مع مداومتك على أداء وظائفك الدينية كما تريد، وبلوغ مرادك في تربية أولادك، حيث أني أعلم أن أمر المعاش لا يهمك، وإنما يهمك مستقبل أولادك، مع حقوق الجماعة التي هم في معيتك.

فإنك تراهم يموتون كمدا، مع أنهم لو كانوا في أرض تخصهم، لكانت أيامهم تمضي بكل سرور، لأن حراثة الأرض ألذ شيء عندهم. ويمكنهم أن يتنزهوا ويتسلوا بالصيد متى شاءوا، فيكون لهم من رؤية أشغالهم كل يوم فرح جديد، والحق تعالى لم يخلق شيئا أعظم تسلية للأنفس من منظر الأشجار والنباتات الغريبة في الكون، الحسنة اللون.

فهذا ما أشير به بحسب الحقوق الإنسانية، وبالخصوص عليك، لما ألم بك من المصائب، مع اتصافك بالصفات الحسنة، التي وهبها الله لك، راجيا قبول تحياتي المقدمة مع الإكرام والإحترام.

الماريشال ب. دو إيسلي

05 ربيع الأول 1265 هـ، 28 جانفي 1849 م »

وبعيدا من أن تحظى هذه الرسالة بأقل نجاح، أثارت ردّ فعل كان لابد من ارتقابه. فانتهز الأمير الفرصة لتقديم احتجاجات شديدة: « لو جمعت فرنسا كل كنوز الدنيا في ذيل برنسي، ثم خيَّرَتني: بين أخذِها وبين حرّيتي، لاخترْتُ حريتي.

فأنا لا أطلب رحمةً ولا نعمةً؛ إنما أطلب تنفيذ التزامات جرى التعهّد بها نحوي. كنت قد طلبت عهدا فرنسيا؛ وكان جنرال فرنسي قد أعطاني إياه بلا قيد؛ وأكده جنرال آخر ابن الملك؛ فكانت فرنسا ملتزمة تجاهي مثلما هي ملتزمة تجاه نفسها. واليوم، طلب الرجوع عن ذلك يعني طلب المستحيل. لن أعيدَ كلامكم إليكم؛ بل سأموت معه لتلطيخ شرفكم. ومن خلال مثالي، ستعلم الشعوب والملوك أية ثقة يمكنهم أن يضعوها من الآن فصاعداً في العهد الفرنسي».

كان لويس نابوليون قد تصوّر، إذا تقبّل الأمير عَرْضَه، أن يضع قصر تريانون تحت تصرّفه. لكن ظرفاً غير متوقّع كان قد جعل رئيس الجمهورية يؤجّل حتى إشعار آخر، كل فكرة بإطلاق سراح عبد القادر.

وفيما كان بيجو يتلقّى جواب الأمير، كان الجنرال فابفييه يطالب من على منبر المجلس، بنية شريفة، دفاعاً عن حرية عبد القادر وعن شرف فرنسا، بتنفيذ اتفاقية تلّ كربوس، لاحظ عضو في المجلس أن الأمير، « حين أمرَ بمجزرة أسرانا، إنما كان قد وضع نفسه خارج القانون».

فقد سجل التصويت النيابي الذي تلا المناقشة، الإرادة الطيبة للويس نابوليون. منذ تلك اللحظة، لم يعد أسير آمبواز يتوقع

حرية إلا في المستقبل البعيد. لكنه كان يحتفظ بالأمل، كنوع من اقتناع حميم، بأن وريث أسير القديسة هيلانة سينتهي بـــه الأمر إلى إنصاف أسير آمبواز.

كتب الكونت دو سيفري le Comte de Civry: « ذلـــك الذي كانت الصحراء أُفقه، والذي كان يأمر قبائل لا تُحصى ويقود محاربين لا يهزمون، وكان يُخشى جانبه كفاتح، ويُطاع كملك ويُبجّل كسيِّد. والذي كان طيلة خمس عشرة سنة لا يتوقف عن العبور بجواده العربي وبكل سرعته، ميدان قتـــال أوسع من إمبراطورية... رأى فجأة الجدران الأربعة لقصـــر محصن ترتفع في وجهه ».

لقد كان عبد القادر مقتنعاً بأمر واحد: هو عـــدم اليـــأس وانتظار أيام أفضل. لهذا، كان يلزمه تنظيم حياته في القصـــر. فعلى الرغم من إلحاح الطبيب الذي كان ينصحه بالتنزه، ظل منحبساً، وهو يقول: « لا يمكن للصحة أن تأتي مـــن هـــواء السجـــن.فما يلزمني إنما هو هواء الحريـــة: هو وحده قـــادر علـــى شفائي».

كان يحبس نفسه لكي يعزّيها بالعمل والدراســـة. فكـــان الرائد بواسّوني يقضي معه عدة ساعات كل يـــوم. وكـــان يشرح مطوّلاً للأمير العادات والتقاليد الأوروبية والفرنســـية، وتطورات العلوم والصـــناعة، والأدب والفلســـفة والتـــاريخ الفرنسي. وأثار الفضول لدى رجل كان يُجيد ثقافة عربيـــة عظيمة،فراح يجري مقارنات بين العصـــور في أوروبـــا وفي الشرق، وبين عظماء الرجال. وكـــان الجانـــب المخصـــص

لنابوليون الأول مهيمناً على محاورالهما، لأن عبد القادر كان عاكفاً على إضاءة المناطق الظليلة في أسطورة بونابرت الرائعة.

وكانت القومية والروحانية والإنسانية وتجلياها في المجتمعات تجعل الرجلين يغوصان في مناقشات مثيرة، غالباً ما تُستأنف في اليوم التالي بمزيد من الإهتمام. كان عبد القادر يستمتع بتشريح ذلك كله، ودرس مختلف الموضوعات برؤية شمولية، الأمر الذي أدى به فيما بعد إلى بلورة أفكاره في «رسالة إلى الفرنسيين» أرسلها إلى الجمعية الآسيوية من خلال رئيسها دِو رينو De Reynaud وهو أيضاً عضو في المعهد. لم يكن الأمير على هذا النحو، يخاطب الحكومة في هموم فكرية محضة، بل كان يخاطب الشعب الفرنسي عن طريق ممثليه الثقافيين. كان أول مترجم لهذا العمل دِو غوستاف دوغا De Gustave Dugat، وبطلب منه، وافق الأمير عليه بكل طيبة خاطر. وكان العنوان:

(ذكرى العاقل وتنبيه الغافل)

(Rappel à l'intilligent, avis à l'indifferent),

وطيلة هذه الفترة، تبادل مع الجنرال دوما مراسلات وفيرة وغنية حول العادات والتقاليد والأعراف والزواج والطلاق والوراثة والجياد العربية أو الأصيلة، حيث كان يردّ على الجنرال بوضوح مرموق وأحياناً بأشعار عذبة، كتلك القصيدة الشهيرة التي قارن فيها بين الحياة البدوية والحياة الحضرية، مفضّلاً بالطبع الأولى على الثانية.

هكذا، كان عبد القادر يقضي أيامه في آمبواز بين الدراسة والتأمل في موضوعات إنسانية بامتياز، وبين الصلوات والتأملات الدينية.

* * *

توفي الماريشال بيجو في باريس سنة 1849 بوباء الكوليرا، خصمه بالأمس والمدافع عنه اليوم. فقدّم الأمير تعازيه الحارة إلى العائلة. وكان هو نفسه قد فقد ابنه وابناً وحفيداً وعدة أفراد من حاشيته؛ وعندما غادر آمبواز، ترك في مقبرة المدينة خمسة وعشرين قبراً مسلماً.

وأخيراً سيغادر مدينة آمبواز لاستعادة حريته. كان ذلك يوم 16 أكتوبر 1852. ففي صباح ذلك اليوم، كان الرائد بواسّوني قد تلقّى الأمر بتحضير سري للعربات في محطة آمبواز لنقل الأمير لويس نابوليون إلى القصر، وكان عائداً من جولة في بوردو محاطاً بحاشيته. لكن عبد القادر ما كان ينبغي له أن يكون مطّلعاً على شيء. خلال وصول الأمير الفرنسي ونزوله من القاطرة، وبعدما تحادث لحظة مع الرائد بواسّوني، صعد إلى العربة، وأخذ ورقة وقلماً وراح يكتب بضعة لحظات.

حين وصل إلى القصر، يتبعه الجنرال سانت آرنو، والسّادة: فولد، باروش، الجنرال روكيه، العقيد فلوري، وعدّة ضباط آخرين، جرى إيصاله إلى القاعة الكبرى التي كان الأمير يستعملها كغرفة استقبال، وأمر بواسّوني بدعوة الأمير إلى الحضور.

لنترك الأمير يروي بنفسه ذلك اللقاء التاريخي: « يقول لنا: عندما دخلتُ وقف السلطان الذي كان قاعداً على كنبة. وكان وزراؤه وضباطه عن يمينه وعن يساره. فتقدّمت حتى تلك الطاولة الموضوعة في وسط الصالون، والتي كانت تفصلني عنه. وكان الرائد عن يميني. عندما حيّيتُ السلطان من القلب، نطق بعدة كلمات فرنسية لم أفهمها، لكنني كنت من

خلالها قد تميّزت كلمة الحرية، إحدى الكلمات التي أعرفها جيداً في لسانكم، لأنها هي التي ردّدها غالباً. ثم استدار نحو الرائد وناوله ورقة، مضيفاً بضع كلمات. علمت عندئذ أنه كان يأمره بأن يترجم لي ما كانت تنطوي عليه تلك الورقة المكتوبة.

لكن الرجل المسكين كان شديد الإنفعال أمام كلمات السلطان الأولى، خلال لحظات معدودات بدت لي أنها طويلة جداً، لدرجة أنه لم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة، وبالتالي عجز عن إبلاغي مضمون ما جاء فيها. ولما استعاد رباطة جأشه، ترجم لي كلمات السلطان وعلمت أنني صرتُ حرّاً».

أما السطور التي كتبها لويس نابوليون في الطريق بين محطة آمبواز والقصر، والتي جعلت قلب عبد القادر يخفق ويتماوج، بعدما أُفعم بالسعادة من أثر المفاجأة، فهي التالية:

« عبد القادر، إني أتيت لأعلن لك بحريتك، وأنك ستحمل إلى بروسيا في دولة السلطان. وعند الإنتهاء من الترتيبات الضرورية ستتلقى من الحكومة الفرنسية معاملة تليق بمقامك السامي[1]. واعلم أن سجنك قد كدرني كدرا حقيقيا مدة طويلة، لأنه ذكرني بأن الحكومة التي سبقتني لم تفي بالتزامات تم اتخاذها نحو عدو. وفي نظري لا شيء أكثر إهانة لحكومة أمة كبيرة من عدم الوفاء بوعدها...، لقد كنت عدوا لفرنسا، لكن هذا لا يمنعني من الاعتراف بشجاعتك وقوتك وصبرك في الشدائد، لهذا سألتزم بشرف إنهاء سجنك واثقا ثقة تامة في عهدك.

حرر في 16 أكتوبر 1852 ».

أعرب له عبد القادر عن شديد امتنانه. و لم يقسم أي يمين. وحين مضى لمناداة والدته حتى تقابل الأمير الذي سيقبِّل يدها، التقى أصحابَه وزفَّ إليهم البشرى. وعندما غـادر لـويس نابوليون القصر، التقى بكل أصحاب عبد القادر المكدَّسين في الممرّات، لأنهم كانوا قد توافـدوا لكـي يحيّيـوا محـرِّرهم ويصفقـوا له.

كان العمل الأول لعبد القادر هو جمع أصحابه والـدّعاء معاً حتى ينزل اللّه بركاته على السلطان، الذي كان قد أعـاد إليهم حرّيتهم. ثم صعد إلى جناحه، ناسياً في لحظـة سـعادة مفاجئة، خمس سنوات من الأسر الطويل والشديد.

ثم ألّف قصيدة طويلة، تمجيداً لنابوليون الثالـث، إلـيكم أبياتها الأخيرة:

« باريسُ لَكِ البُشرى

فقد عاد إليكِ

ذلك الذي أنقذكِ من البأساء

لك البُشرى يا باريس!

لقد عاد إليك الذي تسودين به على الممالكِ الأخرى؛

فكل المدن الأخرى تحسدكِ على أميركِ

كما تحسدكِ الشمس الساطعة ونجم الليالي

سيّدي، يا سيّد الملوك

يا سليل نابوليون، العظيم، الساطع،

كنتُ آملُ منكَ عملاً يليقُ بك

عملاً يعود على صانعه
بالمجد وثواب السماء
وها أنا أراه: لم يشأ اللّه سواك لإسعادي.
فاحمدوا اللّه، جميعاً، بلا حد!
فأنت حين أنعمت عليَّ بهذه النعمة
إنما أنعمت بها على إنسانٍ سيكون سعيداً بأن يشكرك
فهو صاحب قلب مؤمن ».

1 - تلقّى عبد القادر معونة سنوية بقيمة مائة ألف فرنك.

إستقبال عبد القادر في باريس

بما أن عبد القادر قد طلب الإذن له بزيارة باريس، فقد وصلها يوم 27 أكتوبر1852 برفقة الرائد بواسّوني، والمخلص قاره محمد القائد السابق لخيّالته، والشاب بن علال حفيد الخليفة المقتول في معركة 11 نوفمبر 1843.

كان ثمة عرض بالأوبرا في ذلك المساء، حيث كان يُفترض إنشاد مقطع على شرف الرحلة الأميرية إلى بوردو، حيث كان الأمير الفرنسي قد أعلن: «الإمبراطورية هي السلام»، والتي كان يُفترض أن يحضرها لويس نابوليون. فجاء إلى الأمير عبد القادر العقيد هنري، مساعد معسكر الجنرال سانت آرنو، ناقلاً إليه دعوةً من الوزير لحضور العرض. أبدى عبد القادر اهتماماً قليلاً، فهو مُنهك من السفر؛ لكن العقيد سارع إلى إبلاغه بحضور لويس نابوليون، مما جعل الأمير يغيّر رأيه ويقول له: « سأرى السلطان؟ ». قال لـه « من بعيد » «لا فرق، ردّ عبد القادر، المهم هو أن أراه». وذهبا على التوّ.

كانت القاعة مكتظة بالأرستقراطية الباريسية وأعيان الدولة وأركان الجيش، وشخصيات من عالم الفنون والعلوم. وما أن دخل عبد القادر وجرى التعرّف عليه، على الرغم من عدم العلم بوجوده في باريس، حتى انصبّت كل الأنظار نحوه. ولم يتعيّن عليه التخلّص من ذلك الفضول الودّي والحارّ، إلا عندما ظهر الأمير الفرنسي وعلا التصفيق لتحيته. فهل كان عبد القادر سيتمكّن من تحيّة محرِّره؟ جاءه الردّ سريعاً، سوف يُستقبل أثناء الإستراحة.

لقد حانت اللحظة التي انتظرها الأمير مطوّلاً. جرى نقله من مقصورته إلى مقصورة لويس نابوليون. وعلى طول الممر، كان أفراد هذا الحضور الساطع قد شكّل حاجزاً من الجانبين على طريقه، وكان الرجال يرفعون قبعاتهم باحترام، والنساء يلوّحن بمناديلهن أمام بطل الملحمة الجزائرية. وبينما كان عبد القادر يمدّ يده، فتح الأمير لويس له ذراعيه وعانقه. أمام هذا المشهد العاطفي، ماجت القاعة من جديد. وبعدما سأل لويس نابوليون الأمير عبد القادر عن أخبار والدته، أعلمه أنه سيغيب لمدة يومين في الصيد، وأن استقباله الرسمي في سان كلو Saint.Cloud سيجري لدى عودته. نقلت كل الصحافة الوقائع، وصارت كل فرنسا على علم بالحدث.

زار عبد القادر خلال هذين اليومين الطويلين عدّة معالم أثرية. حيّاه شعب باريس في الشارع، ولدى مروره في كل موضع وهو يرفع قبّعته، كما فعلت أرستقراطية الأوبرا. كان رجل الشارع قبل أربعة أعوام، قد تمنّى الموت لخصم فرنسا. واليوم ربما بعدما رأى بؤسه، أراد من خلال علامات ودّه أن يجعله ينسى ما لحق به من ظلم.

وفي صبيحة الإستقبال الرسمي في سان كلو، قام عبد القادر بمقابلة مترجمه في الصالون، وناوله ورقة مكتوبة بيده. وما أن قرأ سطورها الأولى، حتى سأل عبد القادر عما كان ينوي أن يفعل بها. فجاوبه: « اسمعْ، لقد نقلت الصحف أن السلطان عندما جاء لإطلاق سراحي، أقسم له على تعهدات؛ وهذا غير صحيح. لم أشأ ذلك، بسببه وبسببي. بسببه، لأن ذلك معناه

التقليل من عظمة كرمه، إذ يوحي بأنه كان قد أملى شروطاً عليَّ، فيما هو لم يطلب شيئاً.

وبسببي، لأني أكره أن أُعتبر يهودياً يفتدي حرّيته بقصاصة من ورق. لقد أردت أن أجيء إلى باريس، ولم يطلب أحد مني ذلك، لكي أبرهن على أنني كنت أتصرّف بملء إرادتي الكاملة، ولكي أضع بين يدي السلطان عهداً مكتوباً. وها هو بين يديك منذ دقيقة».

ثم نسخ عبد القادر نصّه وأعطاه للمترجم. لم يكنُ أحد قد طلب منه ذلك. فقد أعرب عن رغبته في زيارة باريس بهدف لقاء الأمير الفرنسي ووضع هذا الإقرار بين يديه. وإليكم النصّ:

« الحمد للّه وحده!

لقد قدمتُ إلى سموكم العالي الشأن لأشكر لكم إحسانكم وأشبع من رؤيتكم. فأنتم في نظري أغلى من أي صديق آخر، لأنكم أنعمتم عليّ نعمةً أعجز عن ردِّها إليكم، لكنها ليست أرفع من قلبكم الكبير، ومن علو مقامكم ونبلكم. فليمجّدكم اللّه!

فأنتم من أولئك الذين لا يعدون وعوداً فارغة ويخدعون بالكذب. لقد وثقتم بي؛ ولم تصدِّقوا هؤلاء الذين كانوا يشكّون بي: لقد أطلقتم سراحي ملتزمين بذلك، ودون وعدي بشيء، بالتعهدات التي كان آخرون قد قطعوها لي، ولم يفوا بها.

وعليه، فقد أتيتكم مُقسماً لكم بعهود اللّه وميثاقه، بعهود كل الأنبياء وكل المرسلين، بأني لن أقوم أبداً بأي شيء مخالف

للثقة التي وضعتموها فيَّ. وأني لن أنقض هذا العهد؛ ولن أنسى أبداً الكرم الذي حظيتُ به، وأني أخيراً لن أعـود أبـداً إلى ديـار الجزائـر.

فعندما أمرني اللّه بالقيام، قمتُ وأطلقت البارود على قدْر مستطاعي؛ وعندما أمرني بالتوقف عن ذلك، توقفت مطيعـاً أوامر العلي الأعلى، عندها تركت الحكم وجئت إليكم.

إن ديني وشرفي يأمرانني بالوفاء بعهودي وعدم اللجوء إلى الكذب. فأنا شريف (من سلالة النبي) ولا أريد أن يـتمكّن أحد من اتهامي بالخيانة. والحال، كيف يمكن لذلك أن يكون ممكناً، الآن وأنا أنعم بنعمكم وبإكرامات لن أستطيع أبداً أن أشكركم عليها حقّ الشكر؟ إن الإحسان هو رباط في عنـق أهل القلب.

آمل من كرمكم ومن شخصكم النبيل أن تُبقوني بـالقرب من قلبكم، عندما سأغدو بعيداً عنكم، وأن تضعوني في عداد أشخاص عطوفتكم، لأني وإن كنت لا أضـارعهم بجـدوى خدماتهم، فإني أضارعهم بالمودة التي أكنّها لكم. فليضـاعف اللّه من محبة هؤلاء الذين يحبّـون، ومـن الرهبـة في قلـب أعدائكم!

لقد أنهيت كلامي، ولم يعد لديَّ ما أضيفه، اللـهمَّ إلا أني سأبقى على صداقتكم، ومخلصاً للوعد الذي قطعته لكم».

(حرِّر في منتصف شهر محرّم 1269 - 1852/10/30).

رافق الجنرال دوما عبد القادر إلى أمير فرنسا. وبما أنهمـا كانا قد وصلا قبل الموعد بعدّة دقائق، لمح عبد القادر ساعة

معلّقة على الجدار؛ كان الوقت المطابق لصلاة العصر. ولما استدلّ إلى وجهة مكة، ركع وصلّى وقام.

ظهر أمير فرنسا محاطاً بالوزراء وبكبار الضباط في البيت العسكري، وكان الإستقبال ودياً وعاطفياً. وبعد تقديمه للوزراء أخذ عبد القادر الكلمة وقال: «سيدي، أرجوك ألا تحاسبني بحسب تقاليدكم التي لا أعرفها، لأني غريب، لكن حاسبني بحسب تقاليدي. ربما لا يكون الأمر هكذا، من حيث تقاليدكم؛ وإني أطلب معاملتي بحسب تقاليدي، وأن أوجّه لكم بعض الكلمات».

ثم أضاف: « سأتمكن بفضل كرمكم من المضي للعيش على أرض إسلامية؛ لكن الكلمات تطير، وحتى أعطيها جسداً، وضعت عهودي ووعودي في الإقرار الذي أضعه بين يديكم ».

قال أمير فرنسا لعبد القادر أنه كان شديد التأثر بمسعى عفوي جداً من جانبه؛ مؤثراً الإكتفاء بشرفه، إذ لم يكن في آمبواز قد طلب منه عهوداً؛ وأضاف إن ما أقدم عليه الأمير إنما يدل على أنه كان محقاً.

* * *

أعرب عبد القادر عن رغبته في زيارة ضريح بونابرت. كان يعرف كل شيء عن الرجل، عن حملته على مصر، عن حملته على روسيا وانتصاراته الكثيرة، ثم عن (معركة) واترلو Waterloo في 1815/06/18 وجزيرة القديسة هيلانة، ثم عن عودة رفاته. وبعد ذلك زار الآنفاليد، ثم زار قسم التمريض

حيث توقّف أمام سرير جندي معاق، وأخذ يده وقال وهو يخاطب الجرحى الآخرين الذين كانوا قد انحنوا أمامه: «سأخرج مفعماً بالسعادة التامة من مشفى الجرحى هذا، لأني رأيت فيه ضريح السلطان نابوليون، ولمست السيف الذي كان يحمله في المعارك. هذا إذا لم أحمل معي الفكرة بأني أترك في هذا المأوى رجالاً جُرِحوا بيدي أو بأيدي أتباعي».

وبناء على طلبه، نُقل من الآنفاليد إلى منزل الأب سيبور أسقف باريس. فقال وهو يخاطبه: «أردت أن أنقل إلى واحد من كبار رؤساء دين المسيحيين شكري لما أسدَتْ الأخوات في آمبواز من إحسان لي، لعائلتي ولصحبي، خفّف هناك من آلامنا وعذابنا. إنهن نساء قدّيسات أدعو اللّه أن يثيبهنّ، ما دمت عاجزاً عن مكافأتهن بنفسي».

وبعد متحف المدفعية حيث تفحّص عن كثب القطع المدفعية التي غالباً ما اضطرّ لمواجهتها في معارك قاتلة، جرى نقله إلى المطبعة الإمبراطورية؛ فكان عمّال مَهَرة منكبّين على الإستنساخ عن الأصل، للإقرار الذي وضعه الأمير بين يديّ لويس نابوليون، يوم 30 أكتوبر الماضي. ثم انتقل إلى الصحافة الأوتوغرافية، حيث كان يُطبع في لحظة واحدة تصريحه لأمير فرنسا بنصه الكامل.

وعندما وصل إلى ورشة الآلات، شرحوا له كيف أن العمال كانوا يشكّلون كلمات ثم أسطراً ثم صفحات، من هذه الحروف الصغيرة التي كان قد رآها، ثم يجري جمع هذه الصفحات، وتوضع على آلة تقوم في ساعةٍ بعمل فرد خلال ستين ألف ساعة، فاندهش من ذلك.

عندئذ أعرب عن إعجابه فقال: « بالأمس رأيت صناعة المدافع التي تهدم بها الحصون والقلاع. وفي هذا اليوم رأيت الحروف التي تغلب بها أسرة الملوك، وتخرب بها دولهم وهم لا يشعرون. فما يخرج منها يشبه قطرة ماء هطلت من السماء. فإذا سقطت في صَدَفةٍ شبه مفتوحة، أنتجتِ الدُّر. وإذا وقعت في فم الأفعى، أنتجت السمَّ الناقع ».

إن مثل هذه الكلمات لا يمكنها إلا أن تعطي فكرةً عن الرجل القادر، الذي يمكنه بارتجال رائع، التعبير ببضع كلمات عن أفكار عميقة.

فقد كان عبد القادر يمارس هذه الفتنة الطبيعية عفوياً بلا تصنّع، مع الأشخاص الكثيرين الذين كان يستقبلهم كل صباح على مدى أسبوعين. فكان يتحدّث عن المعارك مع الجنرالات الذين كان قد حاربهم، وعن العلم مع العلماء، وعن الثقافة مع أهل الفكر، وعن السياسة مع رجال الدولة؛ وكان يجد الكلمة المناسبة لكل منهم. وسرعان ما انتشر في الصالونات الباريسية السِّحر الأخّاذ الذي كان يفيض من محاورته. فإذا كانت فرنسا قد غلبت الأمير، فإن عبد القادر قد غزا فرنسا.

لكن زيارة أثّرت فيه بنحو خاص: زيارة الخمسة من بين سجنائه القدامى في دائرته، ومنهم النقيب لازّاريه Lazzaret الذي صار حارس حديقة تويلري. جاؤوا كلهم ليشكروا له حسن المعاملات التي تلقّوها طيلة أسرهم، من طرفه ومن طرف عائلته.

وقبل الرجوع إلى آمبواز بانتظار الإعدادات اللازمة لسفره إلى (بروس) في تركيا، أُخذ عبد القادر إلى الأمير لويس نابوليون ليستأذنه بالسفر. فأعلمه الأمير الفرنسي أنه كان قد أوصى على سيف ليقدّمه له. وأضاف: « أردته أن يكون جديراً بكم وإني آسف، على الرغم من مهارة العمال، لعدم تمكّني من تقديمه قبل سفركم إلى بْرُوسْ. سوف يصلكم عن طريق سفيري في القسطنطينية. عبد القادر، هذا السيف أعطيكم إياه، بدلا من السيف الذي قدمتموه إلى الدوق دومال، وأنا واثق أنكم لن تشهروه أبداً ضد فرنسا».

هل هذا يعني أن ابن الملك لم يكن جديراً بسيف الأمير؟ هذا السَّيف، تلقّاه بالفعل بعد شهر من وصوله إلى بروس. والشَّفْرة مُؤَرخة من أيام بني العباس، مُؤسّسي سُلالة العباسيين، والقبضة كانت مرصّعة بالحجارة الكريمة، وعلى الغمد حُفِرت هذه الكلمات: « السلطان نابوليون الثالث إلى الأمير عبد القادر بن محيي الدين، ديسمبر 1852 ».

رجع عبد القادر إلى آمبواز، وأبلغ أمير فرنسا طلبه بأن يَسْمح له بالعودة إلى باريس لكي يحظى بأن يكون شاهداً لإعلان الإمبراطورية. وكان أصحابه قد علموا من خلال رسائله إليهم، كيف جرى استقباله في باريس، ومدى التقدير الذي حظي به، فراحوا يستعدّون للإحتفال بعودته. فوجد أهم أتباعه مجتمعين عند عتبة القصر. حيّاهم بسرعة وسارع إلى زيارة والدته التي كانت تنتظره عند باب جناحها. فعانقها بانفعال وركع عند قدميها. فأنهضته واقتادته إلى الصالون

حيث طلبت منه أن يروي لهـــا بالتفصيل روايـــة إقامتـــه في باريـــــس.

إنه تقليد عربي محبّب، بعد العودة من السفر، ما بـــين الأم المُطاعة والإبن المطيع، وخلال رواية عبد القادر ما جرى لـــه، سالت الدموع على خدّي الأم السعيدة أخيراً. ثم أخذتـــه في حضنها، فقادها عبد القادر إلى المسجد ،حيث كان قد اجتمع كل أصحابه. فدعا بصوت عالٍ لأجل سلامة الأمير الفرنسي، وقال إنه لم يكتفِ بإطلاق سراحه، بل خصّه باستقبال في غاية الحفاوة والحرارة، وكرّر الحاضرون دعاءه.

أما الوقت المتبقّي لرحلته الثانية إلى باريس، التي وصلها في أول ديسمبر التالي، فقد خُصّص لاســـتعدادات الســـفر إلى بروس. كان قد مرّ عشرون عاماً على إعلان الأمير عبد القادر سلطاناً في سهل غريس؛ وها هو الآن بعد مجد وارتكاسات، أميراً مسلماً يحضر حفل صعود أمـــير مســـيحي إلى المرتبـــة الإمبراطورية.

* * *

وفي الثاني من ديسمبر 1852، لحظة دخول لويس نابوليون إمبراطوراً إلى قصر التّويلْرِي، لمح عبد القادر واقفاً عند أسفل سلّم الشرف، وسط كبار أعيان الدولة، فتوجّه نحـــوه علـــى الفور، وشدَّ بحرارة على يده وتبادل معه كلمات ودية.

سافر عبد القادر من آمبواز إلى مرسيليا يوم 11 ديســـمبر، حيث أبحر إلى القسطنطينيـــة يوم الحـــــادي والعشريـــــن مـــن الشهر نفسه.

عبد القادر في تركيا

رحل عبد القادر عن آمبواز يوم 11 ديسمبر 1852 مع أسرته وأصحابه. وقبل أن يركب القطار وضع هبة مالية في مكتب المدينة الخيري، بينما كان أهالي آمبواز قد قاموا بحملة تبرّع كمبادرة للإخاء الإنساني، في سبيل صيانة المقبرة الإسلامية في حديقة آمبواز.

كان هناك في محطة ليون lyon عدد من الشخصيات الرسمية، جرى تقديم طعام وفير تناوله الجميع ما عدا عبد القادر الذي تناول بضع حبات لوز وشرب الشاي. وجاءه البارون روتشيلد طالباً منه توقيعاً[1]. قبل الوصول إلى مرسيليا Marseille، مرّ القطار في ليون حيث استقبل الأمير من طرف الكاردينال دبونالد de Bonald وعمدة الرون Rhone والماريشال دِو كاستيلان De Castillane.

بعدما سافر عبد القادر من مرسيليا يوم 21 ديسمبر على متن سفينة لابرادور Labrador، وصل إلى القسطنطينية يوم 07 جانفي 1853 مصحوباً بالرائد بواسّوني. حين وطأ أرضاً إسلامية للمرة الأولى منذ خمس سنوات، كان أول عمل قام به الأمير، هو الذهاب إلى جامع توب هاني، حيث صلّى شاكراً اللّه على نعمه. وكان العمل الثاني زيارة سفير فرنسا في القسطنطينية، المركيز دو لافاليت Lavalette، وتمنّى عليه أن ينقل إلى الإمبراطور نابوليون الثالث، إضافة إلى امتناناته، أحرّ تشكراته وأخلص عواطفه. وذهب في الغد بصحبة الخليفة بن علال وقاره محمّد لمقابلة السلطان عبد المجيد، الذي أعرب

بأسلوب مبهرج،عن حفاوة لم تكن تُخفي ما وراءها من العداء.

أقام المركيز دو لافاليت عدة حفلات استقبال على شرف عبد القادر. لكن أهالي القسطنطينية ظلوا غير مبالين باستقباله وإقامته القصيرة، ولو حتى على سبيل الفضول. كان عبد القادر يتوقع ذلك فرحل إلى بروس. عندئذٍ استذكر علاقاته مع الباب العالي عندما كان يقاتل ضد فرنسا.

بعد جهد كبير بذله في أبحاث دقيقة وتحليلات حصيفة،كشف لنا الدكتور عبد الجليل التميمي، أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في تونس، عن مراسلات بين عبد القادر والسلطان عبد المجيد (2). إذ يتبين أن عبد القادر وإن لم ينطق صراحة بمبايعة السلطان، كان يعترف بسلطته المعنوية على الشعوب الإسلامية، ووضع نفسه تحت حمايته.

أعلمَ السلطان في هذه الرسالة عن تطور الوضع في الجزائر منذ أن احتل الفرنسيون سواحلها حتى هذا اليوم؛ ودون أي تحفّظ لغوي، ندّد بسلوك القادة الأتراك في الجزائر أثناء الغزو، قائلا: « عندما تمرّد إنكشاريو الجزائر العاصمة على طاعة والدكم، يا أمير المؤمنين، عاقبهم اللّه على سوء أعمالهم ونواياهم، حين أرسل إليهم الكافر الظالم لمحاربتهم؛ وبعد ذلك قام هذا باحتلال مدنهم وقراهم، واستولى على المال والتموين والكنوز ».

فمن المؤكد أن ذلك الخطاب لم يكن يحلو للباب العالي أن يسمعه. ثم طلب مساعدة السلطان، مؤكداً له مشاعر العرفان

والطاعة من قبل مسلمي هذا البلد، وموحياً له أن إخلاصهم قد أقنع الصدر الأعظم بأن يساعدهم ويحميهم، بحكم الواجب:

« يلوذ مسلمو هذا البلد بجلالتكم، وليس لديهم أحد يمكنهم أن يطلبوا منه المساعدة والعون سوى جلالتكم، رمز قوتهم؛ فهم يتمنّون من أعماقهم أن تساعدوهم، وقلوبهم مفعمة بالولاء لشخصكم، وهم يعربون لكم عن عرفانهم بالجميل وعن طاعتهم.

هل لدى سلطاننا مال؟ أجل. هل لدى سلطاننا جيوش لا تُعد ولا تحصى؟ أجل. وبالتالي ليس هناك أي سبب حتى لا يقوم بمساعدتنا. ولو لم أكن أخشى على مصير المسلمين من هجمات الكافرين، لكنت سعيت شخصياً إلى جلالتكم لأروي لكم كل الأحداث التي جرت في هذا البلد.

لقد سدَّت في وجه هؤلاء المسلمين كل الأبواب؛ فليس لهم أية علاقة بالآخرين، ولم يبق لهم سوى الأمل باللّه وبكم شخصياً. هؤلاء المسلمون كانوا قد أعلنوا ولاءهم لكم، ومن المستحيل أن ترفضوا طلباتنا. إن أيادينا ممدودة لطلب عونكم ونجدتكم، لأن كرمكم لن يسمح بأن نعود صفرَ اليدين».

أخيراً أرسل هدايا للسلطان، الأمر الذي يُفترض أن يكون له مفعول المبايعة. فلم يحدث ذلك ما دام الأمير كان قد أرسل مثلها إلى الملك لويس فيليب.

يضيف الأمير: « أنتم رمز الإحسان والجُود، أنتم المحيط الذي يُنجد المحتاجين إليك. أنا فرد من عائلتكم، واللّه

سيسألكم عما فعلتم لأجلنا، فساعدونا على التخلص من الأحداث التي كدّرتنا.

وبما أني لا أستطيع المثول أمام جلالتكم، فسوف أرسل هذه الرسالة ولا ندري إن كانت ستصلكم؟ لَكَم أرسلنا من الرسائل إلى جلالتكم دون تلقي جوابها؛ عسى ألا يكون ثمة مانع جدّي عن الكتابة إلينا، وألا تكون جلالتكم غاضبا علينا. نحن ننوي أن نقدم إلى سيدنا هدية، وسوف أرسل ممثلاً لكي يقبِّل يدكم الكريمة، وهذا ما لا أستطيع القيام به بنفسي، بسبب الحروب المتعاقبة. ليشهد اللّه على نيتنا ورغباتنا. والسلام على النبي وآله وصحبه ».

(مستغانم 25 شوال 1251، 1841/12/10.

خاتم عبد القادر على الرسالة)

لئن كانت رسالة الأمير بمثابة نداء مُلحّ، فقد كانت أيضاً من جوانب عدة، رسالة قيّمة صافية وموزونة بدراية (أنظر الوثائق الكاملة في الملحق). تأخّر جواب الباب العالي عن الوصول، وعندما وصل كان مجرد ردّ شكلي مهذّب، مصحوب بتشجيع على مواصلة القتال. فالحكومة التركية المُحرجة حقاً، كانت تحرص بنحو خاص على الطابع السري للمراسلات المتبادلة مع الأمير. زد على ذلك أن الأمير كان يجهل المصاعب التي كانت تدعوه إلى الحيطة.

هذه الرسالة مشفرة، وإليكم مضمونها: « تلقينا رسائلكم ومبعوثيكم، وكنا على علمٍ بكل ما تقولون. لقد عبرتم عن الشجاعة والإرادة الطيبة حين قدتم المسلمين، فتصرّفتم بحسب رضى اللّه ونبيه والباب العالي: جزاكم اللّه خيراً!

أما نحن فلن نتردّد في حسن جزائكم، سوف ننفّذ كل ما يبدو لنا مناسباً؛ وإننا إذ نرسل لكم رسالة مشفرة، إنما نطلب منكم الحفاظ على سرية هذه القضية، لأن هذا أمر مهم جداً. ومع إبقاء الأمر سرياً إنما تساعدوننا كثيراً، في المرة القادمة عندما تُرسلون رسائلكم إلينا، نأمل أن تكون مشفرة، أعذرونا على اختصار رسالتنا ».

* * *

أمام تزايد الإحتلال في تلك الحقبة، كان الأمير قد كتب إلى الحكومة البريطانية مقترحاً عليها صفقة (تنس) كمرفأ تجاري، وهو اقتراح ذكي من شأنه أن يغري قوة عظمى مثل إنكلترا، وأن يقدم في الوقت نفسه للأمير مركز تزوّد بالعتاد الحربي، ويوقع الوقيعة بين باريس ولندن.

ولنلاحظ على عجل، أنه لم يكتب إلى الملكة فيكتوريا تجنباً للإشتباه بالطموح إلى الإرتفاع حتى مقام صاحبة الجلالة. وفي المقابل كان في إمكان حكومتها أن تدرس طلبه.

« من أمير المؤمنين الحاج عبد القادر بن محيي الدين،
نصره الله، آمين
إلى كبار زعماء الحكومة الإنكليزية في لندن
السلام على مَن اتبع سبيل الحق، وبعد.

منذ سنة تقريباً عُقد صلح بيننا وبين الفرنسيين؛ وتنصّ هذه المعاهدة على أن نمنح جزءاً من بلدنا للفرنسيين وأن نحتفظ بعدد معين من المرافئ تحت سيطرتنا. وكنا ننوي الإتصال بكم لإطلاعكم على القضية وأيضاً لإعطاء مرفأ مثل (تنس) أو

سواه، الذي يقع تحت رقابتنا، فهذا الأمر سيسهّل تجارتكم لشراء القمح والأبقار وكل ما تحتاجون إليه. في المقابل سنشتري منكم كل ما سيلزمنا.

فمنذ بضع سنوات وأنتم تقيمون معنا علاقات تجارية، فلم نفرض جمركاً؛ وكنا نرغب في الإتفاق على مبادىء، لكن هذا لم يحدث، بسبب شخص يتكلم لغتكم ويعرف بلدنا. واليوم وجدنا التاجر نيقولا مانوكي، إبن القنصل الإنكليزي في (بترزت)، مفوضية تونس.

هاهو مبعوثنا مانوكي إليكم، لكي يحدّثكم بكل ما تقدّمنا به؛ فإذا كان هذا يناسبكم للمتاجرة معنا، فإننا نطلب منكم أن تعقدوا الصفقة مع مبعوثنا، لأنكم أمة عهد وشرف؛ وأما الفرنسيون فهم ليسوا كذلك. إذا كنتم ترغبون في هذا الرفأ، فإننا لن نتاجر مع أية أمة سواكم، وسوف نبيعكم منتوجاتنا بسعر سوقنا الداخلية بالذات. ولا شيء نضيفه ».

حرّر في 28 صَفَر 1256، 1840/4/12.

(خاتم عبد القادر على الرسالة).

درست الحكومة البريطانية طلب عبد القادر، وحرصت على عدم الدخول في نزاع مع فرنسا، فردّت من خلال قنصلها في جبل طارق، طالبةً منه إرسال المضمون إلى عميل عبد القادر: « إن الحكومة البريطانية تشكر لعبد القادر عرضَه مرفأً على الأرض الجزائرية؛ لكن حكومة صاحبة الجلالة لا ترغب في أن تكون لها أية حيازة على ساحل إفريقيا المتوسطي.هذا يعني أن الحكومة البريطانية لا ترى أن توسطها

بين فرنسا وعبد القادر ستكون له نتيجة مهمة، وأن من غير الوارد أن ترغب الحكومة البريطانية الآن، في اتخاذ موقف من النزاع الذي يدور بين الطرفين...».

كانت كل هذه الذكريات تسكن في ذاكرة عبد القادر. واستخلص منها الشعور وهو الآن على أرض إسلامية، أن الأتراك كانوا يعتبرونه حقاً في وجدانهم الداخلي، بمثابة بطل لقضية الإسلام، ولكن كان من الصعب عليهم أن يكللوا بالمجد علانية، الرجل الذي كان قد حارب طاردي ولاة الجزائر العاصمة، بدلاً من أن يحاربوهم بأنفسهم.

***

كما في آمبواز وفي بو، كان عبد القادر يخصص وقته للصلاة، للدرس ولتربية أولاده. وكان يسدّ حاجات هؤلاء الذين تبعوه، وحاجات أولئك الذين انضموا إليه. فكان يخصّص مبالغ كبيرة للأعمال الدينية، متكفّلاً بأعمال ترميم الجوامع وموزّعاً الصدقة على المحتاجين. ذات يوم، وقد كان يستعد لختان أحد أولاده، أُعلن في المدينة أن داره ستكون على مدى ثلاثة أيام متتالية، مفتوحة للفقراء والمحتاجين. فتوافد الكثيرون إليه، وكان يسهر شخصياً على أن يشارك كل فرد منهم في بحبوحته، وينتقل من جماعة إلى أخرى وهو يقدم لها كلمات المواساة والأمل.

لم ينسَ الوعد الذي قطعه للإمبراطور نابوليون الثالث بأن يقدم له جواداً عربياً أصيلاً، حتى يحوّل أنظاره عن تفضيله للجياد الإنكليزية، فأرسل بعض أعوانه إلى ديار بكر وسورية

ليختاروا له نماذج جديدة بإمبراطور الفرنسيين. في شهر جويلية 1854، رسا بوخيكا أحد أشجع فرسانه، في مرفأ مرسيليا، ومعه ثلاثة جياد رائعة. وكان كل من الجياد يحمل رأس لجام، كُتبت عليه بالذهب أشعار نظمها عبد القادر:

- جواد كُمَيْت

«شرّفني أيها السلطان وتقبلني، فأنا جواد مميَّز. فبياض قوائمي ووجهي يُضارع بياض قلبي وقلب مَن أرسلني إليكم».

- جواد أشقر

« أيها السلطان، يا من تخطّيتم السلاطين الآخرين بعدلكم وقوتكم وطيبتكم، لي لونُ هذا الذهب الذي توزّعونه على المساكين. تفضّلوا بامتطائي وسوف تظفرون بأعدائكم».

- جواد كُميت فاتح

« أيها السلطان، مجدكم دائم في نظر الشعوب والملوك. أنا جواد أصيل، ولوني هو لون النار في يوم المعركة».

وفي بروس، التي كانت تذكّره قليلاً بمدينة تلمسان بحدائقها الزاهرة وباحاتها الظليلة، كان يشعر بعزلةٍ ما. فهو محبوب ومحترم من جانب رجال الدين والعلم؛ لكنه لم يكن حاله كذلك في نظر أهل الحكم الذين كادت خصومتهم تتحوّل بلا شك إلى عبء، لو لم تكن اليد الإمبراطورية هي التي ترعاه وتحميه.

فقد كان في وسط مختلف تماماً عن وسطه، ومؤلف من يونانيين وأتراك: لغة، عادات، وحتى المذهب الحنفي الذي لم يكن مذهبه. فكم من المرات راح يفكر بطلب تغيير مكان إقامته؟

لكن التخوّف من سوء النظر إلى مسعاه أو من المبالغة في تفسيره، كان يردعه عن مطلبه. فتحمّل على مدى عامين أيضاً المزيد من العذابات والمعاكسات.

إلاّ أن الزلزال الرهيب الذي دمَّر قسماً من مدينة بروس، قدَّم له حجةً غير منتظرة. بعدما نجا من الكارثة التي حلّت بالمدينة، رحل بعد عدّة أشهر إلى فرنسا، حتى يتوسَّل الموافقة على المطلب الذي كان ينشده.

وكان يشغله موضوع آخر: هو حرب الكريمي Crimée وعواقبها بالنسبة إلى أراضي الإسلام. فقدّمت له إقامته في باريس الإضاءة المنشودة. حين وصل إلى مرسيليا أُصيب بالكوليرا. وهو لا يدين بنجاته إلا لبنية جسدية قوية، وبعد ذلك مضى إلى باريس.

بعد أيام من وصوله، أُعلم الإمبراطور بسقوط سباستوپول Sebastopol ولشكرِ اللّه على نَصْرٍ كهذا، ذهب الإمبراطور محاطاً بأركان الدولة وأعيان الكنيسة، إلى كاتدرائية سيدتنا العذراء لإقامة احتفالٍ فيها. وكان الماريشال فايّان Vaillant، وزير الحربية، راغباً في أن يشارك الأميرُ في الإحتفال الديني.

لكنه كان يخشى أن يحول المرضُ من جهة، وصرامة عقيدته الدينية من جهة ثانية، دون مشاركته في احتفال بطقسٍ مسيحي. وعندما فاتح مبعوث الماريشال عبد القادر بالأمر، قال له:

– أتظنُّ أنني أُفرح السلطان إذا حضرت الإحتفال؟

– بلا شك.
– إذاً سأذهب.

أحدث دخول الأمير إلى كنيسة سيدتنا العذراء تأثيرا كبيرا في الحضور. كان شاحب الوجه، متكئا على ذراع الرائد فنلون Fenelon الضابط المرافق من وزارة الحربية، بعد صلاة الشكر التي رُفعت احتفالاً بالنصر، وصل عبد القادر إلى فناء الكاتدرائية، فاستقبله الجمهور بهُتافٍ حارّ، كان بمثابة شكر شعبي له على مبادرته.

وذهب الأمير بعد عدة أيام إلى المعرض العالمي، فلفت اهتمامه بنحو خاص، شغلُ الحديد وآلات الحياكة وآلات الخياطة وتأمل مطوّلاً في المنتوجات الآتية من الجزائر. وعند منعطف المعرض، وجد نفسه أمام لوحة فنية كبيرة كانت تمثّل الإستيلاء على الزمالة. فاستدار نحو دليله وقال له: «كم من المرّات غلبتكم؟ فلماذا لم ترسموا إذاً سوى هذه الموقعة ؟ »..

كان عبد القادر يجهل دون شك أن راسم هذه اللوحة الهائلة، هوراس فيرنيه Horace Vernet، لم يشهد أبدا سقوط الزمالة، إنما رسمها استنادا إلى تقارير مفصّلة وضعها ضباط حضروا الأحداث. وإذ سمح له بأن ينقل إقامته إلى دمشق، غادر باريس إلى مرسيليا حيث أبحر إلى القسطنطينية..

1- كان الأمير قد أصبح في المقصورة (الصالون) الموضوعة بتصرّفه عندما لمح مترجمه، فأشار إليه بأن يصعد إلى جانبه، وقال له: «أغلبُ

هذا الجمهور المحيط بي يظنّني متّهماً بمذبحة الدائرة. لم أستطع أن أقول لك الحقيقة؛ لكنك لمحتها يوم زارني في باريس سجنائي القدامى. أنت الباقي وسط هؤلاء الفرنسيين، ابذل قصاراك سواء بالكلام أو بالقلم، لمحو الدماء الموجودة، في رأيهم، بينهم وبيني ».

2- أبحاث ووثائق في التاريخ المغاربي - الجزائر، تونـس وطرابلس الغرب (1816 - 1871)؛ طبعة ثانية منقّحة، منشورات مجلة التاريخ المغاربي، المجلد 3، تونس 1980.

عبد القادر في دمشق
وإنقاذ إثني عشر ألف مسيحي

وصل عبد القادر إلى دمشق في ديسمبر 1855، قادماً من القسطنطينية على متن باخرة قادته إلى بيروت، ومعه مئة وعشرة أشخاص، منهم ثلاثون من أفراد أسرته. وسرعان ما انضمَّ إليه مئةٌ من جزائريين آخرين قادمين برّاً. لكنه حين وصل إلى دمشق وجد منهم خمسمئة آخرين مقيمين من قبل، هم أولئك الذين جاؤوا سنة 1847 مع الخليفة بن سالم إلى منفاه.

وعمّا قريب ستنضمّ إلى هذا العدد من المغاربة (من سكان المغرب العربي والمقصود بهم الجزائريين)، مجموعات أخرى من أفراد كانوا قد حاربوا سابقاً تحت قيادته، وكانوا يصرّون على أن يقاسموه تقاعدَه في أرض إسلامية، بحيث صار في عهدة عبد القادر، مطلع الصيف، ألف ومائتي مواطن مخلص له.

انكبَّ الأمير منذ وصوله إلى دمشق على أن يبرهن للأتراك بأنه لم يكن ينوي الإهتمام بالشؤون السياسية. إذ كانت أيامه منظّمة تنظيماً دقيقاً. فكان يقضي وقته في الجوامع واجتماعات مع العلماء أو في قراءات مختارة، منها كتب معلّمه المبجّل ابن عربي؛ وكان يخصّص بقية وقته لتربية أولاده، سي محمد، سي محيي الدين، سي الهاشمي وسي إبراهيم.

اجتذب هذا البرنامج اليومي نحوه احترام وإعجاب عدد كبير من الأشخاص؛ لكنه أثار لدى آخرين حسداً مكبوتاً.

فهو عندما دخل إلى دمشق، كان هناك عـــدد كـــبير مـــن المتعلّمين ومن رجال دين، قد جاءوا لاستقبال ذلـــك الـــذي كانوا يعتبرونه الرجـــل الورع، العالِم الشهـــير والقـــائد الحربي المميّـــز.

وكان الإعتراف بلقب أمير يُضفي على شهرته هالةَ مجـــد ويثير نار الفضول. وكان المغاربة Maghrebins الذين انتظروه عند ضواحي المدينة، قد استقبلوه بهتافات وتحيّـــات كـــثيرة، لدرجة أن كل الناس أمكنهم أن يسبروا عمق الإحتـــرام الذي كان يتمتع به من أعيان المدينة، حتى السلطات التركية والُممثليات القنصلية. وأن يعرفوا مدى الرصيد المعنوي الـــذي يتوفر عليه، والإحترام الذي يتمتع به.

ولما استقرّ الأمير في دمشق، راح يلقي دروساً ومحاضرات، مما زاد من شهرته لدى الطبقة المتعلمة التي اكتشفت بدهشـــةٍ حقيقية، تبحّره العلمي الواسع وثقافته الكبيرة. وسرعان مـــا تزايد عدد طلابه والباحثين، على حساب أساتذة آخرين كانوا من المشاهير حتى ذلك الحين.

وفي المقابل، فإن ظاهرة تعاطف النخبة معه، المتعطشـــة إلى سماعه وهو يعلّم ببلاغة طبيعية، قد عادت عليه بعداء بعـــض رجال المذهب، ممن ارتعشت قلوبهم من دخول فقيه جديـــد على المسرح، أكثر إلهاماً منهم.

كانت قراءاته اليومية تقوده من الأدب إلى التاريخ، ومـــن التاريخ إلى الفلسفة. وكان يُؤثر أعمال معلّمه ابن عـــربي [1]،

الذي ألهمَ بغيبوبة الحبّ الصوفي للإله الواحد، المُمجَّد بالحب وفي الحب، بعض قصائده البديعة الجمال.

ترك، فضلاً عن (رسالة إلى الفرنسيين) التي نشرت بعنوان (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل)، كتاب (المواقف) في الفكر الصوفي، وكتاب (المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد)، و(الديوان) الذي يحتوي على قصائده الشعرية؛ الذي لم يحظَ هنا بالتحليل، وينبغي تركه بالأحرى للمتخصِّصين.

* * *

هكذا جرت في دمشق حياة الأمير الهادئة والدراسية، إلى أن جاءت أحداث 1860 الخطيرة فعكّرت صفوَها، وجعلت صاحبها في وضع صعب. لكنه تصرّف بفضل صفائه الأخلاقي وشجاعته الجسدية، كبطل للتسامح حيّاه العالم بأسره.

ولفهم مُجريات الأحداث فهماً أفضل، لا مناص من العودة إلى الوراء. عندما احتل محمد علي ملك مصر دمشق سنة 1831، اختار وزيراً ومستشاراً مسيحياً من المذهب الأورثوذكسي (الروم) حنا بك. وكان همُّ هذا الأخير مع تأييد الملك، تلطيف ظروف النصارى الذين كانوا يعانون منذ أمدٍ طويل من انتهاكات ومضايقات لحرية عبادتهم. فتمكّنوا من بناء مطرانية وكنائس، ومن القيام علناً بممارسة طقوسهم وشعائرهم.

لكنهم لم يُحسنوا التمتّع باتزانٍ في الإمتيازات التي كانت قد مُنحت لهم، فأظهروا استكباراً تجاه المسلمين وأيقظوا

الأضغان؛ حتى أدى ذلك إلى رد فعل جماعي سنة 1840، وهو بلا شك مدبَّر. إذ عندما غادر جنود الملك البلــد، حــدثت مذابح الروم الأورثوذكس. ثم اندلعت اضطرابات أخرى سنة 1845، ووقعت مجازر جديدة، فوجَّه النصارى اتهامــاتهم إلى الولاة الأتراك.

وعندما اندلعت حرب الكريمي ســنة 1854، وهاجمــت القوات الفرنسية – البريطانية سواحل البوسفور للحفاظ على سيادة تركيا، راح مسيحيو دمشق، وهم لا يزالون تحت تأثير الإهانات والتعديات التي كانوا قد تعرّضوا لها، يهزأون علنــاً من تركيا.

ولما سارعوا إلى الثأر لما كان قد حلّ بهم، تباهوا بالهزء من تركيا علناً، « المضطرة لطلب العون من أوروبا المســيحية »، وأعربوا عن تمنياتهم بتجزئة الإمبراطورية العثمانية وتفكيكهــا لمصلحة القوى المتحاربة، و«بوجوب عــودة [ســورية] إلى فرنسا بشكل طبيعي جداً»، بحيث قد أحس الموارنــة بــأنهم قــد عُتقوا.

ألهب هذا الخطاب العام الذي ضخّمته الشائعات عواطف المسلمين، الذين ثأروا لأنفسهم حــتى في حضــور الجيــوش الأوروبية. ولما هُزمت سباستوبول، وعادت الجيــوش بعــد النصر إلى أوروبا، استطاع المسيحيون – وقد لاحظــوا مــن جهة ثانية وحدة إمبراطورية عثمانية، محميّة من الآن فصاعداً – أن يقدّروا إلى أي حدّ كان السلوك الذي سلكوه في أثناء الحرب، مُثقلاً بالأخطار عليهم. غير أن فرنسا وإنكلترا كانتا، مقابل انحيازهما العسكري إلى جانب تركيا، قد تمنّتــا علــى

الباب العالي إدخال إصلاحات على ظروف معيشة وحرية العبادة لدى مسيحيي الشرق. عندها ظهر خط همايوني (مرسوم إمبراطوري) أعاد النّظر في شرط رعايا تركيا من المسيحيين.

وبموجب هذا النص، صار في مستطاع المسيحيين الدخول إلى الجيش، ودفع الضريبة مثل المسلمين بدلاً من الجزية، وأن يتولّوا الوظائف. وباتت شهادتهم القانونية مقبولةً من الآن فصاعداً. أحدث هذا المرسوم انفعالاً عظيماً في كل الإمبراطورية. وأثار الغضب وحرّك الأهواء خصوصاً في سورية.

ولتهدئة هذا الهياج الجماعي المنطوي على اضطرابات، رأت الحكومة التركية أن من المناسب تسْويغ قرارها، بجعل باشواتها يعرضونه بوصفه شرطاً كانت القوى الأوروبية قد انتزعته منها. فوضعت مشروعا يسمح بالإعتراضات على إصدار المرسوم، وتشجيع الإحتجاجات التي أدّى اتساعها وعفويتها إلى البرهان على استحالة التقيّد الكامل والجازم بالنصّ، دون تعريض أمن الإمبراطورية للخطر، وإعادة طرح القضية الشرقية.

إذا كانت الأوامر قد أُعطيت في اتجاه هياجٍ محدود، لإحداث تأثير للرفض فقط، فقد قام بتفسيرها بلا ريب موظفون متهوّرون في حماسهم. فالحكومة لم تكن تطلب سوى شهادات على رفض المرسوم. لكن بعض الباشوات لاسيما باشا دمشق، رأوا ضرورة إعداد مذابح لكي يقدّموا للحكومة برهاناً مثيراً.

وهذا صحيح لدرجة أن اللجنة الدولية، المُشكّلة لأجل تحديد مسؤوليات المذابح، عندما اجتمعت لاحقاً في بيروت، توصلت إلى الإستنتاجات التالية، التي أرسلتها إلى فؤاد باشا، المُعيَّن في سورية بعد المجازر، وهو يتمتع بكامل صلاحيات السلطان العثماني: « يرى الموقّعون (2)، بعدما أطلعوا على محاضر أقوال الموظفين العثمانيين والدروز المعتقلين في بيروت، أن من الواجب الإكتفاء بملاحظة، أن هذه المحاضر لا يُستخلص منها أي ظرف تخفيفي، من شأنه التأكيد بكل يقين على أن الموظفين والضباط العثمانيين غير مسؤولين مبدئياً عن الحوادث، التي أدمت الجبل وأدّت إلى ذبح ستة آلاف مسيحي (3).

وبما أن المفوّضين الأربعة لفرنسا وبريطانيا العظمى وبروسيا وروسيا يرون أن هذه المسؤولية مستمرة، فإنهم يأسفون لقولهم ذلك، فهي تقع على عاتق رجال الأمن العثماني على الأقل، بقدر ما تقع على كاهل الزعماء الدروز الأكثر إجراماً، وأن اختلاف العقوبات النازلة على هؤلاء وأولئك (4) لا يشكّل بنظرهم مبرّراً كافياً في المحاضر التي فحصوها. وبالتالي، الموقعون أدناه، إلخ ».

كتب اللورد دوفرين، الممثل الإنكليزي في اللجنة المذكورة، إلى اللورد راسل، وزير الشؤون الخارجية: «هكذا كانت تعليمات الحكومة التركية إلى ولاتها، الذين ربما غالوا فيها وبالغوا. لقد كانت اللعبة مفتعلة وأثارت فضيحة ».

فالأحداث التي كانت ستقع يوم 09 جويلية في دمشق، جرى تحضيرها على مدى شهور، أو بالأحرى كانت عرضةً

لتأجيلات، إثر تسريبات وصلت حتى آذان الأمـــير، فأعدّتـــه بدوره للإضطلاع بالدور التاريخي الذي كان منوطاً به.

* * *

وبما أن قنصل فرنسا كان قد جمع القناصل في لقاء، فقـــد قرر الحاضرون ألّا يذهبوا لمقابلة أحمد باشا، وأن يسألوه عما إذا كانت الإشاعات المتداولة دقيقة وصحيحة، وعندها عليـــه أن يتّخذ الإجراءات لضمان أمن المسيحيين. فاستقبلهم الباشا بحفاوة، ووصف الإشـــاعات الـــمتداولة بأنها خيالية، وصرَّح لـــهم أن في إمكانهم الإعتماد عليه.

كان موعد المذبحة قد تأجل. وفي شهر سبتمبر، طُلب سراً من المغاربة أن يشاركوا في المؤامرة، فجاءوا لإعـــلام الأمـــير بالأمر، فدعاهم عبد القادر إلى التجاوب مع تلك المناشـــدات حتى يكون على اطلاع دائم بما كان يجري.

ثم أطلع السيد لانوس على تقديره للوضع، فدعا لانوس مرة ثانية إلى عقد اجتماع للهيئة القنصلية التي بدت ممانعة لكـــل مسعى جديد لدى الباشا، الذي كانت تشكّك في كلامـــه. وبما أن السيد لانوس ألحّ، فإن الأكثرية مالت إلى رأيه وحصل لقاء مع الباشا ترتبت عليه نتيجتان: ردّ ودِّي مطمئن، وتأجيل جديد للمؤامرة.

أعطى عبد القادر الأمر للمغاربة Maghrebins (المقصود بهم الجزائريين) السبعمئة المرابطين في ضواحي دمشق، بأن يدخلوا بمجموعات صغيرة إلى المدينة، لينضمّوا إلى الثلاثمئـــة مغـــربي Maghrebin المستقرين فيها من قبل، وأن يكونوا جاهزين في كل لحظـــــة.

ثم أمرهم بأن ينتشروا في المدينة، ويتوزّعوا بمجموعات صغرى في المقاهي والأسواق، لكي يدينوا باسم الدين كل محاولة إجرامية ضد أهل دين مختلف. حتى إن الأمير بادر شخصياً إلى الإتصال بالمفتي وبالأئمة، مناشداً إياهم أن ينطقوا في المساجد ببعض كلمات التسامح والتهدئة، لكنهم لم يصغوا إليه.

ومن جهته، قام السيِّد لانوس وحيداً بآخر محاولة مع الباشا، بقوة أرعبت هذا الأخير، إذ اكتشف فجأةً خطورة مشروعه، والمسؤولية التي ستحمِّله إياها القوى الأوروبية. فأرسل على الفور سُعاةً لتأجيل المؤامرة مجدداً؛ لكن السعي جاء متأخراً جداً. إذ كانت إشارة المذبحة قد أُعطيت.

وفي صبيحة الثامن من جويليه 1860، رُسمت فوق أرصفة شوارع المدينة أشكال تمثّل الصلبان وتيجان الأساقفة، وسرت العملية بسرعة، من قبل الأولاد الذين راحوا يوجّهون الشّتائم (بأي تحريض؟) إلى تلك الشارات المسيحية؛ وعندما كان يمرّ شخص مسيحي كانت الشتائم تُضاعف، كان يجد نفسه مرغماً على دوس الصليب تحت طائلة الضرب.

تذمّر المسيحيون واشتكوا. وفي اليوم التالي، أصدر الباشا بياناً أعلن فيه أن المسلمين الذين قاموا بأعمال مُدانة ضدّ المسيحيين سوف يعاقبون بهراوات من جهة، وأن الخطّ الهمايوني (مَرْسُوم) كان يحمي الدين، من جهة ثانية. وبما أن الدين قد أُهين علناً، فإن «الشوارع الملطخة بالقاذورات التي قُذفت على الصلبان، سيقوم المسلمون بغسلها». وكان هناك

بعض القرع بالهراوات. فشاع الإضطراب الشديد في المدينة برمتها؛ وأُثير الأهالي فنزلوا إلى الشوارع، يحرِّكهم محرِّضون كانوا يصرخون: « مسلمون يُضربون لأنهم شتموا بعض المسيحيين. هذا لا يُحتمل. إلى السلاح. الموت للمسيحيين».

نحو الظهر، تردَّدت صرخات من جهة حي باب توما [5]، تلتها طلقات نارية. كان المساكين يهربون في الشوارع، تُطاردهم أرهاط منفلتة من عقالها. وتوجّه الفارون نحو قنصليات روسيا، الولايات المتحدة، فرنسا، التي نُهبت أولاً، بينما نجت قنصلية بريطانيا العظمى، مما أثار كثيراً من الأسئلة لدى الرأي العام في أوروبا.

توجّه عبد القادر خلال إشارة الإنذار الأولى، بصحبة رفيقيه المخلصين قاره محمد ومحمد بلخير، إلى قنصلية فرنسا وتبعه نفرٌ من المغاربة. قام بادىء الأمر بالتفاتة، للقيام بمحاولة لدى المفتي، لكنهم قالوا له إن «المفتي نائم».

علم أن قوات الباشا كانت مرابطة في القلعة، وأن مذبحة المسيحيين قد بدأت، وأن بيوتهم أُحرقت. فوصل عبد القادر إلى القنصلية محاطاً بأربعين مغربياً، توَلّوا على الفوز أمن المبنى، ثم قال لِـمُدبِّر القنصلية: « اسمع كلماتي وزنْها؛ ما دمتُ حياً، ما دام رجلٍ واحد من مغاربتي (المقصود بهم الجزائريين المرافقين له) حياً، لن يُمسَّ أحد. لقد تفاقم الخطر، وعليّ أن أطوِّر وسائل الدفاع. فإذا صمّمت على البقاء هنا فسوف ترغمني على تقسيم القوات التي بحوزتي. وبالعكس، إذا قبلت أن تصبح ضيفي، فسوف أتمكّن من القيام بمساعدة المسيحيين».

وفي أثناء ذلك، كان المغاربة الباقون قد هرعوا بأمر من عبد القادر، وتجمّعوا في منزله. عندما رجع وجد في حمايتهم عدداً معيناً من المارة، من ممثلي القنصليات، وخاصة قناصل أميركا، روسيا واليونان.

أعطى الأمير تعليمات لرجاله الباقين في منزله، وخرج على رأس ثلاثمئة رجل، يتبعه ولداه، وانقضّ على الأحياء المضطربة. فدخل وسط الجمهور متقدّماً على فرقته، مناشداً المسلمين أن يرجعوا إلى العقل، داعياً المسيحيين إلى الإحتماء بصفوفه: « أيها النصارى تعالوا إليّ. أنا عبد القادر المغربي (المقصود به الجزائري)، ثقوا بي، تعالوا ».

كان النصارى الذين ينظرون من وراء نوافذ البيت، قد سمعوا هذا النداء، فهرعوا إلى عبد القادر واحتموا به. ومن قنصلية اليونان وحدها حيث كان قد تكدّس أكثر من ثلاثمئة شخص، جرى استخراج الجميع وحمايتهم. فمن الساعة الثالثة حتى الخامسة بعد الظهر، لم يتوقف عن عبور شوارع دمشق؛ فكان كلما جمع عدداً معيناً من الهاربين، أحاطهم برجاله وقادهم إلى منزله، ثم عاد على الفور بحثاً عن ضحايا آخرين لهذا التمرّد.

وعند اقتراب الليل، تذكّر مؤسسة أخوات المحبة التي كانت تضم أربعمئة طفل من الجنسين. فاجتاز الشوارع مجدداً، وهو يُصادف الجثث في طريقه، ووصل إلى الدير البعيد قليلاً من الحي، الأمر الذي سمح له بإنقاذ الرهبان الستة وأخوات المحبة الإحدى عشرة، والأربعمئة طفل.

كان مشهداً مثيراً أن يُرى سليل السنّي محاطاً براهبات ورهبان وأطفال، يسير في الشوارع ذات الأرصفة المغطّاة بالدم، ويتبعه جنود الجهاد القدامى، ممسكاً بيدٍ أطفالاً مرعوبين، ودافعاً بالأخرى، بضربة عصا، مطاردين مسعورين.

عندما وصل الخبر إلى الجمهور المهتاج، لجأ عدد كبير من المسيحيين إلى مترل عبد القادر، واستولى اهتياج شديد على الأكثرية. وفي صبيحة العاشر من جويلية، جاء جمهور غفير وأحاط بمترل الأمير. وطالبوا بإلحاح بتسليمهم المسيحيين، وقبلوا فقط ببقاء القناصل في المترل. أمام هذه الفوضى كان يمكن لطلقة واحدة أن توقع بمجزرة، فرأى عبد القادر أن عليه التَدَخُل شخصياً.

تقدّم نحو الجمهور الذي انفجر ثانية، مطالباً بتسليم اللاجئين. ولما عاد الهدوء بإشارة من يد الأمير الذي دعاهم إلى السكون، قال لهم: «يا إخواني، إن تصرفكم مُعيب. فهل نحن في يوم حرب حتى يحقّ لكم قتل الناس؟ إلى أي دركٍ انحدرتم، وأنا أرى مسلمين ملطّخين بدم نساء وأطفال! ألم يقل اللّه: « أنه مَن قتل نفساً بغير نَفْسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً »، ألم يقل أيضاً: « لا إكراه في الدين؛ قد تبيّن الرّشد من الغيّ »؟

لكن الهياجَ تجدَّد بقوة وبلا شك، بتحريض من محرِّضين مبثوثين في الجمهور، ردَّ قادة الحركة التمردية بسخرية وبذاءة: « يا جنديَ الجهاد! نحن لا نحتاج إلى نصائحك؛ ولا نطلب منك وعظاً. ما دخلك في شؤوننا؟ أنت الذي كنت تحارب

المسيحيين بالأمس، كيف تُعارض أن ننتقم من إهاناتهم؟ يا ناقضا للوفاء، سلّمنا هؤلاء الذين خبأتهم في بيتك؛ إن لم تفعل فإننا سوف نشملك بالتحريم الذي شملنا به الكافرين، وسنجمعك مع إخوانك ».

عندها خشي عبد القادر أن يرى رجاله الغاضبين من هذه الشتائم، يُقدمون على أعمال انتقامية، فأعطى تعليمات لرجاله باتجاه التهدئة، ثم أضاف: « أيها الجهلة! إذا كانت فكرة عمل إجرامي ومخالف لشريعة الله لا تُخيفكم، فعلى الأقل فكّروا بالعقاب الذي سيترله بكم الناس؛ أُقسم لكم أنه سيكون عقاباً رهيباً. توقّفوا، ما زال الوقت مناسباً. وإذا لم تصغوا إليّ، فهذا دليل على أن الله قد ذهب بعقلكم: فما أنتم سوى بهائم تُثيرها رؤية العشب والماء، لا غير. أما أنا فلم أقاتل نصارى، بل غزاة كانوا يدَّعون أنهم نصارى».

تأثّر الجمهور حيناً بهذه الكلمات، وفي حين آخر ضاعف صراخه: «النصارى، النصارى، أعطونا النصارى». عندئذٍ أخذت عينا الأمير تقدح شرراً، فأغلظ لهم القول وردّ بصوت جهوري: « النصارى ». ردّ عبد القادر: « ما دام واحد من هؤلاء الجنود الشجعان المحيطين بي واقفاً، فلن تنالوا منهم، لأنهم ضيوفي. يا ذابحي النساء والأطفال، يا أولاد الإثم، حاولوا إذاً أخذ هؤلاء المسيحيين من عندي، وهم في عُهدتي، وعندها سأجعلكم ترون يوماً رهيباً، لأنكم ستتعلمون كيف يُجيد الجنود المغاربة (الجزائريون) إنطاق البارود. وأنتم، يا مغاربتي (الجزائريين)، فلتفرح قلوبكم،لأنني، أستشهد الله على ما أقول،سأحارب وإياكم في سبيل قضية مقدسة كالقضية التي حاربنا معاً لأجلها في الماضي!».

ثم استدار نحو قاره محمد: « قاره! جوادي، سلاحي!».
كان لهذا الخطاب أثر شديد في الحاضرين لدرجة أن الجمهور تفرّق فوراً، يطلب النجاة وهو مذعور من التهديد الشديد لرجال الأمير.

منذ تلك اللحظة أرسل عبد القادر مئتي مغاربي Maghrebin (جزائري)، مزوّدين بالبنادق، إلى مختلف أحياء المدينة لاستقبال المسيحيين. أخذ عددهم يتزايد بلا توقّف، والأماكن التي كانت بحوزة عبد القادر، الذي كان قد استولى على بيوت أسرته أو أقربائه، القريبة من بيته، صارت ضيّقة ولا تتسع لكل هؤلاء الناس. كان قد تكدّس هناك حوالى أربعة آلاف مسيحي، حتى دون التمكّن من الجلوس، وبدأ النقص الصحي يظهرُ للعيان.

قرّر القناصل المجتمعون في بيت عبد القادر إرسال وفد، بحراسة مغربية شديدة، إلى والي دمشق، حتى يجد حلاً، فاضطرب الباشا من اللغة التي خاطبه بها القناصل، وارتعب من تحمّل مسؤولية كبيرة كهذه. فحاول بادىء الأمر أن يبرّئ نفسه، متذرّعاً بأن قواته قد بقيت محجوزة، لأنها كانت مؤلفة من أفراد طوّعوا بالقوة، وبالتالي أكثر استعداداً لإضرام نار الفوضى من توقيفها.

وبما أنهم لفتوا نظره إلى أنه لم يكن واثقاً من قواته حتى يُوكلها بأمر اللاجئين، فإن من المناسب أن تقوم كتيبة من المغاربة بالسير وراءهم لحمايتهم. ولكن اللاجئين أنفسهم لم يرغبوا في مغادرة بيت عبد القادر، خوفاً على حياتهم في قلعة

الباشا؛ فكان لابدّ من استعمال القوة بموافقة قنصلين، أحدهما قنصل روسيا، ومرافقتهم في ملاذهم الجديد.

الآن وقد فرغ بيت عبد القادر من محتلّيه المساكين، تفرّغ الأمير لمتابعة العمل الإنساني الذي كان قد بدأه وأحسن قيادته. فقد أعلن عن طريق مغاربته في كل المدينة أن عبد القادر سيدفع خمسين قرشاً لكل من يأتيه بمسيحي حيّ. جلس أمام بابه، محاطاً بولديه اللذين كانا ينفّذان أوامره، وراح شخصياً يستقبل المساكين، وإلى جانبه صندوق مال. وعندما فرغ الصندوق، كان يستبدله بصندوق آخر. وعندما كان يجتمع عدد كافٍ من المسيحيين تحت سقفه، كان يطلب من مغاربته أن يقودوهم إلى القلعة.

تلك هي الرسالة التي كان عبد القادر قد حمّلها لنفسه، فقاد شخصياً عملية إنقاذ مسيحيين كاد الحقدُ أن يؤدي بهم إلى الموت الأكيد. ومضت خمسة أيام لم يعرف خلالها نوماً ولا راحة، مستنفراً طاقته وطاقة رجاله.

استبدلت الحكومة التركية أحمد باشا بفؤاد باشا، الذي سارع إلى إظهار مدى تقديره لتدخل عبد القادر الشديد لأجل المسيحيين المهدَّدين. ثم أمر الأمير بتسليم الأسلحة التي يحملها الجزائريون. فتلقّى عبد القادر الأمر كأنه شتيمة وإهانة، وردَّ عليه: « لن أنحني أبداً أمام هذا الأمر، اللهمّ إلاّ إذا أعلن فؤاد باشا بصراحة أننا استعملنا، رجالي وأنا سلاحنا استعمالاً سيئاً. سأترك في هذه الحالة له أمر تبرير تصرفه، على أحسن

ما يستطيع، أمام القوى الأوروبية التي أيدت طريقتي في التصرف».

إن العمل الباهر الذي قام به الأمير وسط جمهور منفلت، وتحت نظرات عين قاسية لباشا منافق، أثارت إعجاب العالم. فشهدت له القوى الكبرى بالإمتنان والتقدير، وبعثت له برسائل شكر، مصحوبة بهدايا وبأرفع الأوسمة.

فقد منحته روسيا: وسام الصَّليب الأكبر للنِّسر الأبيض، وفرنسا: وسام فرقة الشَّرف من الدَّرجة الأولى، وبروسْيا: الصَّليب الأكبر للنِّسر الأسود * واليونان: صليب المنقذ الأكبر، وتركيا: المجيدية من الدَّرجة الأولى، والبابا: وسام بيوس التاسع، وأرسلت له إنكلترا بندقية بسبطانتين، مرصَّعة بالذهب، وأهدته أميركا أيضاً مسدسين مرصّعين بالذهب. وإيطاليا: الشريطة الكبرى، نيشان "موريس والعازر" وهو أقدم نياشين الخيولية والفروسية، واليونان: النِّيشان الكبير، رتبة أولى، المدعو نيشان المُنقذ.

كما أرسلت إليه عدة شخصيات مسلمة رسائل دعم وتقدير، كانت أرقُّها رسالة الإمام شَمِيل [6]:

« إلى مَن ذاع صيته بين الجميع، كباراً وصغاراً، الذي يمتاز من بقية الرجال بمزاياه العديدة والثمينة؛ الذي وأدَ نارَ الفتنة قبل أن تندلع؛ والذي اجتثّ شجرة العداوة التي يكون وجه الشيطان ثمرتها، كما هو الحال دوماً. الحمد لله الذي ألبس عبده لباس القوة والإيمان! نريد أن نتحدّث عن الصديق الصادق والحقيقي، عبد القادر العادل. السلام عليك. ولتحمل نخلةُ الإستحقاق والشرف الثمار في شخصك دوماً.

وأعلم أن أذني عندما سمعت ما لا يليق سماعه، وما يُعيب الطبيعة الإنسانية، أعني الحوادث التي وقعت مؤخراً في دمشق بين المسلمين والنصارى، حيث تصرّف المسلمون تصرّفاً غير لائق بأتباع الإسلام، والذي لا يمكنه أن يُفضي لغير التطرّف والغلوّ من كل نوع. عندها لفَّ نفسي بُرقعٌ وتلفّع وجهي، الهادىء والصافي عادة بظلال الكآبة. وصرخت في نفسي: (لقد عمَّ الشرُ الأرضَ والبحرَ، بسبب خبث الإنسان وانحرافه).

ولقد ذُهلت من عمى الموظفين الذين انغمسوا في تعدّيات مماثلة، متناسين كلام النبي (عليه الصلاة والسلام): « من يظلم ذمياً (نصرانياً) ومن يعتدِ عليه، ومَن يأخذ منه أي شيء دون رضاه، سأكون خصمه يوم الحساب ». يا لها من كلمات سامية!

لكني حين علمت بأنكم آويتم الذمّيين تحت جناحي طيبتكم وإحسانكم، وأنكم عارضتم الناس الذين تصرّفوا خلافاً لمشيئة الله العليّ، ونلتم قصبَ الظّفر في مضمار المجد (النصر الذي أحرزتموه بجدارة كبيرة)، حمدتُ لكم صنيعكم، كما سيحمده لكم الله العليّ يومَ لا ينفع مال ولا بنون.

ففي الحقيقة، لقد طبقتم كلام الرسول الأعظم الذي أرسله الله العليّ، حين مددتم جناح الرحمة إلى عباده المستضعفين، وأقمتم حاجزاً في وجه أولئك الذين كانوا قد طرحوا مثاله الأعلى. فليحمنا الله من هؤلاء الذين يعتدون على حدوده!

لقد تشوَّقتُ لإبداء التقدير الذي أكنّه لكـــم ولعملكـــم، فسارعتُ إلى توجيه هذه الرسالة إليكم، كما تفيضُ قطرة من نبع عواطفي ومشاعري.

الفقير الذي وقع بأمر اللّـــه، بين أيدي الكافريـــن.
شميـــل، المنفـــي».

ردَّ عبد القادر على هذه الرسالة المفعمة بالمودّة والتقـــدير، الصادرة عن رجل الشريعة القرآنية:

« الحمد للّه ربّ العالمين وصلى اللّه على سيدنا محمد وكل أخوانه من الأنبياء والمُرسلين.

يصْدُرُ هذا المكتوب من يد المحتاج إلى وافر نعمـــه، عبـــد القادر بن محيي الدين الحَسَنيّ، والموجه إلى أخيه وصـــديقه في اللّه، شميل المجيد! أحسن اللّه إليكم وإلينا، في وطننا وفي الغربة، وسلام اللّه ورحمته عليكم إلى يوم الدين.

تلقّينا رسالتكم المشرفة وكلماتكم الودية، فأثلجتْ صدرنا. فما سمعتموه عن أمرنا، وما نال كامل رضاكم، بشأن دفاعنا عن الذمّيين، وما قدَّمنا لهم من حماية، لأشخاصهم وممتلكاتهم معاً، بحسب حماسنا وإمكاناتنا. إن ذلك كله كما تعلمـــون، نابع من طاعتنا لمبادىء شريعتنا المقدّسة وتعاليم الإنســـانية. ففي الحقيقة، شريعتنا هي تأكيد على كل المكارم، وتشـــمل الفضائل كلها، مثلما يشتمل الطوق على العنق.

فجميع الديانات تدين الرذيلة: وإن الانجرار وراءها يعـــني تناول السُّمّ وإبقاءه في المعدة. ومع ذلك، كما قال الشـــاعر: « عند الشدائد يضع الرجل عُصبةً على عينيه، بحيث يكون ما

يظنّه جميلاً، معاكساً تماماً لما يظن». وهذا ما ينطبق عليه القول الحق: « إنا للّه وإنا إليه راجعون »، خصوصاً عندما نفكر بمدى ندرة الرجال المتدينين حقاً، ومدى ندرة الأبطال المدافعين عن الحق. فعندما نرى رجالاً جَهلة يتخيّلون أن أساس الإسلام القسوة والشدة والتطرف والهمجية، يغدو من المفيد ترديد هذه الكلمات: « الصبر جميل؛ وثقتنا باللّه ».

لقد علمنا منذ أمدٍ قصير أنكم صرتم بالقرب من قيصر روسيا، وأن هذا الأمير يعاملكم بطريقة تجدر بكم وتليق، وأنه أنعمَ عليكم بالتكريمات وغمركم بالتشريفات. وفوق ذلك، قيل لنا إنكم طلبتم السماح بزيارة الأماكن المقدّسة (مكة والمدينة)؛ وإنّا نتضرّع إلى اللّه أن يستطيع تلبية طلبكم ويحقّق أمنياتكم.

في الحقيقة، إن إمبراطور روسيا هو أحد السلاطين الأكثر تميّزاً. فهو من أولئك الذين يحبّون أن يروا تاريخ أعمالهم العظيمة بين دفّتي الكتب. ونأمل بالتالي بأن يلبّي حُلمُه رغباتكم بلا متاعب. هكذا تصرّف السلطان نابوليون الثالث تجاهنا. فاتّخذ قرارات بحقنا قد لا تخطر أبداً في خاطر الإنسان. وبعد، فإن علينا أن نضع أملنا في اللّه وحده. وله وحده حق ثوابنا.

عبد القادر بن محيي الدين الحسني »

هكذا، تلقّى عبد القادر بتواضعه الفطري، المُعزّز بالصفاء العقلي والتقوى الدينية، هذه الباقة الرائعة من آيات الشكر، كتحية موجّهة إلى ابن الجزائر المسلمة، وأكثر من ذلك،

كتحية للإسلام نفسه، المدرك على وجهه الصحيح، الوحيد الذي كان وظلّ دائماً على مدى العصور، إسلام التسامح والإخاء والمحبة.

1- متصوّف أندلسي شهير (1165 - 1240) توفي بدمشق. له كتب كثيرة منها (الفتوحات المكية، مفاتيح الغيب، التعريفات، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ديوان شعر). نشر الأمير على نفقته كتابه (الفتوحات المكية). ترجمه إلى اللغة الفرنسية موريس غلوتون، منشورات ألبان ميشال، باريس.

2- السيد بكلار عن فرنسا؛ اللورد دوفرين عن إنكلترا؛ السيد درنفوس عن بروسيا؛ السيد نوفيكو عن روسيا.

3- في لبنان فقط، لأن في دمشق كان هناك ثمانية آلاف ضحية.

4- هذا التباين في العقوبات، الذي تشكو اللجنة منه، قد يدلّ وحده على جُرمية الحكومة التركية.

5- حي النصارى.

6- الإمام شميل الداغستاني، معاصر لعبد القادر، قاد على رأس مريديه كفاحاً طويلاً ضدّ روسيا (1834 - 1859). كان سنة 1860 بعدما وضع السلاح في حماية ألكسندر الثاني، بالقرب من موسكو. مثلما كان عبد القادر في فرنسا بعد إطلاق سراحه بأمر من نابوليون الثالث. ومما يلاحظ أن مسار الرجلين متماثل. التقيا في السويس (مصر) سنة 1871، عندما سُمح لشميل بزيارة الأماكن الإسلامية المقدسة، بناء على تدخل الأمير لدى نابوليون الثالث، الذي توسّط له لدى قيصر روسيا (سنعود في الملحق إلى تماثل الرجلين وكفاحهما).

-* ورد في كتاب (تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر) محمد بن عبد القادر الجزائري، أن وسام الصليب الأكبر للنسر كان من اللون الأحمر ج 2، ط 2، دار اليقظة العربية للتأليف والتـــرجمة والنشر، دمشق 1964، ص 642.

إقامة الأمير مجدّداً في باريس

زار عبد القادر باريس مجدداً في جويليــه 1865، حيــث استُقبل استقبال المنتصرين. وتصادف هذا مع عودة نــابوليون الثالث Napoléon III، القادم من الجزائر حيث قــام بزيــارة رسمية. وكانت رحلة أولى قد قادت الإمبراطــور إلى مدينــة الجزائر سنة 1860؛ لكنها لم تدم سوى بضعة أيام، إذ جــرى تقصيرها بسبب وفــاة أخت الإمبراطــورة أوجيني Eugènie في باريــس.

وخلال تلك الإقامة القصيرة، شهد في ضــواحي الجزائــر استعراضا جليلا وملونا، ورأى الفرسان العرب وهم يُفرغون بنادقهم في آخر سباقاتهم أمام خيمته، فقــال هــذه الكلمــة الشهيرة: « هذا ليس شعباً، إنه جيش ».

لكنه مكث بالجزائر في سنة 1865 خمسة أسابيع، زائراً البلد من شرقه إلى غربه. وكان قد أصغى كثيراً، وشاور وفكّر. بعد هذه الرحلة، لا يمكن للقاء مع الأمــير إلا أن يكــون نافعــاً لاستكمال رؤيته الشاملة. أما بالنسبة إلى عبد القادر، فهــذا اللقاء لا يمكنه إلا أن يكون مناسبة للإطلاع على انطباعــات الإمبراطــور.

جاء عبد القادر إلى باريس قبل عشر سنوات، فتم استقباله كخصم بارز، كانت فرنسا الإمبراطورية تُصلح مــا ألحقتــه حكومة لويس فيليب به من أذى وعنف. واليــوم اســتقبلت فرنسا بهالة المنتصرين بطــل الإسلام، منقــذ المســيحيين في أرض إسلاميــة.

احتفت به باريس كلها، إذ كرمه رسميا فيكتور دوكري Victor Ducry وزير التعليم العام وعضو الأكاديمية الفرنسية، كرّمه رسمياً بتوزيع جوائز المباراة العامة في السوربون. أما إميل دو جيراردان Emile de Girardin وهو رجل سياسي وصحافي، صديق شخصي لنابوليون الثالث، فقد أقام على شرفه استقبالاً كبيراً حضرته باريس كلها، من عالم السياسة والفنون والآداب، إلى كبار أعيان الجيش والإمبراطورية.

إلتقى عبد القادر مطوّلاً نابوليون الثالث ووزير الحربية ووزير التعليم العام. وبما أن نابوليون الثالث كان يواصل حلمه بأن يقيم في الجزائر مملكة عربية على رأسها نائب ملك، بحيث يبقى هو «إمبراطور الفرنسيين والعرب»، فقد كلّف مترجمه إسماعيل أوربان– وهو مولّد أبيض اعتنق الإسلام، متزوّج من مصرية، محبّ للعربية ومعادٍ للإستعمار– كلّفه بأن يستطلع رأي الأمير حول احتمال تعيينه نائباً لملك الجزائر. وأدرجت الصحيفة البلجيكية (L'Indépendant) المشهورة بنشر أسرار القصر الملكي، الخبر في أعمدتها.

كتب إميل دِو جيراردان في جريدته (La Presse) بتاريخ 23 جويليه: « إن اختيار الجزائر لنيابة ملكية مدى الحياة، موكلة إلى عبد القادر، التابع الكبير لفرنسا الإقطاع، من شأنه أن تكون له من منظور كبريائنا القومي والحضاري كل مكاسب الفتح، وقد لا يعود عليه بغير المخاطر والعقبات».

وسرعان ما كشفت بعض الدوائر السياسية والعسكرية في فرنسا عن دهشتها، وغالباً عن ممانعتها. فقد كتبت جريدة

(بريد مرسيليا – Le Courrier de Marseille): « إن دوره (الأمير) أكثر نفعاً لفرنسا في الشرق، منه في الجزائر». وأضافت الجريدة الرسمية (Le Moniteur) تعليقاً بمثابة تكذيب قاطع: «لقد جرى النظر إلى هذا التعيين بصفته تمهيداً للتخلي (عن الجزائر)».

استاء المستوطنون في الجزائر، من ذلك وراحوا يعبّئون الرأي، مثل جول دوفال، محرِّر بجريدة (L'Echo d'Oran) مستشار عام سابق في وهران، رجل إشهار بفرنسا ورأس العشيرة الإستيطانية، وضع كرّاساً حول السياسة الإمبريالية في الجزائر، قال فيه بنحو خاص: «إن الأمة العربية التي تفتقر إلى أي أساس في الإثنوغرافيا والتاريخ، يجب أن تُمحى من اللغة والعلم والسياسة ».

سافر الأميرُ إلى لندن حيث استُقبل بكثير من التقدير والإحترام. فالتقى فيها بأصدقائه، اللورد لُندندري Lord Londonderry، عائلة بورتون Burton، الشاعر ويليام تشاكشراري W.Tchackcherary. وزار دير ويستمينستر Westminster، ومجلس العموم والمتحف البريطاني.

وكان هناك رعايا إنكليز جرى إنقاذهم في دمشق، فلم يكن في مستطاع حكومة صاحبة الجلالة البريطانية أن تتغاضى عن ذلك، حتى وإن كانت القنصلية الإنكليزية قد نَجَتْ من أذى المهاجمين الأوائل، فإن ذلك لم يكن في نظر الأوروبيين الآخرين مجرّد مصادفة.

وأما بخصوص موضوع نيابة - ملكية تُوكل إلى الأمير، فقد جرى تداول اقتراح بين باريس ولندن، وفي باريس أكثر من لندن: بالنظر إلى نفوذ عبد القادر يمكنه حقاً أن يكون نائباً ملكياً مثالياً بالنسبة لسوريا. لكن لدى تحليل دوافع العصر السياسية والرهانات الإستراتيجية والمصالح المتضاربة في الشرق، نجد أن شيئاً لا يدعو إلى الإعتقاد بأن إنكلترا وتركيا قد تؤيّدان هذا المشروع.

الأولى، نظراً للعلاقات المميّزة بين عبد القادر ونابوليون الثالث؛ والثانية، خوفاً من رؤية الأمير يتحوَّل إلى محمد علي باشا جديد.

ثمة نقطة أخرى قد تكون مُحبطةً لانضمام القوتين إلى هذا المشروع؛ وهي أن تتويج عبد القادر في دمشق كان يعني بكل وضوح، وضعَ عربي على رأس سورية. الأمر الذي من شأنه أن يشكِّل سابقة خطيرة في تاريخ الإمبراطورية العثمانية. فضلا عن أن الإسلام، قد يستعيد بعض الإزدهار تحت قيادة عبد القادر؛ لأن الأمير على ما يرويه ترجمانه الفرنسي الملحق به السيد م. بولاد M.Bullad، كان يردّد غالباً في تقرير موجّه إلى السيد فالنسكي Valinski وزير الشؤون الخارجية: «إن دين الإسلام يموت ذاتياً لانعدام مسلمين، مسلمين حقيقيين».

أعرب الجنرال مارتيمبري Martimprey في تقرير سرّي عن رأيه في المسألة: «لقد تيقّنت من خلال كل المؤشرات التي جمعتها منذ عدة أشهر أن الأمير مازال ينوي الإضطلاع بدور، ولا أعتقد أنه يرغب في العودة إلى المسرح في الجزائر، على الرغم من النفوذ الذي لا يزال اسمه محتفظاً به هنا.

أرى بالأحرى، نظراً لحالة الشرق الهشّة، أنه قدّر المكانة التي يستطيع أن يحتلها فيه بقوة ذكائه وطاقته ومهارته، وبدعم من تابعين شجعان ومخلصين. فالهجرة هي التي أرسلتهم إليه من الجزائر. وهم ليسوا أول القادمين الذين تسبّبت بهم؛ لكنهم بحق هم أشد الرجال الذين قدّمتهم القبائل المحاربة والمزوّدة بالموارد المالية، من خلال بيعها لما كان في حوزتها.

فهل يرى الإمبراطور أن عبد القادر يستطيع الإضطلاع بدورٍ في الشرق؟ إن كان الأمر كذلك فما علينا إلا أن نترك الهجرة تواصل مجراها. وإذا كان الأمر معكوساً، فإن الحدّ منها إنما يتوقّف علينا.

ما الفائدة التي يمكن أن نجنيها من إحياء الإسلام؟ ».

إن كل هذه الإفتراضات المتعلقة بالنيابة السملكية لن تصل إلى شيء، ما دام عبد القادر كان قد ردَّ على الجنرال فلوري Fleury[1]، الذي جاء لاستطلاعه، بالطريقة نفسها التي ردَّ بها على إسماعيل أوربان Ismail Urbain: « أرى أن حياتي السياسية قد انتهت، وأريد أن أكرِّس ما بقي لي من أيام حياتي، للصَّلاة والدرس والتأمل ».

1- مساعد معسكر الإمبراطور.

خاتمـــة

السويس (جمهورية مصر العربية): لقاء عبد القادر وشميـل الداغستاني، بعد الثورة والكفاح والهزيمة، التقـى الإسـلام الآسيوي بالإسلام المغاربي.

رجلان، مصيران عظيمان. كلاهمـا مناصـران شـديدان لاستقلال بلديهما؛ ومدافعان بلا كلل عن كرامة الإنسـان، وزعيما حرب وقائدا جماهير. كلاهما صوفيان، نَهَلا من مناهل الإسلام الزهدية كلاهما رجلا دولة متنوِّران، ومفاوضان قويان وخطيبان لامعان. وأخيراً في صمت الليالي الهادئة، شـاعران موهوبان.ها هما في المقام الأول عبد القادر وشميل.

لا ريبَ في أن الرجلين العملاقين، لم يلتقيا لكـي يتعانقـا عناقاً أخوياً بين محاربين مغلوبين، وحسب. فلربما كان بينهما أمورٌ جمّة يقولانها لبعضهما: حول كفاحهم المتوحِّد المنعزل، الموسوم بانتصارات وهزائم، حول قوّة الخصـم العسـكرية، حول موقف الباب العالي، السند الطبيعـي المنتظَـر، لكنـه جاحد. حول سلوك القوى الأخرى، المشـغولة بمصـالحها والمدفوعة أحياناً بغزو متضامن لمجالات النفوذ والسيطرة.

وأخيراً وباهتمام خاص، حول حالـة صـحة الإسـلام الضعيف، المُضعف من داخله بزخاوة أو تواطؤ أمراء مـومنين بربح المطـامع السـلطوية، المسـتهدف باسـتمرار مـن خارجه،والموضوع موضع الشكوك والمطامع الدائمـة مـن جانب الغرب المسيحي، والذي لا تزال الآثار الذهنية لحملاته الصليبية متغلغلةً في ظلامية مكابرة ومنحطّة.

* * *

كانت الحملة التي شنّها بطرس الأكبر منذ 1772 ضد المملكة الفارسية، المرحلة الأولى من سلسلة نزاعات طويلة، لاسيما بين الفرس والعثمانيين، التي أدّت إلى تأسيس الهيمنة الروسية في القوقاز. كان العرب في الماضي، قد حملوا لغة القرآن إلى تلك الكتلة الجبلية الهائلة التي كانوا يسمونها: جبل اللغات. أما الأسلمة التي دامت من القرن السابع حتى القرن السابع عشر، فقد كانت طويلة، ولكونها كانت طويلة فقد كانت عميقة.

كانت الشيشان دولة مستقلة، حتى أنها قد فتحت لها سفارة في موسكو سنة 1589، أي قبل قرنين من قيام الثورة الفرنسية. وظلّت اللغة العربية فيها حيّة وحيوية، ولم تُلغ إلا حديثاً سنة 1926 من قبل حكومة الإتحاد السوفياتي.

إن الإسلام كما أدركه القياصرة والأباطرة، لم يكن دائماً منسجماً مع ذوق المسلمين الغيورين على عقيدتهم. وتحت تأثير الموسوعيين الفرنسيين، كانت كاترين الثانية ترى في الإسلام ديناً «عقلانياً، أقدر من المسيحية الأورثوذكسية على تمدين آسيا».

عندما زارت الكريمي سنة 1887، استقبلها التتار استقبال الفاتحين. لكن ألكسندر الأول لم يحترم الضمانات التي منحتها القيصرة إلى رعاياها المسلمين. فكونه لامبال بالإسلام، كان شديد الإعجاب باليونان، وكان يحلم بأن يجعل من الكريمي يوناناً ثانية. «استوطن فيها الكثير من المستوطنين اليونانيين، الألمان، البلطيين، الروس، الأوكرانيين. فلم يبق أمام التتار سوى وسيلة وحيدة للبقاء: الهجرة إلى الإمبراطورية العثمانية»[1].

* * *

حين حال نابوليون الثالث في الجزائر سنة 1865، وراوده مشروعه بإقامة مملكة عربية، ورغب في أن يعرب لعرب الجزائر عن شعوره باحترام الشعيرة الإسلامية، كلّف ترجمانه وصفيّه السياسي إسماعيل أوربان بأن يمضي للتداول مع الأعيان الجزائريين، ولاسيما قاضي قسنطينة، الهاشمي بن باديس، جدّ الشيخ عبد الحميد بن باديس، تدليلاً منه على الرعاية الفائقة التي يجب تقديمها لصون التعاليم الإسلامية.

كان الإمبراطور يقول متودّداً للأفكار الوطنية: « لا يحقّ لفرنسا أن تحوّل سكان شمال إفريقيا الأصليين إلى فرنسيين » وأيضاً: « لماذا الإصرار على تطبيق مؤسساتنا على هذا الشعب؟... لقد جرى اتّخاذ الكثير من الإجراءات الإدارية أو السياسية لاستيعاب الشعب العربي؛ لكنها لم تُفضِ إلى نتيجة أخرى سوى استغلاله والتضحية بأغلى مؤسساته على مذبح مصالحنا ».

وكان بونابرت، خلال احتلاله القصير لمصر، حيث جعل نفسه ساحراً للنخب المصرية، قد ألقى على الأئمة والقضاة المجتمعين في القاهرة، خطاباً « مؤيداً للإسلام »، ومبالغاً في تأييده للإسلام لدرجة أنه لم يتوانَ عن إعلان موقفه المناوىء للبابا، كما لو كان العداء للبابا يمكنه أن يشكّل حافز إرضاء للمسلمين، الذين ما برحوا يكنّون احتراماً عميقاً للديانات التوحيدية، وتبجيلاً خاصاً للحبر الأعظم.

لا شك أن موقف بونابرت كان صادراً عن فورة شبابية وعن جهل بالعالم الإسلامي. ولقد حرص حين رسا في جزيرة

مالطا قبل غزو مصر، أن يكتب إلى داي الجزائر رسالة ودّية جداً لكي يحصل على حياده.

لكن الداي مصطفى أعلن الحرب على فرنسا، وهبَّ لنجدة مصر. ولقد طُرد بونابرت من مصر، لاسيما من قبل الأسطول الإنكليزي بقيادة الأميرال نلسون Nelson، الذي هزمه في معركة أبوقير. ولم تتردّد الملكة فيكتوريا عن الكتابة: « لئن كان على مصر أن تنجو من براثن تركيا، فلا يجوز أن تقع في أيدٍ أخرى سوى أيدينا ».

عاد بونابرت إلى باريس وكتب إلى الداي مصطفى باشا:

« بونابرت

القنصل الأول للجمهورية الفرنسية

إلى مصطفى باشا، داي الجزائر

السيد الشهير والعظيم

إن حالة الحرب الناشبة بين الجمهورية الفرنسية وولاية الجزائر لا تنبع البتّة من العلاقات المباشرة بين الدولتين، وهي اليوم بلا مبرر.

خلافاً لمصالح الشعبين، كان الأمر يجري دائماً حسب أهواء الحكومة الفرنسية. ونظراً لأنها مقتنعة بأنها مماثلة تماماً لميولكم، فإني لن أتردّد البتّة في أن أعطي للمواطن ديبوا تانفيل الأمر بالذهاب إليكم وهو مزوّد بالصلاحيات الكاملة لإقامة علاقات سياسية وتجارية بين الدولتين، على قدم المساواة التي كانت عليها قبل القطيعة.

إني لعلى ثقة بأنكم ستستقبلون هذا المفاوض الإستقبال نفسه، الذي كنت سأقوم به تجاه الشخص الذي كنتم ستكلفونه من رعاياكم بمهمة مماثلة لديَّ.

بونابرت. باريس 1800/04/05 »

كانت مدينة الجزائر المُتودَّد إليها أيضاً، موضوعَ مطامع نابوليونية. لأن بونابرت أرسل إليها بعد ثماني سنوات جاسوساً محترفاً (كان يستخدمه في الشرق الأوسط) هو الرائد بوتان Boutin لكي يزوّده بوصف دقيق للساحل الجزائري. هذه الوثائق هي التي ستُستعمل لاحقاً في إنزال القوات الفرنسية في مدينة الجزائر سنة 1830.

وقبل ذلك بعدة قرون كان لشارلكان Charles Quint موقف أقل التباساً. إذ كان يستعمل القوة علناً بدلاً من الدبلوماسية. فقد شنَّ الحرب على الإسلام، وبعدما احتل تلمسان (1530) وتونس (1535)، قصف مدينة الجزائر (1541) على رأس أسطول كبير طردته مقاومة حسان بن خير الدين بربروس، وقد ساعدته بأعجوبة الظروف المناخية التي حوَّلت الحملة إلى كارثة. لو كان شارلكان قد نجح، لكانت شمال إفريقيا، وربما بقية القارة قد تعرَّضت لعملية تنصير بالقوة، بقوة السلاح وبخطى واثقة.

* * *

ما لم يستطع شارلكان أن يحقّقه على صعيد التوسع الكولونيالي، ستحقّقه معاهدة طنجة. ذاك أن مولاي عبد الرحمان المسكين، حين يوافق بسذاجته على البند الذي عجَّل

في سقوط عبد القادر، إنما فاته أنه كان يستعجل في وضع العرش المغربي والمناطق الأفريقية الأخرى في مهب الأخطار.

ولقد جاء الملك محمد الخامس ليمحو لاحقاً هذا العار. انتزع في بادىء الأمر من شعبه إلى المنفى البعيد في مدغشقر (1953)، تحديداً في الجزيرة التي هدّأها (الجنرال) ليوتي Lyauty قبل أن يمضي لتهدئة المغرب، وبعدها عاد مُظفراً إلى بلده لاعتلاء عرش أجداده. كان بطل استقلال المغرب، وحليف الجزائر المجاهدة والسند القوي لقضيتها.

لقد كان ملكاً عظيماً، حسب ما كتبه عنه الشيخ البشير الإبراهيمي، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (بعد عبد الحميد بن باديس) أثناء لقائهما في باريس سنة 1951، حيث أوضح منذ البدء أن ليس من عاداته التبخير للملوك. فهو يرى (الإبراهيمي) أن الملوك المسلمين أثاروا في معظمهم مواضيع سجال قلّما يُحسدون عليها. فبين همسات القصر ومؤامرات البلاط، كانوا يقضون أوقاتهم في لطائف المواخير، وتجديد الحريم والعربدات الليلية.

لكن السلطان محمد بن يوسف قد فتنّه ببساطته، بتقشفه وذكائه الحاد ومعرفته التامة لشؤون الناس وأحوالهم، وحبه لبلده ومطامحه بالنسبة إلى شعبه، وصفاته الأخلاقي وتعلّقه بالقيم الحقيقية في الإسلام، المجرّدة من كل مقدس/ طابو وكل تضليل.

إنها تحية زاهرة إلى عاهل عربي، مسلم ومغربي معاً. ولنتحدث عن المغربي بنحو خاص. فبينما كان لا يزال يُلقّب

بالسلطان، كان محمد الخامس عُرضةً للمطامع الناجمة عن مؤتمر جبل طارق سنة 1906؛ فقد قرّر هذا المؤتمر التدويلَ الإقتصادي للمغرب، وأعطى لفرنسا وإسبانيا حقّ الشرطي. ومن جهة ثانية، ترك مصر لإنكلترا؛ وأمام احتجاج غيّوم الثاني حربياً في مرسى طنجة، تنازل (المؤتمر) لألمانيا عن الأراضي الممتدة من الكونغو إلى الكاميرون.

كان محمد الخامس وهو رجل سياسي مطّلع، يتوقّع اعتراف العالم الغربي بجميله، لمآثره الكثيرة على صعيد الأحداث العسكرية، ومنها تحرير الطوابير المغربية لمرسيليا؛ كما كان الأمل يراود الجزائريين، لكنهم تعرّضوا إلى مجازر 1945 الدامية، وذلك رداً على آلاف قتلاهم في المقابر الأوروبية.

لقد خاب كثيراً أمل الجزائريين والتونسيين والمغاربة. ومن الآن فصاعداً لم يبقَ أمامهم سوى خيار وحيد: النضال التحريري. فقاد محمّد الخامس المعزّز بشرعيته السلطانية، المنحدّر من سُلالة عريقة، مقاومة شعبه بيسالة وحزم. وعاد تمرُّده عليه بنفيه إلى مدغشقر، حاملاً معه إلى منفاه البعيد، الحسن الثاني الأمير المتوقّد ذكاءً، ليكابد محنة التضحية ويستعدّ لمواصلة عمل والده العسكري.

عبر الشعب الجزائري عن تضامنه بقوةٍ مع الشعب المغربي، المتعلّق بصورة محمد الخامس، الرجل المنقذ لمغرب متحرِّر، منعكس في مغرب عربي كبير، منعتق من العذاب وموحّد في السلم.

كانت ذُرْوَة هذا التفاعل الشعبي الإنفجار المتوالي في البلدين، في أوت 1955 محقّقاً استقلال المغرب، ودافعا الثورة

الجزائرية إلى طـــــريق اللارجعـــة، لاسترجــــاع الحريـــة والإستقلال المبـــارك.

حين اعتّلى محمد الخامس عرشه سنة 1956 كعاهل للمملكة المغربية وحتى وفاته سنة 1961، قدّم دعمه القـــوي للشـــعب الجزائري، طابعاً الذاكرة المغربية بذكرى متوقّدة ودائمة.

* * *

وفي الجانب الآخر، شرق البحر المتوســـط، لم يســـتجب السلطان عبد المجيد لنداء شميل وعبد القادر معاً، بعدما ناشداه العون. فعندما اندلعت حرب الكريمي سنة 1854، اعتقد شميل أن من حقّه أن ينتظر عوناً من أولئك الـــذين كـــانوا مثلـــه يحاربون روسيا. لكن حلفاء إسطنبول لم يفعلوا شيئاً. كـــان هدفهم إضعاف روسيا وتركها تغرق في الوحل القوقـــازي، لمنعها من الطمع بالممتلكات البريطانية في الهند؛ وفي الوقـــت نفسه عدم السماح بقيام دولة مسلمة في القوقاز.

وبالمقابل، عندما سيتعلق الأمر بحماية الأقليات المسيحية في الصين والدفاع عنها، لن يتردّد الفرنسيون والبريطـــانيون في القيام بمعاقبة إمبراطور الصين، المتّهم بســـوء معاملـــة هـــذه الأقليات وذبحها، وبنهب قصر بكين الصـــيفي [2] في هـــذه المناسبـــــة.

كان فيكتور هوغو يتربّص بأقل غلطة من جانب نابوليون الثالث، فكتب من منفاه في غرنســـي Guernesey، الرســـالة التالية [3]: « ذات يوم، دخل إلى القصر الصيفي لصّان. الأول نهب، والثاني أحرق. ورأينا وراء ذلك كله اســـم إلجـــان [4]،

الذي كانت له الخصيصة المشؤومة التي تذكّر بالپارتنون. فما كان إلجان قد صمّمه للپارتنون، جـــرى تنفيـــذه في القصـــر الصيفي على أكمل وجه، بحيث لم يُترك شيء.

ربما لم تكن كنوز كل كاتدرائياتنا مجتمعةً تعـــادل هـــذا المتحف الشرقي الرائع والساطع. مأثرة كبرى، نعمة عظيمة! ملأ أحد الغالبين جيوبه، والآخر صناديقه؛ وعادوا إلى أوروبا وهم متخاصرين، متأبطين وضاحكين.

نحن الأوروبيين كنا المتحضّرين، وبنظرنا الصـــينيون هـــم البرابرة. هذا ما فعلت الحضارة بالبربرية. أمام التاريخ، أحـــد اللّصّيْن سيُدعى فرنسا، والآخر سيدعى إنكلترا. لكني أحـــتجُّ وأعترض.

لقد أحرزت الإمبراطورية الفرنسية نصف هذا النصر، وهي تعرض اليوم بنوع من سذاجة المالك، سقط المتاع الرائع مـــن القصر الصيفي. آمل أن يأتي يوم تكون فيه فرنسا قد تحرَّرت وتنظفت، فتعيد هذه الغنيمة إلى الصين المنهوبة.

بانتظار ذلك، هناك سرقة وسارقان. هذا ما أراه ».

لكن، لنتوقف عن تحميل الأوزار للأبـــاطرة وحدَهم. فقد كانت براءة الجمهوريات التي أعقبت الملكيات، بعيدة عن الوضوح.عندما صار تيرس Theirs وماك ماهون Mac Mahon رئيسين للجمهورية بعد ســـقوط سُدَان Sedan، ناديا باستكمال استعمار الجزائر واستيطانـــها. وكان جيـــل فيرِّي Jules ferry، بطـــل العلمانية والقيم في الـــمدرسة الجمهـــورية، واحداً من أشد المتحمّسين والمؤيدين للتوسع الكولونيالي.

إنه هو الذي صنع إعلان الحماية Protectorat في تونس. وهو أيضاً الذي شجَّع سافورنيون دو برازا Savorgnan de Brazza ودعمه بمئة ألف فرنك، لكي يمضي بالإستكشاف «العلمي» إلى غاية غزو الكونغو، وإطلاق اسمه على برازافيل. حتى إن كليمانصو Clémenceau نفسه، النائب الجمهوري الكبير في صفوف المعارضة، كان يقول: «الهندوس عرق أدنى؟ الصينيون عرق أدنى؟ لا. ليس هناك حق للأمم المسماة عُليا على الأمم الدنيا. لا تحاولوا إلباس العنف باسم منافق، هو الحضارة». لكنه عندما صار رئيساً للمجلس، واصل سياسة الإستعمار في المغرب.

وفي روسيا كانت الأوساط القيادية المتولّدة من ثورة 1917، واعية أن الإتحاد السوفياتي هو القوة المسلمة الرابعة في العالم. وحتى لا تفقد محبّة المسلمين لم تُدِن شَميل، لكنها حكمت عليه حكماً دقيقاً ومنحازاً. فقد اعتبرت أن شَميل ناضل ضد القيصر وليس ضد روسيا. هكذا على هذا النحو يكتب التاريخ. فمن هو القيصر من غير روسيا؟

لكن للإنصاف، لم يكن السبب مرتبط بعدوانية الغازي فحسب. بل كان هناك أيضاً الميوعة أو السلبية، ضعف أو تواطؤ الخليفة العثماني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، هذا الخليفة الذي لم يُحسِن أو لم يستطع حماية كيانات هشَّة. لقد ثار القوميون الفتيان على ذلك، وقدم مصطفى كمال الذي أطاح بالخليفة سنة 1924، متطوعاً للقتال في طرابلس (ليبيا) ضد إيطاليا الغازية من 1911 إلى 1912، إلى أن عاد على عَجَل للدفاع عن بلده، تلبية لنداء إسطنبول المهدَّدة من الخارج [5].

لم يكن على وفاق مع الجنرال أنور (الذي أرسله الباب العالي إلى هناك)، إذ اعتبره مفرطاً في صبره، ومنشغلاً بالإستقبالات الباهية لزعماء القبائل تحت خيمته، في نقاشات مملّة لامتناهية، بدلاً من تعبئتهم للقتال بشكل ملموس. وربما كان يمكنه التفاهم مع عمر المختار القائد المقدام للمقاومة الليبية، لو كان قد التقاه.

عندما صار مصطفى كمال حاكم تركيا، نظّم بصبر أمةً قوية حديثة ومحترمة؛ وناضل في سبيل تركيا مستقلة، وكافح ضد الظلامية وهي من بقايا الخلافة. كما كافح ضد صورة المرأة التركية على البطاقة البريدية، ليمحو صورة آزياد الغالية على پيار لوتي Pierre Loti (الكاتب الفرنسي الشغوف بالشرق)، ونظرة الغرب الرومانسية إلى الجواري المتكئات على الآرائك؛ ويمكن البحث في إلغاء الطربوش والتدابير العلمانية الأخرى.

فقد ظل الشعب التركي في أعماقه مسلماً كما كان دائماً، لكنه هذه المرة في أمة سيدة متفتحة على الحداثة، وأصوات المؤذّن الحارة التي تدعو المؤمن إلى الصلاة في إسطنبول، تعطي للعابر رعشةً لا يشعر بها في أي مكان آخر.

عند وفاة مصفى كمال أتاتورك سنة 1938، كرّمه الإمام عبد الحميد بن باديس، فكتب صفحات مثيرة ذات حسّ سياسي حاد، وهذه بعض من مقتطفاته: « فلم يكن مصطفى محي نهضة تركيا وحدها. بل محي نهضة الشرق الإسلامي كله؛ وبهذا غيّر مجرى التاريخ ووضع للشرق الإسلامي أساس تكون جديد؛ فكان بحقّ واحداً كما قلنا من أعظم عباقرة الشرق

العظام، الذين أثّروا في دين البشرية ودنياها من أقدم عصور التاريخ ».

« أما خليفة المسلمين، فيجلس في قصره تحت سلطة الإنكليز المحتلين لعاصمته، ساكتاً ساكنا مستغفرا الله، بل متحركا في يدهم تحرك الآلة في اليد، لقتل حركة المجاهدين في الأناضول، ناطقا بإعلان الجهاد ضد مصطفى كمال ومن معه، الخارجين عن طاعة أمير المؤمنين ».

« نعم إن مصطفى أتاتورك نزع عن الأتراك الأحكام الشرعية، وليس مسؤولاً في ذلك وحده. وفي إمكانهم أن يسترجعوها متى شاءوا وكيفما يشاؤون، ولكنه أرجع لهم حريتهم واستقلالهم وسيادتهم وعظمتهم بين أمم الأرض. وذلك مالا يسهل استرجاعه لو ضاع، وهو وحده كان مبعثه ومصدره».

« إلى الأمة التركية الشقيقة، الكريمة الماجدة، التي لنا فيها أحفاد وأخوال، والتي تربطنا بها أواصر الدين والدم والتاريخ والجوار، والتي تذكر الجزائر أيامها بالجميل، وترى شخصها دائما ماثلا، فيما تركت لها من مساجد ومعاهد للدين الشريف والشرع الجليل، إلى تركيا العزيزة نرفع تعازي الجزائر كلها، مشاركين لها في مصابها، راجين لها الخَلفِ الصالح من بين أبنائها، ومزيد التقدم في حاضرها ومستقبلها ».

لقد كان كاتب هذه السطور هو ذاته الذي كتب مقالاً مطوّلاً، كان له وقع كبير: « لماذا أحيا » « أحيا لأجل الإسلام والجزائر »، ولذلك كانت شهادته حول مصطفى كمال حكماً قيّماً.

فكّرت إنكلترا وفرنسا جدّياً بعد خلع الخليفة بأن تُعيد لـــه سلطانه المظهري. حتى إن بعض الأوساط السياسية في باريس نادت بترميم الخلافة وتوطينها في جزيرة جربة في تونس.

* * *

كان عبد القادر وشميل قد ناضلا في سبيل استقلال بلديهما على التوالي. فهما حين قاوما المعتدي كانا يحاولان الحفـــاظ على هوية. يحاولان إنقاذ المكوِّنات الأساســـية للشخصـــية الوطنية. وبكلام آخر، الحيلولة ألا تصل هذه الشخصية بمرور الزمن إلى الإنصهار في قالب هو ليس لها. فكان لابدّ لهما من تعبئة الطاقات، اعتمادا على صيانة الأرض والعباد. فوجـــود شعب ما يعني أولاً: أن يعيش حرّاً على أرضه، وأن يمـــارس معتقداته بلا عائق.

فالجهاد الذي أعلناه كان وسيلة كفاح وليس غاية بذاتـــه. ولم يكن سهلاً أن يقوما بتعبئة القبائل المبعثرة، المرتابـــة مـــن بعضها بعض، والمنتظمة غالبـــاً في اتحـــادات متخاصـــمة أو متعادية، مستعدّةٍ لأقل سبب أو ذريعة لإشهار ســـلاحها في وجه قبائل أخرى، وبذلك تزرع مشاعر الحقد والثـــأر. وأن يحرّكاها كلها معاً في حركة مقاومة واحدة.

كان الجهاد يحدِّد لهما في آن العدو المشترك، ومـــا كانـــا يملكان من أسس مشتركة: الإيمان ولغة القرآن. هكذا صـــار الجهاد دواءً للخلافات والأحقاد. وتحوّل الوعي الجماعي إلى أزمة قومية متفائلة في الوحدة المُستعادة.

إن التعدّيات التي ارتكبها المعتدون عزّزت صحة قضيتهما، ودفعتهما إلى مواجهة التحدي. فالشعور بالظلم والاســـتفزاز

هو أسوأ أمرٍ يجب تحمّله. إن سنوات الكفاح الطويلة لعبد القادر وشميل، في مواجهة أمتين من أقوى أمم الأرض، ما كان يمكنها أن تدوم طويلاً لو لم تكن إرادة الشعوب المُعتدى عليها متجذّرة تجذراً كافياً.

وعلى امتداد كفاحهما، كانا متمسّكين بالمبادىء في تنظيم قواهما، كما في الإنضباط المفروض والأخلاق التي علّماها لرجالهم. ففي كل آنٍ وكل مكان، كان لابدّ من احترام القيم الأخلاقية بحزم، ولم يكن تحريم التبغ مثلاً، نابعاً من مَقْتٍ ديني لهذا المنتوج، بل من ضرورة حماية صحة الجنود ومالهم. على كل حال، لم يكونا الوحيدَيْن اللذين قاما بذلك في التاريخ.

إن ضرر التبغ كان معروفاً منذ أمدٍ بعيد. ولأسباب أخرى، كان البابا أوربان الثامن قد حظره سنة 1642. عندما أدخله كريستوف كولومبوس سنة 1493 من أميركا إلى أوروبا، جرى اعتباره « بمثابة إرثٍ من شعب همجيّ إلى الأمم المتحضرة ». وكان البابا قد حظره بوصفه سُمّاً « يُشتبه بأنه يُحدِث هلوسات، انحرافات سلوكية » كما « يفكّك الأسرة ويُزعزع الأواصر بين الرجال والنساء، إذ كان المَدخنُ منفصلاً عن صالون النساء ».

لقد رأينا أن عبد القادر وشميل كانا على امتداد كفاحهما، قائدين سياسيين بامتياز؛ فكانا يقدّران، فيما يتعدّى نهب الأرض والدين، ماذا كان يمثّل الإستعمار وخاصة عواقبه عبر الزمان. كانا يعلمان ماذا كان يمثّل فقدان الحرية، قادران على تأملات، تجريدات، استراتيجيات، خطب سياسية مناسبة للظروف وعلى دبلوماسية سرية. كان كلاهما مؤهلاً لكي

تتبعه جماهيره وموثوقاً لدى الخصوم. فالمفاوضات المتتالية التي كان عليهما أن يُجرياها، كانت تشهد على صفتهما كمحاورين لا يُشَقُّ لهما غبار، إلى أن أكرههما أمرُ السلاح على التوقف عن مواصلة صراعهما.

كانت مواقفهما متماثلة خلال الصراع وبعده، أي كانت موسومة بسمة الكرامة قبل كل شيء. عندما نطقا بكلمات ولائهما، إنما قاما بذلك لاحقاً، بعد استسلامهما عنوةً بالنسبة إلى أحدهما، وبالتفاوض بالنسبة إلى ثانيهما، ودون أن يطلب الولاء منهما. كان الموقف الفروسي لنابوليون الثالث بعد إحلال لويس فيليب بوعده، هو الذي قاد الأمير إلى الموالاة وبالفروسية نفسها. وكان موقف ألكسندر الثاني بعد حماس نيقولا الثاني اللاسياسي، هو الذي قاد شميل إلى الولاء، كعلامة من علامات الإمتنان.

كلاهما، لم يُقيما في بلد الغالب إلاّ إكراهاً وعُنوةً. فقد طالبا بلا انقطاع بأن يذهبا إلى أرض الإسلام، كارهَيْن أسخى العروض، مثل عروض نواب ملوك، أو قصر تريانون في حالة عبد القادر.

وكان عبد القادر وشميل قد تعلّما عدم الإعتماد إلا على نفسيهما. وذهبت بلا أصداء النداءات التي وجّهاها إلى إنكلترا. وكانت مُخيّبةً أكثر النداءات التي أطلقها كل منهما إلى الباب العالي. وشعرا كلاهما بخيبة أمل ومرارة عميقة.

وكان لكليهما تصوّر رفيع للإسلام التضامني والتحريري معاً. كان الخليفة قد تخلّى عن واجب حماية الشعوب المسلمة

المقهورة، وبذلك كان يتنكّر لإحدى المهام المُلقاة على وجوده بالذات، والمتعلقة بشخص الخليفة. لهذا لم تكن علاقة كل منهما الشخصية مع سلطان إسطنبول سوى علاقة شكلية بحتة، وكانا يحرصان أشد الحرص أمام الحكومات الغربية على عدم الإشعار بأي استياء.

كما كان الرجلان على ثقافة كبيرة. فعندما فقد عبد القادر مكتبته، بعد الإستيلاء على الزمالة، شعر بحزن شديد لأنه كان يعلم قيمتها، وأنها غير قابلة للتعويض. وعندما استعاد شميل مكتبته وزّع قطعاً ذهبية على المحتاجين في الشوارع.

وعندما اكتشفا العالم الغربي، لم يرفضاه جملة وتفصيلاً. فانكبَّ كلاهما على تقييم التقدم العلمي والتقني المتحقّق. إذ كانا كلاهما مقتنعين، بأن على الأمم المسلمة أن تستلهم تلك المُثل لبناء مجتمع قوي متوجِّه صوب المستقبل. وكانا يعلمان كلاهما أن الحضارة الإسلامية قد أسهمت في تفتّح المجتمع العالمي من خلال إسهام علمي كبير ومُعترف به، وأن الإعصار الشديد الذي ضرب العالم الإسلامي هو وحده الذي أحاله إلى النسيان.

إن شميل الذي لم يكن قد غادر مسقط رأسه، داغستان إلاّ إلى المنفى في روسيا، لم يتمكّن قبل وفاته، ومن خلال إقامته القصيرة لأقل من سنة في الشرق الأوسط، من تقدير الحالة التي كان العالم الإسلامي يعيشها. لكن عبد القادر كان لديه الوقت، أثناء إقامته في بروس ودمشق والقاهرة والأماكن المقدّسة، لإجراء مقارنة بين حالة هذه البلدان وأحوال أوروبا. كما كانت له عدة اتصالات في باريس ولندن؛ وكان قد

أعطى لنفسه الوقت اللازم للتفكير في العلاقات بين أوروبا والشرق المسلم. فكانت الأولى تملك التقدم التقني، القوة المادية؛ وكان للثاني قوة روحية يُحسد عليها، لو كان يُحسن استعمالها وتوظيفها، إلى جانب طاقات بشرية واقتصادية مهمة.

إن تأملات عبد القادر، التي بدأت خلال إقامته في آمبواز واستأنفها في دمشق، أوحت له كتاب (رسالة إلى الفرنسيين). فقد كتب يقول: « لو أراد المسلمون والمسيحيون أن يصغوا إليّ، لكنت أوقفتُ مشاحناتهم؛ ولكانوا صاروا إخواناً في الداخل والخارج ».

ربما كان نداءً طوباوياً؛ لكنه إنساني في كل حال، فهو نداء إلى الإخصاب المتبادل للفكر على ضفتَيْ البحر المتوسط، لما فيه الخير للعالم كله.

مات كلٌّ من عبد القادر وشميل عن عمر يناهز الخامسة والسبعين سنة؛ كما لو كان القَدَرُ، حين أمرّ بهذا القدر من الحياة، قد أراد الإشارة إلى تشابه حياتيهما وتناظر كفاحيهما. فهذا التماثل في المواقف والمسالك لن يتوانى عن أن ينعكس ولو بتمايزات بسيطة، على أخلافهما المتعاقبين.

ثمة إشارات ومواقف وأقوال تُشرِّف المثقفين الفرنسيين، الذين تميزوا غالبا عن حكامهم على مدى الإستعمار، لأن الحرية بالنسبة إليهم ليس لا حدود. وكذلك كان الحال بالنسبة إلى شميل، في أوروبا أكثر من روسيا.

فإضافة إلى تحيات كتّاب وشعراء، من رامبو Rimbaud الذي ذكر عبد القادر في قصيدة رائعة: «حفيد يوغورطا»،

إلى تولستوي Tolstoi الذي مجّد المقاومة القوقازيـــة، هنـــاك تحيات جنرالات وماريشالات متقاعـــدين، بعـــدما هـــدأت الأهواء: بعضهم حيًّا عظمة الرجل، وآخرون شجاعة الخصم، واعترفوا معاً بصحة كفاحيهما أمام الجمهور أو الخاصة. لقد حمل عبد القادر وشميل شعوبهما إلى مرقى التاريخ، حيث يبقى إسمهما محفوظا مثل أسماء أشـــخاص أســـطوريين، خـــرافيين وخالدين.

1- الصوفي والمحافظ، ص 41. الجمعيات المسلمة في الإتحاد السوفياتي، ألكسندر بينغسون، منشورات سوي، باريس.

2- لم يكن الفرنسيون حسب بعض المؤرخين موافقين على النهب.

3- رسالة إلى النقيب بوتلر - غرنسي 1861.

4- Elgin (جامس بروس، الكونت الثامن)، لم يكن سوى ابن السفير البريطاني في تركيا، الذي صمّم ثم نفّذ مخطط نهب الكنوز، التي كان قد اكتشفها في آثار أثينا، بدءاً من إفريز البارتنون (Parthénon).

5- أعلن الجبل الأسود في أكتوبر 1912 الحرب على تركيـــا، وتلتـــه صربيا وبلغاريا واليونان.

ملاحق

معاهدة التَّافْنَا

جرى الإتفاق بين الليوتنان الجنرال بيجو، قائد جيش الفرنسيين في منطقة وهران، والأمير عبد القادر على الشروط التالية:

– **شرط أول:** يعترف الأمير عبد القادر بسيادة فرنسا في الجزائر(1).

– **شرط ثاني:** تحتفظ فرنسا لنفسها في وطن بلاد (إقليم) وهران، مستغانم، مزغران وسائر أراضيهما؛ ووهران وأرزيو أيضا، بالحدود التي نذكرها: شرقا: المقطع (نهر) عند المرجه (البحيرة) التي يخرج منها الوادي وقبله من المرجه المذكورة. جنوباً بخط ممتدد من البحيرة المذكورة، فيمرّ على الشط الجاري إلى الوادي المالح، على مجرى نهر سيدي سعيد. ومن هذا النهر إلى البحر، بحيث يصير ضمن كل ما في هذه الدائرة، من الأراضي للفرنسيين.

وفي وطن (إقليم) الجزائر المدينة مع الساحل وأرض سهل متيجة، يحد ذلك شرقاً: حتى وادي الخضره وما فوقه. وجنوباً: رأس الجبل الأول إلى وادي الشفة، مع البليدة وسائر نواحيها. وغرباً: من نهر الشفة إلى وادي مزفران. ومن هناك، بخط مستقيم إلى حد البحر، ويتضمن في هذا الحد القليعة وكامل نواحيها، بحيث يتكون كل هذه الحدود كل ما في يد الفرنسيين.

– **شرط ثالث:** يحكم الأمير في وطن بلاد (إقليم) وهران والمدية، ونصيب من عمالة (إقليم) الجزائر التي ما دخلت في حدودها، وغربا الحدود المذكورة في الشرط الثاني، ولا يستطيع أن يحكم إلا في الحدود المذكورة أعلاه.

– **شرط رابع:** ليس للأمير حكم على المسلمين، الذين يرغبون في الإقامة بالأراضي والحدود التي هي بيد الفرنسيين؛ وهم مخيرين أن يعيشوا في بلاد (إقليم) حكم الأمير. للفرنسيين أن يسكنوا في مملكة الأمير، كما يمكن لهم من غير مانع يمنعهم أن يسكنوا في بلاد حدود (إقليم) الفرنسيين.

– **شرط خامس:** إن العرب الساكنة في بلاد (إقليم) الفرنسية، يتبعون دينهم بكل حرية، ويبنون الجوامع، ويشتكون (يقاضون) بموجب شريعة دينهم على يد قاضيهم، كبير الإسلام.

– **شرط سادس:** يعطي الأمير لجيش الفرنسيين: ثلاثين ألف كيلة من الحنطة، ومثلها من الشعير بمكيال وهران، وخمسة آلاف رأس بقر. يكون ذلك في وهران، كل ثلث، الأول من أيلول (1837). والثلث يكون بعد ثلاثة أشهر من التاريخ بمدة خمسة وعشرين يوم. والثلثين الآخرين: شهرين بعد شهرين، أي في كل شهرين ثلث يدفع بانتهاء كل شهرين قسطا.

– **شرط سابع:** يشتري الأمير من فرنسا البارود والكبريت والسلاح الذي يحتاج.

– **شرط الثامن:** أن الكولوغلي الذين يريدون أن يقيمـــوا في تلمسان أو في موضع آخر، لهم أن يتمتعوا بأملاكهم بكـــل الحرية، ويعاملوا معاملة الحَضَر. والذين يريدون منهم الإنتقال إلى بلاد (إقليم) الفرنسيين، يمكنهم من غير معارضة لأن يبيعوا أو يؤجروا أملاكهم.

– **شرط تاسع:** على فرنسا أن تسلم للأمير راشقون وتلمسان والمشور. ويلزم الأمير نفسه إن أراد، بنقل الأمتعة والبـــارود والسلاح، متاع عسكر الفرنسيـــين مـــن تلمســـان إلى وهران.

– **شرط عاشر:** تكون التجارة حرة بين العرب والفرنسيين، ويمكنهم أن يتنقلوا من حدود إلى حدود (أراضـــي الإقلـــيم) ويتاجروا.

– **شرط حادي عشر:** يكون الفرنسيون محترمين موقرين عند العرب، كما العرب عند الفرنسيين. ويتصـــرف الفرنســـيون بكل حرية وضمان في الأملاك التي اشتروها في بلاد (إقلـــيم) الأمير. ويلزم الأمير أن يدفع لهم الضرر كلما أفسد العـــرب هذه الأملاك.

– **شرط ثاني عشر:** يرد من الطرفين المـــذنبين، أي القتلـــة وقطاع الطرق الذين يحرقون الأملاك أو غيره.

– **شرط ثالث عشر:** يلزم الأمير نفسه أن لا يسلم شيء من مرافيء البلاد إلى جنس من الأجنـــاس (الدول الأجنبيـــة) إلا بإذن فرنسا.

- **شرط رابع عشر:** لا يكون التبـــادل أو التجـــارة إلا في المراسي (الموانيء) التي بيد الفرنسيين.

- **شرط خامس عشر:** يمكن لفرنسا أن تعين لـــدى الأمـــير وكيلا، وكذلك في البلاد التي في حكمه، لكي يكونوا واسطة بين رغبة الفرنسيين في أي نزاع متعلـــق بالتجـــارة أو غـــير ذلك،التي تكون بينهم وبين العرب. ويمكن للأمير أن يفعـــل كذلك في البلاد ومراسي الفرنسيين.

حُرِّر في التَّافْنا، 06 ربيع الأول 1254 هـــ، 30 ماي 1837 "

الأمير	بيجو
(خاتم الأمير تحت النَّص العربي)	(خاتم القيادة تحت النَّص الفرنسي).

1 - لم يعترف الأمير أبدا بسيادة فرنسا الـــمزعومة في الجزائر.

رسالة من الأمير عبد القادر
إلى السلطان عبد المجيـــد

المُطِيع بكل احتـــرام [1]، الـــذي لاذ بحمـــايتكم وطلـــب مساندتكم ورحمتكم، الذي يرغـــب في رضـــاكم ويأمـــل بلطفكم، خادم جلالتكم وخادمِ المقاتلين في سبيل الدين، عبد القادر بن محيي الدين، رضي اللّٰه ونبيّه وجلالتكم عن أعماله في هذه الدنيا وحتى يوم الحساب. آمين.

إلى سلطان المسلمين، حامي أمة محمـــد (عليـــه الصـــلاة والسلام)، أنتم أعظم الملوك، صاحب الأساس الأمتن، الشمس التي تستمدّ النجوم منها ضوءها، المحيط الـــذي تجـــري فيـــه الموجات الغربية. أنتم السلطان الأكفأ والأجدر لقيادة ميادين القتال وتنظيم الجيوش. وأنتم الحكيم الذي تمكّن من حكـــم بلده بفعالية، وهذا ما يعترف به حتى خصومه. أنـــتم ســـند المؤمنين، دعامتهم المادية، ملاذهم وحاميهم الـــذي يكفـــل مجدهم؛ حديث الخُطب على «المنـــابر» والآداب الجميلـــة في الكتب المهمة.

ملك الحرب الذي يعتني بالجرحى بحماس؛ الفارس الكامل والعقل الموزون، الكريم والوفيّ للمسلمين؛ الشخص الجـــدير الذي منحه هذا العصر لقب إنسان وصفة إنسانية؛ ولو شـــاء اللّٰه لأمكنه أن ينسب أفضل صفات العالم إلى شخص واحد. أنتم إذاً الكعبة التي يمكن لكل فرد أن يزورها، وأنتم الإمـــام القائد، حتى لو حاربتم الأعداء بلا عتاد حربي يمكنكم إحراز النصر، فأنتم سليل أجداد السلاطين العثمانيـــين، السلطـــان

عبد المجيد، نصركم الله وأعانكم على مدى الأيام والشهور والسنين القادمة. السلام على سيّدنا. وبعد:

نسألكم أولاً أن تعذرونا على طريقة مخاطبتكم، وما تضمنت من أخطاء. فليس لأشخاص متواضعين أن يكتبوا لكم إلا كتابة شريفة. إننا مضطرون للكتابة لكم، وإن ما شجّعنا على تحرير هذه الرسالة هو كرمكم وعدلكم؛ نهنئكم بخلافة الإسلام، ونرجو الرحمة من الله، آملين من لطفه أن ينصركم دوماً وأن لا يصيبكم أي مكروه.

إن هذه الخلافة تحكم العالم والناس والأشجار والمدن. إننا نعزّيكم بوفاة والدكم [2]، أمير المؤمنين، باركه الله في مثواه ورحمه، وعوّض الله عليكم أيها السلطان وألهمكم الصبر. وإنا نخبر سيّدنا بوضعنا ونروي له الحوادث، مع علمنا أنه لا يفوته شي، وبالعكس لا يمكننا أن نقارن نفسنا بجلالته.

عندما خرج إنكشاريو الجزائر عن طاعة أبيكم، أمير المؤمنين، عاقبهم الله على سوء نواياهم وأعمالهم، فأرسل إليهم الكافر الظالم لمحاربتهم وقتلهم؛ وهو الذي شتّتهم وأبادهم ومحا آثارهم من البلد؛ ثم احتل المدن والقرى واستولى على المال والمؤن والكنوز؛ حتى إن الكافر لعنه الله وعذّبه، سعى إلى احتلال كل المنطقة الخاضعة لحكم الداي وتحويل سكانها عبيداً، مستعملاً إما الحيلة والمؤامرات وإما القوة.

وقد حال الكافر من جهة والبحر من جهة ثانية، دون اتصال السكان بسلطانهم، مع أنهم في حاجة لمن يهتمّ بهم ويدافع عن نسائهم وبلدهم. عندها طلب السكان العون من

الشريف سيّدنا عبد الرحمان، سلطان مراكش؛ فأرسل ابن عمه مع جيش كبير ومدّهم بالمؤن الكافية؛ لكن هذا الجيش لم يقاتل العدوّ و لم يساعد المسلمين، بل على العكس عاد إلى بلده. وعندها تفاقمت الفوضى وسط المسلمين، وتضاعفت الخلافات والمنازعات، واحتُلّت الطرقات وانتشر القمع والظلم في كل مكان.

وكان أبي وأجدادي قد علّموا الطلبة العلم ووزّعوا الزكاة على الفقراء وأبناء السبيل، واهتمّوا بكل ماهو مفيد وفعّال، وتركوا ما هو ليس بمفيد؛ وعندما علم أبي بما أصاب الدين من هزيمة، وقلّة حماس المسلمين لمحاربة الكافر، بذل جهدَه لتداركِ الوضع وإبعاد الخوف عن الناس، والحض على الحرب ضد الكافرين في كل حين بمساعدة المؤمنين الذين أطاعوه. وعندما أدرك الكافر مدى هذه المقاومة، ضاعف قواته لكي تحارب بقوّة المسلمين الذين كانوا في حصونهم.

وعليه، كان الأهالي في حاجة إلى من يقود معاركهم وينظّم شؤونهم ويجمعهم ويمدّهم بوسائل القتال ويهتمّ بهم، ويتولّى القيادة السياسية في البلد. فتوافق الأعيان والوجهاء على تكليف أبي بهذه المسؤولية؛ لكن أبي رفض رفضاً قاطعاً، على الرغم من شفقته على المسلمين، لأنه كان تقيّاً، كان الأتقى بين الأهالي كافةً.

طُلب منه تعيين أحد أبنائه، وحيث إني درستُ القرآن كثيراً، فقد عيّنني، فطعتُ وأنا أعلم أنها مهمة ثقيلة؛ فأنا لم أخرج على طاعته في حياتي؛ وانطلقت في جهد جدّي؛

نصحتُ المسلمين ودعوتهم إلى الجهاد والاتحاد؛ وبذلت جهدي لكي أحدّد هدفين لأعمالي، تارةً لمصالحة المسلمين وتارة للدفاع عنهم وسحق الكافرين المعتدين؛ وبفضل اللّه دافعنا عن الدين وحميناه من المآسي التي يمكن أن يسببها له الكافر، واستطعنا حفظه قوياً على أساس متين كان الكافر يحاول تقويضه.

فحدَّدنا أماكن تحركات الكافر، وبالتالي صار أمنه على المحكّ. وعندما أدرك الكافر قوّتنا وقوة عملنا الحسن التوجيه، استعمل المكر لإحباطنا وجعلنا نطلب منه السلام [3]؛ فرددنا عليه بأننا لا نوافقه إلاّ بشرطٍ موافق لمجد الإسلام؛ ولقد تقبّل الكافر هذه الشروط وهو يظن أن ذلك من شأنه شلّ إرادة المسلمين القتالية ودفعهم إلى ترك الجهاد، لكي يستكينوا ويخلدوا دوماً إلى رغبة الراحة.

بعد عام، انتهك العدو الصلح وسار لمحاربة المسلمين، مجتازاً الفرسخين ما بين وهران ومعسكر، لكن اللّه ألحق به هزيمة نكراء [4]، مرسلاً عليه عاصفة شديدة، تسبَّبت لاحقاً بوفيات؛ عندئذ طارده المسلمون حتى البحر الذي رمى الكافرون أنفسهم فيه، ولم ينجُ سوى عُشر هذا الجيش، ولم يستطيعوا أن يُنقذوا سوى عدد ضئيل من السلاح.

وبعد مرور ستة أشهر على هذه الحوادث، جمع الفرنسيون كل جنودهم وجدّدوا سلاحهم وساروا إلى معسكر ووصلوا بعد عدة معارك أوقعت عدداً كبيراً من الضحايا في المعسكرين؛ قضوا ليلتين في معسكر، ثم عادوا أدراجهم

مغلوبين؛ ثم زحفوا على تلمسان برضى الإنكشاريين الـذين كانوا في المدينة.

ولقد جرى احتلال كـل مـدن البلـد عنـدما شـجّع الإنكشاريون الكافر. ولقد فرّت جحافل الكافر المجتمعة مـن المعركة، فطاردها المسلمون وأرغموها علـى الإنسـحاب؛ وظلت جثث المسلمين والكافرين في ساحة القتال مثل قطـع الحطب؛ ثم عاد الكافر إلى وهران تاركاً جزءاً من جنوده مع الإنكشاريين في تلمسان.

وفي وهران جرى حصـار المسـلمين للكـافرين الـذين يساعدهم إنكشاريو تلمسان، طيلة شهر ونصـف الشـهر؛ وعندما جاء من يريد إنقاذ النـاس المحاصـرين، عارضـهم المسلمون؛ فدام الحصار أيضاً على ساحل البحر، ولم ينقطـع المؤمنون عن القتال اليومي حتى تلقّى الكافر العونَ من بلـده؛ وعندها تمكّن من فكّ الحصار. وحين أدرك الكـافر مـدى إنهاكه وما لحق به من مآسٍ ناجمة عن المعارك مع المسـلمين، طلب الصلح [5] ودفع مبلغاً من المال للمجاهدين.

ولقد قبلنا هذا الصلح بهدف إراحتنـا وإعـداد السـلاح والخيل؛ لأن اللّه شاء أن يستفيد المسلمون من هذا الصـلح، وأن يخرج الدين منه بنصر. لقد تفاهم جميع المسلمين، مـن حدود المغرب حتى حدود تونس بلا إكراه، فلم نجد إلاّ مـا يسرُّنا ويلهمنا الثقة لدرجة أنه أصبح باستطاعة امرأة أن تسير وحدها دون خوفٍ من أحد، سوى اللّه!

بعدما تمكّن الكافر من أخذ قسنطينة من أحمد باي، لم يجد أية مقاومة في المنطقة؛ واندلع قتال بيننا وبين الكـافر حـول

قسنطينة؛ كان يرغب في إبقائها تحت سيطرته، متذرِّعاً بأنه استولى عليها من آخر غيرنا، وأن رجاله قُتلوا وأنه أنفق ماله؛ فكان ردّنا عليه بأن المسلمين يشكّلون كلاً لا يتجزأ، وأنهم يشعرون بالوحدة فيما بينهم؛ فطلبنا منه أن يترك لنا أمر المسلمين في قسنطينة، لكن الكافر أبى؛ فانقطع السلم وتجدّدت الحرب.

ومنذ عامين والحرب سجال بيننا. وفي هذه الأيام سار الكافر إلى المدية، فوصل بصعوبة بعد ستة وعشرين يوماً، بدلاً من ست ساعات؛ وكانت الأرض مغطّاةً بالقتلى من المعسكرين؛ ولم يتمكن الرجال من دفن الجثث؛ كانت الأرض قد غَدَتْ نتنة متعفّنة؛ وكان لهذا الوضع مثال فريد مثير، تعلّمنا منه الكثير؛ فكل مدينة زحف الكافر عليها، عرفت الأمر نفسه وحتى أكثر.

لدى عدوّنا مئة ألف جندي مع عتاد كامل من المدافع، من الصواعق والرعود التي توقع الخوف في قلوب الشجعان؛ ولو زحف العدو علينا بهذه القوة فلن نعود قادرين على القتال، لن نعود قادرين على دفعه، فنحن لا نملك بارودا ولا سلاحاً لكي نلحق به هزيمة ما. وعندما وزّع جحافله على المدن والحصون، قام المسلمون من جانبهم بمحاصرته ومنعوه من السير؛ لا أمانَ للكافرين في الجزائر، لأن المجاهدين ألحقوا الموت والأذى بنسائهم ومالهم، برجالهم وأطفالهم.

وكلما ترك الكافر جحافله في المدن، سعى المسلمون من جانبهم إلى الإعداد للمصائب، لحصار هذه المدن ومحاربتها؛ عندها تظلُّ جحافلهم محاصرة بين الجدران مثل نساء حبيسات داخل البيت؛ وهو لم يستطع كسب المعارك إلاّ بفضل عدد جنوده الكبير وتجهيزه العسكري، وليس بسبب شجاعة جحافله. وكان المسلمون خلال المعارك مع الكافرين يمثلون ثلث وأحياناً ربع عدده دون حساب النجدة التي كانت تأتيه، ومع ذلك لم يُظهر المسلمون أبداً، لا ضعفاً ولا تعباً ولا خوفاً ولا ندماً، مع أن العالم كله يعلم أننا لا نملك سلاحاً ولا مالاً. فكم اندحر العدوّ مغلوباً، على الرغم من نفاد تموينـاتنا.

بات سكان المحافظة (الولاية) ضعفاء منذ أن حكمهم دايات الجزائر باستبداد وقمع، ومنذ أن شنَّ الكافر هذه الحرب باتوا في عُسر من تجارهم، فصاروا فقراء ومتسوّلين؛ لقد أنفقوا كل مالهم دفاعاً عن الدين؛ وقضى رجالهم في الجهاد. لكن عندما يفقد الكافر محلّة (بلدة صغيرة)، كان يمكنه تعويضها دون صعوبة ما دام قوياً؛ وإذا أُبيد عسكره، يمكنه الحصول على عسكر آخر؛ وإذا احتاج إلى عتاده، مدَّه به سلطانه؛ فهو لا يهتم في الجزائر بغير تدبير المؤامرات على المسلمين.

أما نحن، فإخواننا المسلمون تخلّوا عنا، وهم أسرى في أيدي الكفرة؛ إنهم غير عادلين في حقنا؛ حتى الحكام القريبين منا، قد تركونا ومنعونا من شراء السلاح لمواجهة هجمات العدو؛ حتى إنهم منعونا من الذهاب إليهم؛ وطلبنا منهم أن يساعدونا بأن يرسلوا لنا رجالاً، فرفضوا أن يعطونا ولو مالاً، فكان من

المستحيل إذاً أن يقدّموا لنا عوناً، كما لو كان المسلمون غير متّحدين مثل أعضاء جسم واحد.

إن مسلمي هذا البلد يلوذون بجلالتكم ولا يجدون أحداً يستطيعون أن يطلبوا منه أن يهبّ لعونهم ومساعدتهم سوى جلالتكم،رمز قوتهم. فهم ينشدون مساعدتكم من أعماقهم، إذ أن قلوبهم مشبعة بالوفاء لشخصكم، وهم يرفعون لكم أماني العرفان والطاعة. هل لدى سلطاننا مال؟ أجل؛ هل لدى سلطاننا جيوش لا تحصى؟ أجل؛ وعليه ليس هناك أي سبب حتى لا يهبّ لمساعدتنا. وإني لو لم أكن خائفاً على مصير المسلمين أمام هجمات الكافرين، لكنت قد حضرت شخصياً أمام جلالتكم لأروي لكم كل الأحداث التي تجري في هذا البلد.

لقد سُدَّت جميع الأبواب في وجه هؤلاء المسلمين، وليست لهم أية علاقة بالآخرين، والحال لا أمل لهم إلاّ باللّه وبكم. هؤلاء المسلمون أعلنوا الولاء لكم، ومن المحال أن ترفضوا طلباتهم. إن أيدينا ممدودة، طالبة عونكم ونجدتكم، لأن كرمكم لن يسمح بأن نعود صِفرَ اليدين.

أنتم رمز الإحسان والعطاء، أنتم المحيط الذي يهبّ لمساعدة المحتاجين. وأنا فرد من أسرتكم، وسوف يسألكم اللّه عما فعلتم لأجلنا! ساعدونا على الخلاص من الحوادث التي كدّرتنا. وبما أني لا أستطيع المثول بين يدي جلالتكم، فسوف أبعث هذه الرسالة ولا نعلم إن كانت ستصلكم؟ كم أرسلنا إلى جلالتكم من رسائل دون أن نتلقّى جوابها؛ عسى ألا

يكون ثمة أمر خطير حال دون الكتابة لنا، وألا يكون جلالتكم غاضباً منا. إننا ننوي إرسال هدية إلى سيدنا، ولسوف أرسل ممثلاً ليقبّل يدكم الكريمة، فهذا ما لا أستطيعه شخصياً بسبب المعارك المتتالية. اللهمَّ اشهد على قصدنا ورغباتنا، والسلام على النبي وآله وصحبه.

مستغانم 25 شوال 1251 (10 / 12 / 1841)

(خاتم عبد القادر على الرسالة)

1- ب. ا. إيرادا، حريصية 820، إضبارة رقم 02، رسالة بالعربية من عبد القادر إلى السلطان عبد المجيد.

2- السلطان محمود الثاني الذي ساد من 1808 إلى 1839.

3- معاهدة دو ميشال الموقعة يوم 1834/02/26.

4- هزيمة الجيش الفرنسي في معركة (المقطع) يوم 1835/06/12.

5- معاهدة التافنا المبرمة في 1837/05/30.

إتفاقية طنجـة - 10 /09/ 1844

صاحب الجلالة إمبراطور الفرنسيين، من جهة، وصـــاحب الجلالة إمبراطور المغرب Maroc، ملك فاس وسوس من جهة أخرى، إذ يرغبان في تسوية وإنهاء النزاعات الطارئة بين فرنسا والمغرب، وإعادة علاقات التفاهم بموجب المعاهدات السابقة، العلاقات التي عُلّقت لوقتٍ ما بين الإمبراطوريتين، سمّيا وعيّنا وتفويضهما بكل الصلاحيات:

عن جلالة إمبراطـــور الفرنسيين، السيد أنطـــوان مـــاري دانيال دور دِونيون Antoine Marie Daniel Dore de Nion، ضـــابط فرقـــة الشرف، فـــارس في الخيالـــة الملكيـــة - إيزابيل الكاثـــوليكية، فـــارس من الـــمرتبـــة الأولى في فـــرسان لويـــس دو هـــاس Louis de Hesse من الدوقيـــة الكبرى، قنصلـــه العـــام والقائـــم بأعمـــال لـــدى جلالـــة إمبراطـــور المغـــرب، والسيد لويس شـــارل إيـــلي دوكـــاز Charles Louis Elie Decazes، كـــونت دكـــاز دوق غلوكسبرغ، فارس الخيالة في جوقة الشرف، قائد الخيالة الملكية في دانبروغ، والخيالة الملكية لشارل الثاني الإسباني، حاجب صاحب الجلالة الدانماركية، القائم بأعمال جلالة إمبراطور الفرنسيين لدى جلالة إمبراطور المغرب Maroc؛

وعن جلالة إمبراطور المغرب، ملك فاس، وكيل البلاط رفع اللّه شأنه، سيد بوسلام بن علي؛ اللذين قرّرا ما يلي:

المادة الأولى: سيجري تسريح القوات المغربية المجتمعة بشكل استثنائي عند حدود الإمبراطوريتين أو في جوار الحدود المذكورة.

يتعهّد جلالة إمبراطور المغرب من الآن فصاعداً بمنع كل تجمع من هذا النوع. لكنّ سيبقى فقط تحت إمرة قائد **وُجدة** جهاز لن تتعدّى قوته عادة الألفي رجل. غير أن هذا العدد يمكن رفعه إذا استدعت ذلك ظروف استثنائية، ومعترف بها من الحكومتين بأنها كذلك، لما فيه المصلحة المشتركة.

المادة الثانية: ستنزل عقوبة شديدة بالزعماء المغاربة الذين قادوا أو سهّلوا الأعمال العدوانية المرتكبة في وقت السلم، على أرض الجزائر ضد جيوش جلالة إمبراطور الفرنسيين.

ستُطلع الحكومة المغربية الحكومة الفرنسية على الإجراءات، التي ستتّخذها لتنفيذ هذا البند.

المادة الثالثة: يتعهد جلالة إمبراطور المغرب مجدداً وبالشكل القاطع والمطلق، بأن لا يعطي دعماً، وأن لا يسمح بأن يُعطى في ولاياته عونا ولا إعانة بالمال والذخائر، أو أية أغراض حربية لأي فرد متمرّد أو لأي عدو لفرنسا.

المادة الرابعة: يعتبر الحاج عبد القادر خارجا عن القانون على امتداد إمبراطورية المغرب وكذلك في الجزائر. وبالتالي سوف يُطارد بيد مسلحة من قبل الفرنسيين في الأراضي الجزائرية، ومن قبل المغاربة في أراضيهم، إلى أن يُطرد منها أو يقع في قبضة هذه الأمة أو تلك.

في حال وقوع عبد القادر في قبضة القوات الفرنسية، تتعهد حكومة جلالة إمبراطور الفرنسيين بأن تعامله باحترام وسخاء. وفي حال وقوع عبد القادر في قبضة القوات المغربية، يتعهّد جلالة إمبراطور المغرب بسجنه في إحدى مدن الساحل الغربي للإمبراطورية، إلى أن تتّخذ الحكومتان معاً التدابير اللازمة حتى لا يتمكن عبد القادر، في أية حالة، من حمل السلاح مجدّداً والإخلال ثانية باستقرار الجزائر والمغرب.

المادة الخامسة: تبقى الحدود المرسومة بين ممتلكات جلالة إمبراطور الفرنسيين وممتلكات جلالة إمبراطور المغرب ثابتة وقائمة، وفقاً لما اعترفت به الحكومة المغربية في عهد سيطرة الأتراك على الجزائر.

سيكون التنفيذ الكامل والمنتظم لهذا البند، موضوع اتفاق خاص يجري التفاوض عليه وإبرامه ميدانياً بين الممثلين ذوي الصلاحيات الإستثنائية، المعيّنين لهذه الغاية من قبل جلالة ملك الفرنسيين، وبين مندوب عن الحكومة المغربية.

يتعهّد جلالة إمبراطور المغرب، لهذه الغاية، بأن يتّخذ فوراً التدابير المناسبة، وإعلام الحكومة الفرنسية بها.

المادة السادسة: فور التوقيع على الإتفاقية الراهنة، ستتوقّف المنازعات بين الطرفين.

ومنذ تنفيذ البنود الواردة في المواد 1، 2، 4 و5 بما يرضي الحكومة الفرنسية، ستُخلي القوات الفرنسية جزيرة موغادور، وكذلك مدينة وُجدة، وعلى الفور سيُطلق سراح الأسرى من الجانبين، ويجري وضعهما بتصرف الأمتين على التوالي.

المادة السابعة: يتعهّد الجانبان المتعاقدان الرفيعان على الشروع، بكل تفاهم وفي أسرع ما يمكن، في عقد معاهدة جديدة، قائمة على المعاهدات السارية المفعول حالياً. وستكون غايتها تعزيز تلك الإتفاقيات واستكمالها، لما فيه مصلحة العلاقات السياسية والتجارية بين الإمبراطوريتين. وأثناء ذلك، ستكون المعاهدات القديمة موضعَ احترام وتقدير شديدين، بكل بنودها، وفي كل أمر وكل مناسبة، ستحظى فرنسا بمعاملة الأمة الأكثر حظوة.

المادة الثامنة: ستتم المصادقة على هذه الإتفاقية، وسيتم تبادل المصادقات في أجل شهرين أو قبل ذلك إن أمكن.

المقابلة بين عبد القادر وبيجو

ذهب الجنرال بيجو Bugeaud يوم 31 مـاي 1837 عنـد الساعة التاسعة صباحاً، تتبعه ست كتائب من مشاته وفرسانه، إلى المكان المتّفق عليه؛ ولم يكن عبد القادر قد وصل بعـد. مرّت خمس ساعات انتظار ولم يظهر أحد. أخيراً في السـاعة الثانية تقريبا، بدأ يتوافد عدد من العرب، كان بعضهم ينقـل كلاماً مموَّهاً، وبعضهم الآخر يحمل أعذاراً شتى.

كان الأمير مريضاً ولم يخرج من معسـكره إلا في وقـت متأخر جداً؛ ربما يطلب تأجيل المقابلة إلى الغـد؛ لم يكـن بعيداً، ثم كان قريباً جداً. وأخيراً طلب آخـر رسـول مـن الجنرال بيجو أن يتقدم قليلاً، قائلا له إنه لن يتأخر عن مقابلة عبد القادر. كانت الساعة الخامسة، كان الجنرال يرغـب في إعادة قواته إلى المعسكر، وفي إنهاء الأمر في اليوم ذاته، ثم قرّر التقدم إلى الأمام مصحوباً بهيئة أركانه.

بعد أن سار مسافة ساعة دون لقاء الأمير، لمح الجنرال بيجو أخيراً الجيش العربي، مصطفّاً في طابور منتظم جداً فوق تلال مبعثرة. عندها جاءه البوحميدي ليقول له إن عبد القادر علـى مقربةٍ من هنا، وأشار له بعد ربع ساعة بسكين كانت في يده، بأن موكب عبد القادر الذي كان يتقدّم من جهة الجحفـل الصغير الذي كان الجنرال على رأسه.

كان المشهد مهيباً: إذ كان يمكن أن يُحصى هناك ما بـين مائة وخمسين ومائتي قائد، بمظهر متميّز، تزيده بهاءً ملابسهم الجليلة. كانوا كلهم راكبين على جياد رائعة، كانوا يجعلونهـا تضبح، ويتركونها ترمح بكثير من الرشاقة واللياقة.

كان عبد القادر نفسه متقدّماً عليهم ببضع خطوات، ممتطياً صهوة جواد أسود جميل، كان يقوده بمهارة عجيبة. تارةً يجعله يرفع قوائمه الأربع معاً، وتارة يمشّيه على قائمتيه الخلفيـــتين. كان عدد من العرب يُمسكون بأطراف برنسه وذيوله.

أطلق الجنرال بيجو فورا العنان لفرسه، وحين وصـــل إلى الأمير ومدَّ له يده، شدّ عليها الأمير مـــرتين. ثم نـــزلا عـــن جواديهما وجلسا على العشب، وعندئذ بدأت المحادثة التالية:

– قال الجنرال بيجو: أتدري أن هناك قلة من الجنـــرالات تجرأوا على إبرام المعاهدة التي عقدها معـــك. لم أخـــشَ أن أكبِّرك وأضيف إلى قوّتك، لأني واثق أنك لن تستعمل الوجود الكبير الذي نعطيك إياه، إلا لتحسين حال الأمـــة العربيـــة وإبقائها في حالة سلم وحسن تفاهم مع فرنسا.

– أشكر لك عواطفك الطيبة تجاهي. إن شاء اللّه، ســـأجعل العرب سعداء، وإذا انقطع حبل السلام يوماً، فلن يكون ذلك خطأي.

– **بيجو**: إنني بهذا الشرط، جعلت نفسي كفيلا لك عند ملك فرنسا.

– **الأمير**: ليس لك خاطر في ذلك، فإن لنا دينا وأخلاقا عربية تلزمنا المحافظة على قولنا، وأنا لا أغير قولي.

– **بيجو**: فلهذا اعتمدت علـــى ذلك، وبحسبه أقدّم لك محبة خصوصيـــة.

– **الأمير**: قد قبلت محبتك، صداقتك، فليحترس الفرنســـيون من كلام المفسدين.

- **بيجو**: إن الفرنسيين لا ينقادون لكلام أحد، وليس لبعض الحوادث الخصوصية التي يفعلها البعض، تنزع السلام من بيننا. إنما ينزعه عدم إجراء شروط المعاهدة أو وقوع خصومة كبيرة. وإنما الذنوب التي يرتكبها البعض، فإننا نعلم بعضنا بها، ونقاصص عليها من يتجاسر على فعلها.

- **الأمير**: هذا حسن جدا، فليس عليك إلا أن تعلمني، وأنا أجري ما يقتضي.

- **بيجو**: إني أوصيك بالكولوغولي الذين يقون في تلمسان.

- **الأمير**: كن مطمئنا من جهتهم، فإنهم يعاملون معاملة الحضر. وعدتني بجعل عرب **الدوائر والزمالة** في بلاد هبره، فأظن أنها لا تكفيهم.

- **الأمير**: يوضعون في مركز لا يمكنهم من إقاع ضرر، لحفظ السلام.

- **بيجو**: هل أمرت برجوع علاقات التجارة في الجزائر والمدية؟

- **الأمير** : لا أفعل ذلك إلا بعد أن ترد لي تلمسان .

- **بيجو**: تعلم جيدا، بأني لا أقدر على ردها لك، إلا بعد تصديق الملك على المعاهدة.

- **الأمير**: فإذاً، ليس لك قوة على إجراء المعاهدة؟

- **بيجو**: نعم لي قوة على ذلك، ولكن يقتضي أن يصادق الملك على ما أجريه، حيث يكون ذلك كفالة له، فإذا صُدِّق

عليها مني فقط. ثم أتى جنرال آخر فإنه يقدر على إبطالها، وأما إذا صدق عليها من الملك، يصير ملتزما بالإجراء على موجبها.

- **الأمير**: إن لم تُرجع لي تلمسان كما وعدتني، فلا أرى احتياجا لإجراء الصلح، بل لا يكون ما جرى إلا من قبيل هدنة مؤقتة.

- **بيجو**: هذا صحيح؛ ولكن أنت تكسب بهذه الهدنة، حيث أني بمدتها لا أخرب المواسم.

- **الأمير**: ذلك لا يضرنا، حتى أعطيك الرخصة بأن تخرب كل ما تقدر عليه، ولا يمكنك أن تخرب إلا مقدارا زهيدا. ومع ذلك يبقى عند العرب حبوب وافرة.

- **بيجو**: أظن أن العرب لا يفكرون مثلك، لأنني أرى أنهم يرومون إلى الصلح، والبعض منهم أثنى علي لكوني حافظت على المواسم كما وعدت بذلك.

فابتسم الأمير، ثم سأل الجنرال: عن المدة التي يمكن رجوع الجواب فيها من فرنسا؟

- **بيجو**: يلزم ثلاثة أسابيع.

- **الأمير**: هذا طويل جداً. حيث أن الأمر كما ذكرت، فلا نجدد العلاقات التجارية، ولا نحدث شيئا من مقتضيات المواصلة إلا بعد وصول الجواب من فرنسا.

كان الوقت متأخرا؛ فقد تَوادعَ الرجلان عبد القادر وبيجو ورحلا؛ الأول حيَّته هتافات فرقته الكبيرة، التي تردّدت أصداؤها بجلال على مدى التلال، وردّدها الجيش بأسره.

رسائل الأمير عبد القادر
ومراسلات الممثلين الدبلوماسيين للقيصر
في سورية ولبنان، إبّان تدخل الأمير
لمصلحة مسيحيي دمشق سنة 1860

رسالة من الأمير إلى زعيم التيجانية

« الحمد للّه وحده وصلّى على سيدنا محمد وآله وصحبه، وبعد،

إلى السيد محمد الحبيب ابن العلامة السيد أحمد التيجاني،

لقد وصلني جوابك الذي لا إفاء بعده. وبعد أن عجزت عن الولوج داخل حصنكم، وعلمتُ أن ما دار بيننا إنما هو وشاية وتدخل الفتّانين بيننا. ولهذا فإني أرجو عفوكم عنّا، وهذه هدية متواضعة تصلكم مع ابنكم أحمد، عساها تجدِّد الروابط الأخوية بيننا.

من الفقير إلى مولاه الغاني، كثير الذنوب والأوزار، عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى بن المختار، عامله اللّه بلطفه في الدنيا ودار القرار.

ثلاث وعشرون من ذي القعدة

عام أربع وخمسين ومئتين وألف. والسلام ».

رسالة غير منشورة من الأمير عبد القادر إلى الأب پافـي، أسقف الجزائر

(الرسالة غير المنشورة المرفقة، المكتوبة بيد الأمير عبد القادر، وُجِّهت يوم 11/10 جويليه 1862 إلى الأب پافي – PAVY، حين كان أسقفا في الجزائر (1846 - 1866). وكانت مناسبة هذه المراسلة تدخل الأمير لمصلحة المسيحيين في دمشق خلال شهر جويليه 1860. ثمة سلسلة معقّدة من الظروف، نجد عرضاً مكثفاً لها في كتاب السيد بوعلام بسّايح [1]، أدَّت إلى انتفاضة شعبية لأهالي دمشق ضد مسيحيي المدينة.

وكان الأمير مع الجالية الجزائرية في دمشق، قد فصل بينهما، وأنقذ حوالى إثني عشر ألف مسيحي. عندها كتب الأب پافي، مثل الكثيرين في تلك المرحلة، رسالة إلى الأمير، للتهنئة على عمله الكريم والشجاع. فردَّ الأمير عليه برسالة غير منشورة، ننشرها هنا، وهي موجودة في أرشيف أسقفية الجزائر، حيث تُحفظ تحت رقم AAA121/5/11).

هنري تيسييه

إننا نشكر الأب هنري تيسييه Henri Tessier أسقف الجزائر، لتسليمنا هذه الرسالة، ونحيّي اهتمامه الشديد بتاريخ بـــلده الجزائر. سنلحظ في رسالة الأمير عبد القادرهذه بنحو خاص الكلمات التي استعملها، وهي: « بمقتضى الشريعة الـــمحمدية وحقوق الإنسانية » الأمر الذي يشكّل في أيامنا أحد الإهتمامات الأساسية للمجتمع الدولي.

وهذا ما يشهد، مرة أخرى، على إنسانية الأمير الكـــبرى، وعلى حصافته السياسية الخارقة.

* * *

---

1 —.بوعلام بسّايح: من الأمير عبد القادر إلى الإمام شميل. منشورات دحلب، الجزائر 1997، ص368.

نص رسالة الأمير عبد القادر
إلى الأب بافي، مطران الجزائر

« الحمد للّه وحده،

سعادة السيد جليل الشأن لويس أنطوان أوغستين پافي Louis Antoine Pavy مطران الجزائر. نسأل اللّه تعالى لسعادتكم النور الذي تتميّز الأشياء به وتُعرف المضار من المنافع بسببه.

أما بعد، فإنه وصلني مكتوبكم الأبهى وخطابكم الأشهى، والذي فعلناه من الخير مع المسيحيين هو شيء لازم علينا بمقتضى الشريعة المحمدية وحقوق الإنسانية، إذ الخلق كلهم عيال اللّه تعالى، وأحبّهم إليه تعالى أنفعهم لعياله. وجميع الشرائع التي جاء بها الأنبياء من آدم إلى محمّد، تدور على أصلين: تعظيم أمر اللّه تعالى، والشفقة على مخلوقاته.

وما عدا هذين الأصلين فروعٌ لا يضرُّ اختلاف الشرائع فيها. وشريعة محمد أشد الشرائع التزاماً ومحافظة على الرِّقة والرحمة، وكل ما يوجب الإئتلاف ويدفع الإختلاف. ولكن المنتمين إلى شريعة محمد ضيّعوها فضيَّعهم اللّه. والجزاء من جنس العمل. ونحن نشكركم على دعائكم لنا وإحسانكم إلينا، والسّلام.

منتصف المحرّم 1279 - 10 أو 11 جويليه 1862»

عبد القادر بن محيي الدين

مراسلات الممثلين الدبلوماسيين للقيصر في سورية ولبنان

يوجد في أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية عدّة وثائق ورسائل من سفراء روسيا وقناصلها في بيروت والقسطنطينية وباريس، تتحدّث عن الموقف المشرّف جداً والإنساني لابن الشعب الجزائري الأمير عبد القادر، خلال أحداث دمشق في جوان 1860.

إذ يتعلّق الأمر بمحاولات العنف ضدّ المسيحيين في دمشق، حيث دافع الأمير الشجاع عن الضحايا البريئة. إذ أنقذ الأمير وأصدقاؤه حياة إثني عشر ألف مسيحي. ولقد وجّه الكثير من الملوك والأمراء والقادة الدينيين، ومنهم البابا، تحاياهم إلى العمل الإنساني الذي قام به الأمير.

كتب السيد بيجر Beger القنصل العام لروسيا في بيروت، في تقرير إلى سفير روسيا في القسطنطينية السيد لوبانوف روستوفسكي، في جوان 1860: « هوجم مترل نائب قنصل روسيا ونُهب. أُنقذ السيد ماكييف على عجل وهو حالياً عند عبد القادر. كما لجأ إلى الأمير أيضاً السيد لانوس، مسيّر قنصلية فرنسا، ونائب قنصل اليونان ».

كتبَ أهالي دمشق المسيحيون يوم 1860/07/11 إلى بطريرك أنطاكية: « عند حلول الليل، وجدنا أنفسنا كلنا مجتمعين في دار الشهير عبد القادر الجزائري، الذي لا يمكن أن يكون حضوره في هذه الأماكن وفي ظرف كهذا، إلا لحكمة إلهية».

كتب قنصل روسيا العام ببيروت في تقريره إلى سفير روسيا في القسطنطينية: « بدأ الهجوم على نيابة - قنصلية روسيا، ولحسن الحظ كان السيد ماكييف عند قنصل فرنسا، وتوفّر له الوقت للذهاب إلى دار عبد القادر. لقد خُرِّبت قنصليات روسيا وفرنسا والنمسا وهولندا وأُميركا. ولقد احتمى نائب قنصل النمسا لدى قنصل إنكلترا، ويؤكد على إصابة نائب قنصل أميركا إصابة خطيرة.

تمكّن معظم المسيحيين من الإختباء في منازل عدد كبير من المسلمين المحترمين، وعند عبد القادر وفي قنصليتي إنكلترا وبروسيا اللتين لم تُهاجما».

كتب السيد لوبانوف روستوفسكي Lobanov Rostovsky، سفير روسيا في القسطنطينية إلى وزير شؤون خارجية روسيا، السيد غورشاكوف Gorchakov: «بدأت أعمال العنف ضد مسيحيي دمشق ما بين 27 جوان و09 جويلية؛ فقُتل كثير من الرجال واقتيدت النساء إلى الحريم، وأُحرقت القنصليات ما عدا قنصلية إنكلترا؛ وكان قنصلا فرنسا واليونان ونائب قنصل روسيا قد احتموا عند عبد القادر».

وكتب أن «القناصل المحتمين لدى عبد القادر كانوا في مأمن من كل خطر؛ فما من أحد يتجاسر على تهديدهم وهم في حماية هذا الزعيم الشهير، المُحاط في سورية باحترام قريب من التبجيل والعبادة».

كتب يوم 1860/07/12 سفير روسيا في القسطنطينية إلى وزير الشؤون الخارجية: «كان يُفترض بالحركة الإسلامية أن

تندلع في هذه المدينة مرتين قبل 27 جوان و09 جويلية. وفي المرتين، كان عبد القادر قد تمكّن من منعها ببيانه وفعاليته. استطاع الأمير خلال المجزرة إنقاذ عدد كبير من المسيحيين، وعموماً كان سلوكه في هذه الظروف الخطيرة فوق كل مديح».

وكتب سفير روسيا في القسطنطينية إلى وزير الشؤون الخارجية: «إثر المعلومات الأخيرة التي نقلها فؤاد باشا من دمشق إلى الباب، قام السلطان بتوجيه خط همايوني (مرسوم) إلى هذا الوزير، تأييداً لأعمال العدل والشدة التي قام بها لإحلال السلم في سورية. كما منح السلطان وسامه، المجيدية من الدرجة الأولى، تقديراً للأمير على سلوكه الحميد خلال مذابح دمشق، إذ كان في الوقت نفسه راغباً في الإعتراف بفضل عبد القادر وإحسانه الكبير».

س. فرشينين

رسالة سعادته إلى سفير روسيا في الجزائر.

رسالة كُتبت من دمشق
إلى بطريرك أنطاكية

ما خشيناه كثيراً قد وقع.

في الإثنين الماضي 27 من هذا الشهر، اليوم المشـؤوم، إن شاء الله لا يعود موجوداً أبداً، ولا يحسب البتّة بين الأيام. قام التوفكجي - باشا / قائد الشرطة، بأمر من الباشا بجولـة في السوق، وأوقف عدة أولاد مسلمين كانوا يتلـهّون برسـم صلبان على الرصيف، وكان المارة حتى المسـيحيين منـهم، مرغمين على دوسها بالأقدام.

هذا العمل الذي قام به التوفكجي - باشا لم يكن بدافع من أي شكوى تقدم بها المسيحيون، مما قد أثار حفيظة المسلمين الذين كانوا شرسين بلا هذا السبب، فانتزعوا بغضب الأولاد المعتقلين من يدي التوفكجي - باشا، وفجأة وُجدت المدينـة كلها في حالة تمرّد، كما لو كانت تنتظر مجرّد إشارة متّفـق عليها. ومثل طوفان هادر، انقضَّ المسلمون على المسيحيين من كل الجهات، وراحوا ينهبون ويحرقون كل شيء.

البيت الأول الذي تعرَّض للأهوال هذه، كان بيت السـيد ماكييف قنصل روسيا، وبعد ساعة اشتعلت كـل الأحيـاء المسيحية. ليس عندنا الحواس ولا الوقت ولا الأيدي لوصفٍ مفصَّل للمشاهد المرعبة في ذلك اليوم الفظيع.

كان الهجوم في نهاية المطاف على البطريركية: كان مـن المفترض أن تحرس القوات الإمبراطورية الباب الكبير، فتـدفّق الثائرون على الباب المسمّى باب عرائس النيـل- Nenuphar

رجونا الجنود أن يذهبوا للدفاع عن هذا الممر، لكـــن بعـــد مناشدات طويلة، وبشقٍّ النفس، قرّر رئيسهم أن يذهب بنفسه ليرى ما يجري هناك.

وأثناء ذلك، كان الباب قد مُزِّق إرباً، وكان خمسة عشـــر مسلماً قد توغّلوا في الداخل، ناهبين ومدمِّرين كل ما كـــانوا يجدونه في طريقهم. ولم يحاول الجنود مع قائدهم ولو حـــتى بالكلام، أو بالعمل أن يواجهوا هذه الأعمال الشريرة، فبعدما رأوا خلال وقت ما، ما كان يجري تحت أنظارهم، وكأنهم لم يكونوا هناك سوى مجرد مشاهدين، انتهى الأمر بهم هم أيضاً، إلى أن يأخذوا حصتهم من النهب.

أما نحن، الهاربين أمام وحشية الثائرين، فلم نعد نفكّر بغير الحفاظ على حياتنا، إذ كنا نفرُّ تارة من هنا، وتارة من هناك، دون أن نعرف نحن أنفسنا إلى أين كانت خطانا تقودُنا. وعند حلول الليل، وجدنا أنفسنا مجتمعين كلنا في منزل الشهير عبد القادر الجزائري، الذي كان وجوده في هذه الأماكن، في وقت كهذا، لا يمكن أن يكون إلا لحكمة إلهية.

من هناك نكتب لكم. طيلة هذه الليلة الطويلـــة، لم يقـــم الثائرون بغير التخريب والحرق. في الغـــد، لم يعـــد لأذاهـــم حدود: مَن استطاع من المسيحيين أن يحتمي عند عبد القادر أو في القلعة، هؤلاء وحدهم الذين مازالوا أحياء؛ وكل البـــاقين قتلوا أو أُحرقوا أحياء. حتى الذين ظلّوا على قيد الحيـــاة، لا يعرفون ماذا سيكون مصيرهم غداً، وفوق ذلك هم من دون سقف، بلا ثياب، بغير أغطية، وبكلمة واحدة محرومون مـــن كـــل شـــيء.

ما من بيتٍ مسيحي نجا، ما من كنيسة نجت من الحرائـــق: الدير الرائع الذي شيّده اللاتينيون حديثاً، أكلته النيران أيضاً. ويتواصل الحريق دوماً؛ وإن ما نخشاه أكثر، بعد الكثير مـــن المآسي، هو أن يكرّر مسلمو المدن والقرى المجـــاورة، مثـــالَ دمشق أيضاً. لو حصل ذلك، لصار مـــن المســـتحيل علـــى المسيحيين أن يعيشوا من الآن فصاعداً، على أرض ســـورية. ليرحمنا اللّه! ».

بيروت، 06/29 - 1860/7/11

رقم 80

أميري

[حوادث] دمشق هي الأخرى. في 06/27 - 07/09، قام عدد من الشبان المسلمين بشتم الدين المسيحي، فأوقفهم [قائد الشرطة] فأرسلهم، وأقدامهم مكبّلة بالحديد، لكنس شوارع دمشق. أثار هذا العقاب المنحطّ غضب المسلمين الذين تدفقوا إلى الحي المسيحي، واجتاحوا البيوت، وراحوا ينهبون ويقتلون. بعد بضع ساعات، كان الحي المسيحي مشتعلاً.

بيت نائب قنصل روسيا هُوجم ونُهب. هرب السيد ماكييف على عجل، وهو موجود حالَياً عند عبد القادر. السيد لانوس مسير قنصلية فرنسا، ونائب قنصل اليونان احتميا عند الأمير أيضاً. يُقال إن القوات التركية لم تقم بشيء لمنع هذه الكوارث، حتى أنها شاركت في النهب.

كما يُضاف أن قنصلية روسيا وبطريركية [الروم] الأورثوذكس أُحرقتا بعد النهب، وأن المصير نفسه ينتظر القنصليات الأخرى، التي نجت حتى الآن، لأنها موجودة كلها في الأحياء المسلمة. إن كل هذه الأخبار وردتنا من خلال بعض الرسائل الخاصة ورسائل السادة ماكييف، لانوس وسپارتلاي، الذين أرسلوا رسولاً سريعاً إلى بيروت.

بناء على الطلب الذي أرسلناه إلى خورشيد باشا، سألناه فيه إذا لم يكن لديه أخبار من دمشق، فردَّ علينا بأن [والي]

دمشق أخبره عن الإنتفاضة، وطلب قوات لقمعها. غداً صباحاً سيرسل خورشيد باشا ألف وخمسمائة رجل إلى دمشق.

رست في مرفأ بيروت بارجتان وسفينة تركية؛ على متنها ثلاثة آلاف عسكري. مدينة بيروت هادئة، لكن النفوس مستنفرة جداً. سيُعلن غداً أو بعد غد الباشا السلام بين الدروز والموارنة.

لن أتوانى عن إرسال كل هذه الأخبار، بواسطة الباخرة الفرنسية L'Eclaireur، التي رآها القنصل الفرنسي مناسبة للإرسال إلي.

واقبلوا أعمق تقديري واحترامي.

أميري

من الخادم المطيع، المطيع جداً لمعاليكم.

بيروت في 30/06 - 1860/07/12

رقم 81

أميري،

أخبار دمشق التي تشرّفت بنقلها إلى معاليكم عبر تقريري البارحة، أكّدتها رسائل مجلس إنكلترا ونائب قنصل بروسيا في دمشق.

حسب هذه الرسائل، بدأ الهجوم على نيابة القنصلية الروسية، ولحسن الحظ كان السيد ماكييف عند قنصل فرنسا، وأُتيح له الوقت الكافي للهرب إلى منزل عبد القادر. لقد خُرِّبت قنصليات روسيا وفرنسا والنمسا وهولندا وأميركا. ويؤكد نائب قنصل إنكلترا أن نائب قنصل أميركا مُصاب بجراح بليغة. صار الحيُّ المسيحي برمّته عُرضة للنيران مع معظم الكنائس والأديرة.

لم يكن في بداية الإنتفاضة هناك سوى خمسمئة شخص يهاجمون البيوت المسيحية وينهبونها، وكان من السهل على الذي كان لديه قرابة خمسة آلاف رجل عسكري، ثلاثة آلاف نظامي وألفين غير نظامي، أن يضع حداً للفوضى. لكن لم يُتَّخذ أي تدبير فعّال، وفي غضون الليل ارتفع عدد المهاجمين إلى ألف ومئتين.

في الغد، دخل الدروز والبدو إلى الحي، وهذه ذروة الحزن العام. مع ذلك لم تقع مجزرة كبيرة. فقد كان لمعظم المسيحيين

الوقت الكافي للإحتماء في منازل عدة مسلمين جديرين بالإحترام، عند عبد القادر، في قنصليتي إنكلترا وبروسيا اللتين لم تُهاجما، وفي قلعة المدينة.

أما المسلمون الذين لم يشاركوا في النهب، فقد سدّوا الأحياء المسلمة للحيلولة دون امتداد الحريق والنهب إلى المدينة.

يضيف قنصل إنكلترا أن الإتصالات في دمشق كانت منقطعة تماماً، وأنه تمكّن بصعوبة كبيرة من جمع بعض الأقوال حول هذه الحوادث.

اليوم، ستنطلق قوات إلى دمشق؛ لكن بعدما حدث، لا نثق بالسلطة إلا ثقة ضعيفة جداً، وليس هناك سوى النجدات الفعّالة والسريعة التي يمكنها أن تساعد مسيحيي سورية؛ كذلك سيكون صعباً أن نتمكّن من توقّع أو توقّي كوارث في مدن الداخل، مثل [حمص] وحماة وحلب.

يبقى عليَّ أن أضيف، بما أن الحوادث الأخيرة أثارت الهلع في بيروت وفي مدن الساحل، فإن معاليكم سترون ربما إرسال بارجة حربية روسية إلى بيروت.

يشرّفني أن أرفع أعمق التقدير.

أميري

من الخادم المطيع، المطيع جداً لمعاليكم.

في 07/01 القسطنطينية 1860

بيوركديري في 17/055 جويلية1860

رقم 96 ملحق

أميري،

الخبر الذي نقلته بالتلغراف قبل البارحة إلى معاليكم، حول انفجار التعصّب الإسلامي في دمشق، والذي كنت شخصياً قد تلقيته تلغرافياً من سميرن Smyrne، جرى تأكيده من خلال الآراء التي نقلها التلغراف إلى مختلف البعثات هنا.

أرسل لي السيد سفير فرنسا التلغراف، الذي كان قد تلقّاه من قائد البارجة الفرنسية المرابطة قُبالة بيروت. وإليكم مضمونه:

في 06/27 - 07/09 كانت مجزرة المسيحيين قد بدأت في دمشق، قُتل كثير من الرجال، واقتيدت النساء إلى الحريم، وحُرقت القنصليات ما عدا (وهذا يستحق التنويه) قنصلية إنكلترا، وكان قناصل فرنسا واليونان ونائب القنصل الروسي قد احتموا عند عبد القادر في دمشق. وكما هو الحال في أماكن أخرى، لم تبذل السلطات التركية أي جهد لمجابهة تعدّيات الأهالي. ويضيف القبطان لارونسيير أن حالة النفوس في بيروت كانت خطيرة. ليس لديَّ حتى الآن، حول هذه النقطة الأخيرة أية معلومة من قنصلنا العام في هذه المدينة.

نقلت إلى علي باشا برقية السيد بيجر. كان لا يعلم بعد شيئاً، وبدا لي حرفياً أنه مضطرب من جرّاء هذا النبأ.

ذكّرته بالتنبيهات التي كنت قد أبلغته إياها سابقاً حول موضوع دمشق والسلوك الملتبس للوالي أحمد باشا. وكنت قد نبهته إلى أن القناصل الأوروبيين كانوا، قبل كلّ النكبات التي توالت على دمشق، قد ألحّوا على القادة الأتراك في ممثلياتهم، كما أن ممثلي القوى العظمى في القسطنطينية كانوا قبل شهرين قد طالبوا الباب وباستمرار بأن يتحرّك بقوة. وإني أُنصف جهود الحكومة ولو متأخرة، لكني أضيف أن سلوك باشوات سورية كان يُجيز الإشتباه الشائع جداً حول تواطؤ مباشر بين الحكومة العثمانية والدروز.

صاح علي باشا مُحتجّاً بالألم الذي كان هو وزملاؤه يشعرون به إزاء ما كان يحدث؛ وصبَّ جام غضبه والنعوت القاسية على مختلف قادة القوات في سورية؛ وقال إن أحمد باشا الدمشقي كان يستحق الشنق، وأنه كان قد كتب إليه منذ خمسة عشر يوماً، بأن عليه أن يجمع المزيد من القوى الممكنة في المدينة وأن يتحمّل بنفسه أمنَ المسيحيين.

أكّد لي علي أن القناصل المحتمين بعبد القادر كانوا في منأى عن كل خطر؛ فما من أحد يتجرأ على تهديدهم، وهم في عُهدة هذا القائد المشهور، المُحاط في سوريا باحترام يقارب العبادة.

تابع وهو يعلن لي أن فصائل عسكرية جديدة كانت سترسل إلى سوريا، وأن حكومة السلطان كانت تعتمد بقوة على النشاط الذي سيبذله فؤاد باشا منذ وصوله إلى الميدان.

قال لي علي، إنه ذهب وهو مصمّم على الإقتصاص بلا رحمة، من المجرمين من كل رتبة.

حين تلقّى السيد سفير فرنسا تنبيهاً إلى الإنفعال العميق الذي أحدثته أخبار سورية في باريس، انتهز الفرصة المواتية لكي يوجّه إلى فؤاد باشا إنذارات جدية، ولو بشكل سرّي للغاية.

قرأ السيد دي لافاليت عليٌّ رسالته إلى فؤاد باشا. وفيها يوجز حوادث سورية، مع إرفاقها بتأملاتٍ صارمة، ويذكّر بتباطؤات الباب، والسلوك المشين لقادة الولاية، ويكشف تواطؤهم الظاهر على الأقل مع العابثين، ويدعو فؤاد باشا إلى الإعتبار بأن شرف عاهله، شرف الجيش والإدارة، يُوجب عليه اتخاذ تدابير قوية تُنفّذ بسرعة.

يرى السيد دِي لافاليت أن هذه الرسالة، التي أثّرت في فؤاد وعلي باشا تأثيراً عميقاً، جرت تلاوتها في المجلس ورُفعت إلى السلطان نفسه.

أرى من واجبي أن أضع تحت نظر معاليكم ترجمةً للفرمان (القرار) الذي بموجبه كُلّف فؤاد باشا بمهمته في سورية.

يشرّفني أن أرفع أعمق التقدير.

أميري

من الخادم المطيع، المطيع جداً لمعاليكم

إلى معالي السيد الأمير غورتشاكوف

بيروت 8 / 20 جويلية 1860

رقم 100
03 ملاحق

أميري،

أنتهز رحلة باخرة غير عادية إلى أوديسار لأبعث إلى معاليكم نسخة مُرفقة عن تقرير بتاريخ 06/29 - 07/11، رقم 80، تلقيته من قنصلنا العام في بيروت، وهو ينطوي على بعض التفاصيل حول أحداث دمشق الأخيرة.

وفقاً للتقارير الأكثر شمولية التي تلقّاها سفير فرنسا في آن واحد من دمشق، وتفضّل بقراءتها عليَّ، كان يُفترض بالحركة الإسلامية أن تندلع في هذه المدينة مرتين، قبل المجزرة الممتدة من 6/27 جوان إلى 09 جويلية، وأن عبد القادر هو الذي استطاع ببيانه ونشاطه في المرتين أن يحول دون وقوعها. وفي أثناء المجزرة، أنقذ الأمير عدداً كبيراً من المسيحيين، وعموماً كان سلوكه في هذه الظروف الخطيرة فوق كل مديح.

أما والي دمشق العام فلم يشجّع الإنتفاضة بسلبيته وحسب، بل قام أيضاً بتحريض المسلمين على الأهالي المسيحيين. وحسب قول قنصل فرنسا، كان ذلك ضربةً مبيّتة من قبل أحمد باشا منذ أمدٍ بعيد، للإنتقام من مسيحيي دمشق لمقتل حماه الذي قتلوه قبل ثلاثين سنة.

خلال إرسال البريد، كان تهييج النفوس متواصلاً في دمشق، ولم يكن عبد القادر واثقاً من القدرة على حفظ حياة القناصل

المحتمين عنده حتى النهاية. وأنا لا أطالب بـــلا جـــدوى، أن توضع تحت أنظار معاليكم أيضا، ترجمة مع ملحـــق، لتقريـــر قنصل اليونان في بيروت إلى المفوضية الهلينية في القسطنطينية.

لقد غادرت بارجتنا مرفأ بيروت في 06/23 - 07/05 لكي تذهب إلى البيري، ومن هناك إلى وجهتها التالية.

يشرّفني أن أرفع أعمق التقدير.

أميري

من الخادم المطيع، المطيع جداً.

إلى معالي السيد الأمير غورتشاكوف.

بيروت في 16/ 28 أوت 1860

رقم 119

أميري،

إثر المعلومات الأخيرة التي أرسلها فؤاد باشا إلى الباب، بتاريخ دمشق، قام السلطان بإرسال خط همايوني (مرسوم إمبراطوري) لتأييد تدابير العدالة والحزم التي اتخذها في سبيل إحلال السلم في سوريا. وبما أنه كان راغباً في الوقت نفسه، في التنويه بعبد القادر، وبحسن عطفه وسلوكه الطيب خلال مجازر دمشق، منحه السلطان وسامه، المجيدية من الدرجة الأولى.

أبلغني سفير فرنسا مشروع توجيهات مماثلة، وضعتها الحكومة لأعضاء اللجنة الأوروبية في سورية، ونالت موافقة القوى العظمى الأربع. وكانت إنكلترا قد وافقت عليها من قبل، وكان مبعوثها اللورد دوفرين، الذي وصل مؤخراً إلى القسطنطينية، قد تلقّى نصّها الرسمي من طرف حكومته.

إن بعض المقابلات التي أجريتها حتى الآن مع المبعوث البريطاني، تركت لديّ انطباعاً حسناً جداً. أما بالنسبة لطابعه الشخصي والرغبة الصادقة – التي يبدو أنه يكنُّها دون فكرة مسبقة – للسعي إلى تحسين فعلي لمصير المسيحيين في سورية،

فقد قال لي اللورد دوفرين إن أحد الأسباب التي جعلت مكتب الخارجية يختاره لمهمة الثقة هذه، هو رغبة الحكومة الإنكليزية في جعل تدخلها الدبلوماسي في سورية مستقلاً قدر المستطاع عن الأفكار المسبقة والآراء المحلية الشائعة، التي يتأثر بها نسبياً في نهاية المطاف، المعتمدون الأجانب المقيمون في هذه المناطق.

وأضاف أن في نيّة حكومته، يتعيّن على ممثلي القوى العظمى الخمس أن يكونوا متضامنين تضامناً وثيقاً فيما بينهم، حتى يسجّلوا أمام عيون سكان سورية، الموجودين أمامهم، ليس تأثيراً حصرياً ومهيمناً لهذه القوة أو تلك، بل عملاً جماعياً لأوروبا بأسرها، المجتمعة في مجلس، لكي تقرِّر الوسائل الكفيلة برفاه المسيحيين، وإقامته على أسس متينة.

يرى اللورد دوفرين أن عليه الذهاب باستمرار إلى بيروت. يرافقه موظف في مكتب الخارجية بصفة سكرتير، هو السيد ميد. لقد اختارت الحكومة الفرنسية مبعوثها بشكل نهائي. إنه السيد بدار، قنصلها العام في الإسكندرية. وقال لي السيد دي لافاليت إنه قد تلقّى الأمر بالذهاب مباشرة إلى مكان عمله الجديد دون المرور بالقسطنطينية.

لكل هذه الأسباب أرى أن من الضروري تسريع سفر السيد نوفيزكو إلى بيروت، حتى يتطابق وصوله إلى هذه المدينة مع وصول زميليه من إنكلترا وفرنسا. وعليه، فإن مبعوثنا سيأتي إلى بيروت في مطلع الأسبوع القادم.

لن أتوانى عن تزويده بتعليمات خاصة، مُستفادة أساساً من التوجيهات، التي تفضلتم معاليكم بإرسالها لي حـــول هـــذا الموضوع. كما أن السيد دِي رهفوير، مستشـــار مفوضـــية بروسيا في القسطنطينية، تلقّى قرار تعيينه كمبعوث بروســـي مفوّض في سورية. وهكذا لم يبق سوى الحكومة النمســـاوية التي لم تعلن بعد اختيارها، الذي يُفترض وقوعه على لودولف، القائم بالأعمال في القسطنطينية حالياً.

يشرّفني أن أرفع أعمق تقديري.

أميري،

خادمكم المطيع، المطيع جداً.

إلى معالي السيد الأمير غورتشاكوف.

بيبلوغرافيا

- **Abdelkader Boutaleb**:L'Emir Abdelkader et la formation de la Nation algérienne. Ed Dahlab,1990.

- **Alexandre Benningser et Ch. L.**: Quelquejay,le soufi et le commissaire,confréries musulmanes en U.R.S.S.ed Seuil,paris 1986.

- **Annia-Rey Goldseigner**: Le Royaume arabe, S.N.E.D. Alger, 1977.

Aubier (Lieut-Col. A): La bataille de Sikkak (06 Juillet 1836). Rev. de cavalerie (Part, Berger-Levrault, 1905).

- **Abdeljelil Temimi**:Recherches et documents d'histoire maghrébine. Tunis, 1980.

- **Bachir Ibrahimi**: Athar El-Ibrahimi. S.N.E.D. Alger, 3 Vol, 1979.

- **Benachenou Abdelhamid**: L'Etat Algérien en 1930, Ses institutions sous l'Emir. Alger, 1969.

- **Bellemare A**: Abdelkader. Sa vie politique et militaire. Paris, 1854.

- **Berbruger Adrien**: Echange des prisonniers. Négociations entre Mon seigneur l'Evêque et Abdelkader. Paris, 1844.

- **Bugeaud (Le Maréchal)**: Le traité de la Tafna. Discours prononcé à la chambre des députés.(08 juin 1838). Paris, 1925.

- **Bruno tienne**: Abdelkader.Ed. Hachette, paris 1994.

- **Cheikh Bouamrane et L. Gardet**: Panorama de la pensée islamique, Ed .Sindbad, paris 1984.

- **Charles-Henry Churchill**: La vie d'Abdelkader. S.N.E.D, 1971

- **Christian,(P) (Pseudonyme de Pitois)**: L'Afrique française, l'empire du Maroc et les déserts du Sahara.Histoire nationale des conquêtes,victoires, et nouvelles découvertes des Français depuis la prise d'Alger jusqu'à nos jours. Paris, 1846.

- **Civry (Conte Eugène de)**: Napoléon III et Abdelkader. Charlemagne et Witkind. Étude historique et politique. Biographe de l'Emir contenant un grand nombre de lettres et de documents inédits avec un fac-similé et un portrait sur acier. Paris, 1853.

- **Custine Astolphe :** De La Russie en 1839. Paris, 1843.

- **Delpin G** : Chamyl, le prophète au Caucase. Paris, 1854.

- **Dermengheim (E.)**: Les souvenirs de l'Emir dans la région de Mascara. Des documents algériens. Synthèse de l'activité Algérienne, 1849. Alger, 1950.

- **Dumas Alexandre**: Impression de voyage. Paris, 1868.

- **Estailleur, Chanteraine (Philippe D')**: Abdelkader. L'Europe et l'Islam au XIXè siècle. Paris, 1947.

France (Napoléon. Maurice. Pseud. A. de.): Les prisonniers d'Abdelkader ou cinq mois de captivité chez les Arabes, Ed. Par Ernest Alby. Paris, 1837.

- **Jacques Berque**: L'Islam au temps du monde., Ed Sindbad, Paris 1984.

- **Gautier Théophile** : - Voyage en Russie. Paris, 1867.

- Les Religions et les philosophes dans l'Asie Centrale. Paris, 1865.

- **Golovin Ivan**: La Russie depuis Alexandre le bien intentionné. Paris, 1859

- **Julien Charles André**:Histoire de l'Algérie contemporaine. T.I: La conquête et les débuts de la colonisation (1827-1871). Paris, 1964

- **Hadji Mourad:** Tolstoï. Paris, 1910.

- **Herzen Alexandre**:le développement des idées révolutionnaires en Russie. Paris, 1851.

- **Hommaire de Hell Xavier**: Voyage dans les steppes du Midi de la Russie, 3 Vol. Paris, 1844.

- **Hugonnet. (Fed)**: Français et Arabes en Algérie. La moricière, Bugeaud, Daumas, Abdelkader. Paris, 1860.

- **Ibn Badis:** Athar Abdoulhamid Ibn Badis, S.N.E.D. 4 Vol, 1985.

La croix P.: Histoire de la voie et du règne de Nicolas 1er. Paris, 1865.

- **Louis Lataillade**: Abdelkader adversaire et ami de la France. Ed Pygmalion, Paris, 1984.

- **Lesly Blanch**: Les Sabres du Paradis, Ed Latès, 1990

- **Martimprey (Le général compte E. CH. de.)**: Souvenirs d'un officier d'état-major. Histoire de l'établissement de la domination française dans la province d'Oran, 1830 Paris, 1886.1847.

- **Mahfoud Khaddache**: L'Emir Khaled. Ed.Harmattan, Paris.

- **Merlieux Edouard**: Souvenirs d'une Française captive de Chamyl. Paris, 1857.

- **Montpereux(F. Dubois de)**: Voyage autour du Caucase, chez les Tchétchènes Abkhases, et en Arménie, Géorgie et Crimée. Paris, 1839.

- **Monin (F)**: Abdelkader, littérateur et philosophe. Lyon, 1896.

- **Michel Chodkiewicz**: L'Emir Abdelkader - écrits spirituels,Ed. Seuil, Paris 1982.

- **Nina Bachkatov et Andrew Wilson**: Tchétchènie. Histoire d'un conflit, 1985.

- **Nettement Alfred-François** : Histoire de la conquête d'Alger, écrite sur des documents inédits et authentiques. Paris, 1856.

- **Patrick Karam, Thibaut Mourgues**: Les guerres du Caucase, des Tsars à la Tchéchènie. Perrin, 1995

- **Pierre Laffont**: Histoire personnelle de la France au XIXè siècle. Laffont, 1986.

- **Pellissier de Reynaud** : Annales Algériennes. Nouvelles ed. Revue corrigée et continuée jusqu'à la chute d'Abdelkader, avec un appendice contenant le résumé de l'histoire de l'Algérie de 1848 1854 et divers mémoires et documents. Paris, 1854, 3 Vol.

- **René R. Khawam**: Abdelkader. Lettre aux Français, Phébus, 1984.

- **Roux C., Alexandre II**: Gortchakov et Napoléon III. Paris, 1913.

- **Sahli Mohamed Chérif)**: Abdelkader, le chevalier de la foi. Alger, 1953.

- **Smail Aouali, Ramdane Redjala, Philippe Zounmeroff**: Abdelkader, 1984.

- **Varnet, Horace**: Lettres intimes pendant son voyage en Russie, 1842-1843. Paris, 1856.

- **Valée Maréchal** : Correspondance du maréchal Valée, publiée par G. Yver. Paris, 1949-1958, 5 Vol.

سحب الطباعة الشعبية للجيش
الجزائر — 2007



بوعلام بسايح. من مواليد البيض بالجزائر.
دكتور في الآداب والعلوم الإنسانية. رئيس المجلس الدستوري الجزائري حاليا، سفير ووزير للثقافة ثم للشؤون الخارجية سابقا.

له عدة أعمال أدبية وتاريخية (باللغة الفرنسية):

- راية محظورة أشعار الحرب والحب لمحمد بلخير. تقديم جاك بيرك، دار سندباد، باريس 1976.
- من الأمير عبد القادر إلى الإمام شميل. بطل الشيشان والقوقاز. دار دحلب 1997. ط2 المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. الجزائر 2001.
- الأمير عبد القادر مغلوبا لكن مظفرا.. من لويس فيليب إلى نابليون الثالث. ط1 المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار. الجزائر 2002.
- جذور الأصالة. المقاومة بالسيف أو القلم. المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. الجزائر 2002.
- عبد الله بن كريو. شاعر الأغواط والصحراء منشورات الجنوب. باريس 2003.
- الجزائر.. الجميلة الثائرة. من يوغرطا إلى نوفمبر (شعر) تقديم الرئيس عبد العزيز بوتفليقة. المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار. الجزائر 2004.
- سيناريو فيلم: ملحمة الشيخ بوعمامة. الجزائر 1984.



ISBN 978-9947-24-265-0

